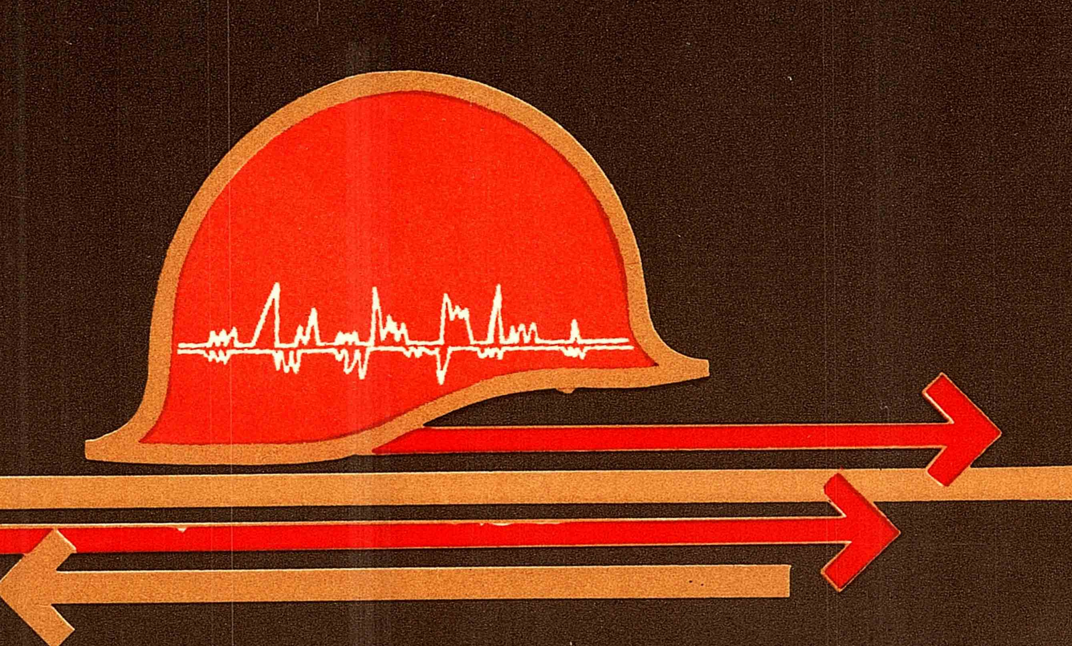
المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

٥

الذكاء والقيم المعنوية في الحرب

الجنرال جان پيريه



تعريب: أكرم ديري • المقدم الهيثم الأيوبي

الذكاء والقيم المعنوية في الحرب

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً - موكيالي بيروت - ص.ب: ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الثانية

١٩٨٦

الجنرال جان پيريه

الذكاء والقيم المعنوية في الحرب

تعريب: أكرم ديري • المقدم الهيثم الأيوبي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ١/ ٨٠٧٩٠٠
برقياً: موكيالي، بيروت - ص.ب: ١١/٥٤٦٠ بيروت

مَدخَل

الذكاء وَالقوى العاطفية

الكائن البشري هو صانع الحرب وأداتها الأولى . وتستخدم الحرب جميع قوى هذا الكائن المادية والفكرية والعاطفية الكامنة . ولكن القدرة البدنية التي يبذلها المقاتل الفرد في الصراع ، والتي تتزايد بشكل واسع بفضل قوة اسلحته ، وتتضاعف بعدد رفاقه المنظمين ،وتسير حسب توجيهات القائد ، إن هذه القدرة فقدت جزءاً كبيراً من مكانتها ، ولم تعد في المعركة الحديثة إلا عاملاً ثانوياً إضافياً ، ولكنها مع ذلك عاملٍ ضروري ، لأن اختفاء العدد المضروب به في العمليات الحسابية يجعل النتيجة صفراً، على الرغم من ضخامة العدد المضروب الأصلي . كل هذا يعني أن مجموعة القوى العقلية للأنسان هي محرك الحرب ، فمنها تنبثق الإرادة وأساليب القتال وتنظيمه وشكله . ولا عجب في ذلك ، فهي أكبر قوة في العالم ، وهي التي بدلت سطح الأرض ، وشيدت الحضارات وقوّضتها .

تتمثل النشاطات العقلية الواعية للانسان منذ زمن بعيد على شكل نشاطات فكرية ومعنوية وجمالية ودينية واجتماعية . وسنبحث قبل كل شيء النوع الأول(الذكاء)، لنحدد صفاته بوضوح بالنسبة الى الأنواع الأخرى التي تتمتع بقسط أكبر من العاطفية . أي أننا سنتبع التقليد القديم ، الذي جعل العسكريين في كل الأزمان يهتمون بتدخل الذكاء والقوى المعنوية في الصراعات المسلحة . وهذا لا يعني أننا نرى النشاطات العقلية مختلفة بعضها عن البعض الآخر بصورة جذرية ، كما لا ننكر تأثيراتها المتبادلة ، بل نقر ذلك كما سنرى ، إلا أن عمل الذكاء الأول هو تمييز الأمور ، ويبقى هذا العمل مهماً عندما يقوم الذكاء بدراسة ذاتية لنفسه .

● الذكاء هو القدرة على فهم العلاقات بين الأشياء والأشخاص والأحداث ، ويملكه الجميع بدرجات متفاوتة وأشكال مختلفة . وهو يختلف عن الوظائف العضوية

بأنه لا يتعلق بالتكنيك أو الفيزياء أو الكيمياء ، ولا يستهلك أية قدرة ، ولا يسبب أي نشاط فيزيولوجي ، ولا يخضع إلى القياس بشكل دقيق . وللوصول الى بعض الصفات المحددة نستخدم طريقتين مختلفتين هما : **الدراسة الذاتية** المعتمدة على قياس نوعي من قبلنا لما يجري في داخلنا ، **ودراسة التصرفات البشرية عند الآخرين** ، تلك الدراسة التي تقدم لنا بعض المعطيات الكمية . بيد أن هنالك احتمالاً للخطأ ، عندما نأخذ بنتائج القياس الناجمة عن التجارب المعدة مسبقاً بشكل دقيق ومخطط (الاختبارات النفسية) ، التي تسمح بتصنيف الأفراد إلى زمر ، ومعرفة الصالحين لبعض الأعمال السهلة ، وتقدير امكانات الشبان . ذلك لأن من المستحيل تمييز أعماق الانسان الوراثية عن صفاته المكتسبة .

لقد كشفت الاختبارات بشكل أكيد ضعف قدرة التفكير لدى معظم الناس ، أي أنها أثبتت حقيقة أكدتها تجربة آلاف السنين ، وهي أن معظم الناس غير أذكياء ، وتتمتع القلّة بقيمة فكرية جيدة ، بالاضافة الى عدد محدود جداً من المتفوقين ، وليس هناك مَن تجاوزَ حدود البشر بعد . ولقد أجريت أول تجربة واسعة النطاق ، عندما تمّ انشاء الجيش الاميركي الكبير في الحرب العالمية الثانية . وشملت هذه التجربة خمسة عشر مليون انسان ، لذا يمكن النظر الى نتائجها بعين الاعتبار . وكان مقياس الدراسة **العمر العقلي** الذي يعطي تقسيمه على **العمر الزمني** نسبة تسمح بتصنيف الأفراد ، ولقد أعطت هذه التجارب النتائج التالية : أثبت ٣٤,٨٥٪ من الأفراد أن عمرهم العقلي أكبر من عمرهم الزمني ، وكانت الدرجة العقلية لـ ٣٤٪ تتراوح بين ١٠٥ و٩٦ ، أي أن عمرهم العقلي مساوٍ لعمرهم الزمني ، كما كان ٣١,٢٣٪ يتمتعون بعمر عقلي أصغر من عمرهم الزمني ، إذ كان عمرهم العقلي يتراوح بين ١١ و١٣ عاماً . ثم اظهرت التجارب التالية ، السائرة وفق المبدأ نفسه ، ان في كل ١٠٠ طفل من العرق الأبيض ٣ ـ ٤ أطفال من ذوي الذكاء الخارق ، و ١٠ أطفال متفوقون جداً ، و ١٠ آخرين متفوقون، و ٤٠ عاديون ، و ٣٠ يقل ذكاؤ هم عن المتوسط ، و٦ ـ ٧ أطفال متخلفون عقلياً . كما دلت تجارب أخرى على ان النسبة بين العمر العقلي والعمر الزمني لفرد ما تبقى ثابتة طيلة حياته ، أي أن تصنيف الانسان بين أقرانه يكاد لا يتبدل ، هذا مع العلم أن الوظائف الفكرية تزداد تعقداً مع تقدم السن[1] .

ويحتاج نمو الذكاء وظهوره إلى تدريب دائب ، وتوافر بعض شروط البيئة التي لم تحدد جيداً بعد . « إن المراقبة الكاملة العميقة للأمور ، وعادات التفكير العميق ،

---

(١) يتم الوصول الى النضوج العقلي في سن ١٦ عاماً .

ودراسة المنطق ، واستخدام الأساليب والتعابير الحسابية ، والانضباط الداخلي ، تؤدي كلها الى زيادة القدرة الفكرية . أما الملاحظة الناقصة السريعة ، والانتقال السريع من إحساس الى آخر ، وتعدد الصور ، وانعدام القاعدة والجهد ، فهي أمور تمنع بمجموعها تطور الفكر »(١) . ويمكننا أن نوجز كل ذلك بقولنا : إن التركيز يفيد الذكاء والتبعثر يؤذيه .

ولقد استطاعت الملاحظة والتجربة الدقيقتان المنهجيتان ، بالاشتراك مع المحاكمة التحليلية والتركيبية ، أن تقدم للانسانية عن طريق العلم إمكانية الطمأنينة التي لم تكن تجدها في الزمن القديم إلا بواسطة الإيمان . ولكن الذكاء وحده لا يكفي الإنسانية للتقدم على دروب المعرفة ، ويتطلب عمل البعض (علماء ، مبدعين ، قادة) بالاضافة الى ذلك،وجود قدرة غريبة ، هي مزيج من الإلهام والتخيل الخلاق والوحي ، تستطيع ملاحظة العلاقات بين الظواهر المنغزلة ، وتكشف الحقيقة دونما حاجة الى تفكير ، أو بتفكير لمّاح سريع ناجم عن ملاحظة آنية . ويمكن اعتبار كل ذلك نوعاً من التلاحم الوثيق مع الواقع . « إن القائد الحقيقي لا يحتاج الى اختبارات نفسية أو بطاقات تسجيل المعلومات ليختار مرؤوسيه . . . كما ان العالم الكبير يتجه تلقائياً الى حيث يوجد الاكتشاف » (آ . كاريل) . ان أمثال ليوناردو دافينشي وباسكال كانوا يملكون إلهاماً قوياً ، ويشعرون به يستيقظ في أعماقهم ، ولقد عبروا عن ذلك بما يشبهَ قول نابليون : « يتوقف مصير المعركة على لحظة أو فكرة . . . وما أن تَلمع الشرارة المعنوية حتى تُنفذ العمل أصغر قوة احتياطية » .

ان لدى الأشخاص المتفوقين نوعين من الأفكار : أفكاراً منطقية وأخرى تلقائية ملهمة ، ولكن ليس لديهم أية أفكار مجردة من الإلهام . وامتزاج هذين النوعين ضروري ، لأن التفكير يُعدّ الشرارة ، في حين يراقب الالهام أداءاتها ، ويضع اكتشافاتها موضع العمل « فبالمنطق نبرهن ، وبالإلهام نخترع » .

وقد تنجم هذه الميزة الغريبة المؤلفة من المراقبة الجمالية ، وغريزة كشف الحقيقة ، والمحاكمة ، والارادة ، من الحقيقة الفيزيولوجية التي يقبلها اليوم معظم علماء وظائف الأعضاء ، والتي تقول اننا لا نفكر بعقولنا فحسب بل بجميع اعضائنا ، وان نشاطنا الفكري الذي يبدو واضحاً ، غارقٌ في الحقيقة وسط خضم حالات وعينا الأخرى ، المتصفة بالعاطفية بدرجات مختلفة .

---

(١) « L'homme c'est inconnu » A. Carrel , Plon, èditeur.

ولكي نقوم بدراسة الذكاء ، نفصله عادة عن كل ما هو جزء منه ، متجاهلين ان المفكر يخضع لحالات السعادة والتعاسة ، ويكون هادئاً أو مضطرباً ، ومتأثراً بشهواته ونفوره ورغباته ، أو غير متأثر . ان الحب والكراهية والخوف والغضب كلها قادرة على تشويش المنطق ، ونحن ندرك هذا من التجربة الجماعية . ويتطلب ظهور هذه الأهواء مبادلات فيزيائية داخل الجسم البشري . وبهذا الشكل تنشأ العلاقة بين العمل الفكري والوظائف العضوية عن طريق الوساطة ، رغم أن العمل الفكري لا يحتاج لأية وظيفة من هذه الوظائف .

● **النشاطات العاطفية** (عواطف ، أهواء) إنها قريبة جداً من الفيزيولوجيا ؛ وهي تشكل المزاج أو الطبع (حسب أهمية العوامل الفيزيولوجية والعقلية الداخلة فيهما ، والمتصلة ببعضها بشكل وثيق) ، وتختلف من شخص إلى آخر .

• **انها دفعات عاطفية ، توجهنا الى العمل الذي لا يقوم الذكاء إلا برسم مخططه . ولقد لاحظ شوبنهاور انها كثيرة التباين ، فللبعض ميل الى الأنانية أو اللامبالاة تجاه** أقرانهم . ومن الناس من يتصف بالسوء ومنهم من يتمتع بالطيبة . والحس الخلقي هو قدرة الفرد على ضبط قواه العاطفية ، وسيطرته على نفسه لتختار من الأعمال الممكنة العمل الذي يراه حسناً ، وتترك ما يعتبره سيئاً . وقد يبدو مقياس الحسن والسيء تعسفياً قاسياً في بعض الأحيان ، ولكنه يتلاءم غالباً مع متطلبات أساسية للحياة الفردية والاجتماعية ، وهو مبني على ركيزتين هما العقل وتجربة الانسانية خلال آلاف السنين . ويتعلق الحس الخلقي ، الذي يضع هذا المقياس ، بمجموع الذكاء والحس الجمالي والحس الديني والحس الاجتماعي . وهو يؤثر كالمنطق على الذكاء ، ويحتاج مثله إلى أن يُنمّى بالتربية ويُقوّى بالاستخدام . ولكن استخدامه يتطلب تدخل الارادة ، أي صفة التصميم على القيام بالفعل أو الامتناع عنه . والإرادة متبدلة ايضاً بتبدل الأشخاص والزمن والعرق والوسط ، وهي خاضعة للتنمية والتمرين .

وإذا ما امحى الحس الخلقي ودعامته الأساسية (الإرادة) في شعب من الشعوب ، فإن الضوابط القانونية لا تستطيع إخماد هذا التدهور أو تمويهه ، ولكن البنيان الاجتماعي يتشقق من كل ناحية ويبدأ الانهيار . إن تعبير « القوى المعنوية » تعبير تقليدي في الجيش ، لتحديد مجموع الصفات المعنوية ، لذا بدا لي أن علينا أن نبقى مخلصين لهذا التعبير بعد تحديد معناه وأبعاده .

إنني أعرف أن جان روستاند ، اشهر البيولوجيين لدينا ، يفضل استخدام تعبير

« الشعور الاجتماعي » لأنه اكثر تحديداً ، وهو يقول ان طبع كل فرد محدد بالصفات الموروثة من أسلافه ، ومتعلق ايضاً « بالأحداث النفسية لطفولته الأولى ، وتقاليده العائلية والدينية ، وطبقته الاجتماعية،وخصائصه الوطنية . . . الخ » . ولكنني أعتقد أنه على الرغم من دقة التعابير التي يفرضها على هذا العالم الكبير التزامه الثقافي العميق ، فإنه يقبل مساواة التعابير الثلاثة : حس خلقي ، قوى معنوية ، شعور اجتماعي . ويزيد من تأكدي أنه يقول في أحد استنتاجاته الهامة : « يملك الانسان،لكي يسيطر على الكرة الأرضية قوتين هما : الذكاء والشعور الاجتماعي »[1] . ، مغطياً بذلك أهم ما أوصلتني إليه دراساتي حول الذكاء والقوى العاطفية في الصراعات المسلحة .

* * *

يمكن اعتبار ما تقدم لائحة موجزة للتعاريف ، لأن استخدام لغة محددة أمر مفروض قبل البدء بدراسة واقعية لأية مسألة ، خاصة إذا تعلق الأمر بدراسة نشاطات فكرية وعاطفية ، أي دراسة كيان مجرد لا يتمتع بحقيقة مادية ، وظواهر لا تخضع للقياس الدقيق ، وتتصف بأنها ـ رغم تميزها ـ متشابكة يتعلق بعضها بالبعض الآخر ، وتستند إلى قاعدة فيزيولوجية تحاول بدورها التأثير عليها . ولقد اجبرني هذا التميُّز والتداخل ، والتخصص والتلاحم ، على أن أدرس الذكاء والصفات العاطفية في الحرب بآن واحد ، وان اضع تحت عنوان كتابي عنواناً صغيراً هو « مجموعة دراستين » . وأنا أقصد بهذا التعبير معنيين : اولهما ما تقصده جملة « أعصاب وآلات مجتمعة » (أي عناصر مجتمعة لتحقيق الإحساس نفسه أو العمل ذاته) ، وثانيهما ما يقصده تعبير « حجارة مجتمعة » ، الذي يعني به النحاتون التماثيل المنحوتة على شكل رأسين متراكبين ذوي صورة جانبية واحدة ، كبعض التماثيل الحجرية القديمة الرائعة ، التي ينتهي كل طرف من طرفيها برأس تعلوه خوذة .

إن هذا الكتاب ثمرة معاناتي وأعمالي وتأملاتي خلال حياتي كجندي وقائد . ولكم تعرضت الى اغراء يدفعني إلى إنهائه ، ولكني لست نادماً على مقاومة هذا الاغراء . لقد اعترف باسكال يوماً الى صديقه وتلميذه في الفكر الدوق الشاب دو روإينيز De Roennez « ان الافكار تأتيني متأخرة ، ولكنني أحس قبل قدومها بأن هناك ما يعجبني أو يضايقني ، دون أن أعرف لذلك سبباً » . والحقيقة ان الانسان يفكر في أيام الصبا على هذا النحو . وبما أن الذكاء لا يصل إلى ذروة تطوره إلا عندما يصل

(١) « L'homme» Jean Rostànt, N.R.F. Gallimard collection « Idées»

الإنسان الى عامه الخامس والأربعين أو الخمسين ، فإن من الغرور أن يحاول أي أمرىء قبل ذلك دراسة حياته السابقة ، وفهم الالهام الذي كان يدفعها ، ليستنتج من ذلك دروساً يطرحها على الآخرين .

« إن بومة أثينا لا تطير إلا عند الغسق »[1] . (هيغل) .

---

(١) البومة طائر يمثل الحكمة والتعقل عند الاغريقيين . واثينا Athéna ou Athéné هي الهة الفكر والعلوم والصناعات عند الإغريقيين ، كما كانت مينيرفا عند الرومان .

(المعربان)

الدراسة الأولى

الذكاء والحرب

إن دور الفكر في الحرب كبير حقاً
(سالوست)

تقديم

« كنت آنئذٍ في المانيا لأشارك في حروبها التي لم تنته بعد . وبينما كنت عائداً من حفلة تتويج الأمبراطور إلى الجيش ، أوقفتني بداية الشتاء في معسكر لم أجد فيه محدثاً يسلّيني . ولم يكن عندي لحسن الحظ عادات أو هوايات عنيفة تشغلني ، فاضطررت أن أبقى وحيداً حبيس غرفة دافئة ، وغدت تسليتي الوحيدة مقتصرة على التحدث مع أفكاري » .

في خريف ١٩١٤ كنت ممدداً على سرير مستشفى كليرمون، إثر إصابتي بسبعة جروح ، فلِمَ تذكرت آنذاك يا ترى قول ديكارت السابق ، والذي كان جزءاً من بقايا دراسات كلاسيكية غير بعيدة طفت على سطح ذاكرتي المحمومة ؟ ولِمَ تراءى لي في ليالي الأرق الطويلة ، ووسط كابوس مزعج ، ان جنياً صلفاً شريراً يأمرني بأن أكتب « محاضرات عن الأسلوب العسكري » كفدية لشفائي وعودتي إلى خطوط القتال ، رغم ان عودتي كانت تبدو آنذاك بعيدة الاحتمال ؟ .

وتماثلت للشفاء، واختفت أوهام الحمى ، وبدا لي خطل هذه الفكرة بكل وضوح ، خاصة وانني لم أكن سوى ضابط غِرٍّ في العشرين من عمره ، تخرج حديثاً من كلية سان سير الحربية ، ليبدأ حياته في مهنة السلاح بداية غير سعيدة . . . ونسيت الفكرة .

فلِمَ أعادتني الهزيمة ، والألم يعصر قلبي في خريف ١٩٤٠ ، وبعد خمسة وعشرين عاماً ، لأعيش بين جدران الصخور البركانية للمدينة القديمة في اوفيرن ؟ ترى هل كنت سأتذكر هذيان الماضي لولا هذه العودة ؟ أم لعلي كنت سأذكره خلال نزهاتي بعد التقاعد ، أو لا أذكره ابداً . . . ولكن كيف لا يعود المرء في ساعات الحزن الى الأيام الخوالي التي كانت أليمة ومليئة مع ذلك بالآمال ؟ ولاحظت خلال تأملي أن الأمر العجيب الذي سمعته وسط كابوس الحمى ، ثم ظننت أني نسيته ، لا يزال حياً في اعماقي بعد ٢٥ سنة قضيت ثلثها في الحرب . وبدون أن أدري ، تجمع جزء كبير من

افكاري وتجاربي وقراءاتي لأنفذ هذا الأمر ، وكشفت لي ضربة مجسّ قوية مفاجئة جيب ماء متجمع ، فجلست الى مكتبي وكتبت .

وعندما أعدت قراءة هذه الصفحات بعد سنوات ، كانت الحرب الثانية قد انتهت ، وسط ضجيج انفجاري هيروشيما وناغازاكي ، وبدأ عصر جديد من عصور الفن العسكري ، ورأيت أنه لا يمكنني مع ذلك أن أضيف أو أن أصحح أو أحذف من كتاباتي إلا القليل ، فعرفت ان عملي غدا كاملاً ، وانني أسير على مخطط الأفكار الرئيسية التي تعطي الفكر ، وسط التطور الأزلي ، عنصراً للاستمرار وقواعد للتوجه . . . فقررت متابعة العمل .

* * *

إنني احمل اليوم الفدية إلى أثينا الوحيدة التي تعتمر الخوذة ، ولكنني لا أريد أن تتهمني الآلهة الأخرى بالجحود ، كما لا أود أن يظن البعض انني اعطي العوامل الفكرية أفضلية لا تستحقها على العوامل المادية والمعنوية للنصر . إنني أعرف ككل شخص أن هناك ثالوثاً يهيمن على المعارك هو : الذكاء والشجاعة والسلاح ، كما أعرف أن بالاس ذات العيون الصافية لا تستطيع شيئاً دون غضب آريس ، وأنهما عاجزان إذا لم يمد فولكان الأسود لهما من على عتبة كوره ذراعاً مثقلة بالسيوف والرماح[1] .

ولكن أثينا وحدها تحمل في يدها نصراً محتماً ، ولقد قصدتُ تقديم ضحيتي الى معبدها فقط . لقد أطلقت الحضارة الأهواء ، وخلقت قوى مادية لم تعد تستطيع السيطرة عليها . وهنالك حتى الآن عقول متحمسّة مستعدة للتضحية ، ولكنها تتبعثر وتتيه على أنماط الحياة المختلفة وفوق الدروب الملتوية . وهنالك بالنسبة للآلات الرهيبة والتنظيمات المعقدة التي خلقناها خدم مثقفون مندفعون ، يحسنون إدارتها وتشغيلها لتحقيق منجزات مباشرة ، وإلى جانبهم عدد قليل جداً من سادة فكرة الجمال ، وصناع الارادة القوية ، والقادرين على رسم اتجاهات بعيدة يسيرون عليها ، وتحديد مهمات متلاقية مثمرة يحتفظون بها على الطريق ذاتها ، بيد فولاذية . ان الانسانية تسير اليوم بثبات لم تعرفه من قبل نحو مستقبل قلق ، وهي بحاجة إلى قادة ، إلى رجال يجتمع في داخلهم « روح جسورة أبيّة وعقل يفكر بعمق »[2] ، بحيث يصبح بإمكانهم استخدام

---

(١) بالاس Pallas اسم من اسماء الآلهة مينيرفا ، وآريس Arès إله الحرب عند الاغريق ويقابل الإله مارس Mars عند الرومان . وفولكان Vulcain إله الحديد والنار عند الرومان كان يعمل في كور تحت بركان إيتنا Etna في صقلية .

(٢) فوفنارغ Vauvenargues .

الوسائل وقيادتها وتوجيهها نحو أهداف معقولة . ومهنة حمل السلاح بحاجة اكثر من غيرها لهؤلاء القادة ، لأن تزايد وسائل الجنود المادية تجبرهم على السمو الى درجتها ليحسنوا استخدامها ، وتتطلب وجود قائد تجتمع فيه مزايا معرفة الرجال وتذوق التفكير وهوى العمل ، نظراً لتمتعه بصفات ثلاث متناقضة هي : الخيال والرأي السديد والإرادة .

* * *

وقد يستغرب القارىء احياناً عندما لا يرى في هذا الكلام إلا قسطاً صغيراً من الأمور المتعلقة بالعمل الحربي . فاذا جردنا هذا القسط من بعض المصطلحات،وجدناه يتجاوز الموضوع الى حد بعيد ، ويرسم بكل بساطة مظهراً من المظاهر الفلسفية للصراع والعمل ، لأن كل عمل صراع .

وهل في هذا ما يدعو الى الاستغراب ؟ إن الفن العسكري « لا يتألف من تفاصيل تكنيكية فحسب ، بل ان له فلسفته الخاصة »[1] . وبما أنه « فن واسع يشتمل على كل الفنون الأخرى »[2] ، فإننا نعتبر ان هذه الفلسفة تتجاوز حقله الخاص . ان شمول قاعدة ما لا يضعف من فاعليتها ، والحرب مكثّف عنيف ، يظهر بقوة الخطوط الرئيسية للعمل ، لذا فهي سيّد كبير وقوي من سادة الحقيقة .

وأرجو أن يغفر القارىء لي كثرة ترديدي للأقوال المأثورة ، وألّا يرى في ذلك سوى مظهر من مظاهر التواضع . والحقيقة ان التقائي مع فكرة كبيرة تنسجم مع أفكاري ، خلال عملي هذا ، كان يشكل بالنسبة لي حافزاً ودعماً .

---

(١) الجنرال فوا Foy .

(٢) نابليون بونابرت .

القِسمُ الأول

عمل الحرب

الفصل الأول

الصفات الاساسية للعمل الحربي والقيمة العملية للمبادئ الكبرى

« إن على المحاور أن ترسم المنحنيات »
(نابليون)

الحرب صراع جماعي مميت ، وهذه هي صفاتها الأساسية ، وما المبادىء التي تحكمها سوى قواعد السلوك المنبثقة من هذه الصفات ، والتي يكفي الرأي السديد لكشفها .

I- الحرب صراع

وهذا يعني اصطدام إرادتين متعارضتين ومستقلتين ، وكل شيء في الصراع نسبي ، ولا تكفي القوة والمهارة لتحقيق الانتصار ، وقد لا نحتاج إليهما احياناً . ولكن على من يريد الانتصار ان يكون أقوى وأمهر من خصمه[1] . وسواء أكان المصارع ملاكماً أم تاجراً ينافس مزاحمه ، فإنه يلاحظ بوضوح متفاوت ، ويطبق بوعي متباين ، القواعد الست[2] ، المختلطة والمتعارضة التي تحكم انواع الصراع كلها ، والتي يزيد تطبيقها احتمالات النجاح ، دون أن يؤدي بشكل آلي إلى النصر ، الذي يتعلق قبل كل شيء بردود فعل الخصم . وبالإمكان طرح القواعد الست بالشكل التالي :

ـ تأمين الحيطة ، ويتطلب ذلك تحقيق الحماية بناء على دراسة إمكانيات الخصم ، والبحث عن مفاجأة هذا الخصم مع الاعتماد على تصرفه المتوقع (التعرض مع الاحتماء) .

---

(١) « القائد المنتصر هو القائد الذي ارتكب من الأخطاء اقل مما ارتكبه خصمه » (تورين Turenne) .

(٢) القواعد الست هي :

١ ـ الحيطة ، ٢ ـ المفاجأة ، ٣ ـ الاقتصاد بالقوى ، ٤ ـ التجمع ، ٥ ـ ملاءمة الوسائل مع الهدف ، ٦ ـ المبادأة .
(المعربان)

- الاقتصاد بالقوى في المكان والزمان اللذين لا نحصل فيهما إلا على نتائج ثانوية ، مع استخدام اكبر الوسائل الممكنة في تنفيذ الجهود التي نريد لها نتيجة حاسمة (الاقتصاد يعني المخاطرة للتمكن من التعرض) .

- تحديد أهداف تتلاءم مع الوسائل المتوافرة ، وتخصيص الوسائل اللازمة إذا كان الهدف مفروضاً ، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الهجوم هو الوسيلة الحتمية للوصول الى النتيجة الحاسمة ، وانه لا يمكن البحث عن نتائج هامة دون التعرض لاخطار جسيمة[1] (تحقيق التوازن بين الهدف والإمكانـات ، علماً بأن الكسب الكبير بحاجة الى مخاطرة كبيرة) .

إن هذه الأفكار الثلاثة المتناظرة والمتعارضة تتطلب المخاطرة ، وهي تلائم العقل ما دامت قوتان من نوع واحد وتتمتعان بحرية عمل واحدة تتحركان حتى يقع الاصطدام . كما أنها تقدم تصويراً واضحاً للأسلوب الهيغلي (الفرضية والنقيضة والمركبة) ، الذي طبقه كلاوزفيتز ، واعتبره روح فلسفة الصراع .

ولكننا نلاحظ منذ البداية انّ تطبيق هذه الأمور المتعارضة يخلق لنا صعوبات جمّة .

ومما لا شك فيه ، أن رغبة المرء في تحقيق أمنـه ، مع البحث عن مفاجأة الخصم ، عملان متناقضان من بعض الوجوه . إن محاولة الحماية ضد إمكانات العدو المختلفة عامل توزّع ، في حين ان العمل بناء على التصرف المعادي المتوقع يحتاج الى تجميع معظم القوات في لحظة معينة . فإلى أي مدى يمكننا أن ندفع الاقتصاد بالقوى في المناطق الثانوية ، وإلى أية درجة سنتقبل الخطر لتحقيق التجمع اللازم للوصول الى حل حاسم ؟ إن كل جيش يرغب في الانتصار ، ويسعى إلى تحقيقه بأكبر سرعة ممكنة . ولنلاحظ أن نابليون ، الذي قدموه لنا خطأ كقائد يبحث عن الحل الحاسم في كل زمان ومكان وفي مختلف الظروف ، كتب ما يلي : « يجب ألاّ تقع المعارك إلا إذا كانت نسبة نجاحها المتوقعة ٦٠ في المائة على الأقل » .

ولا يمكن حل هذه التناقضات حلاً عاماً ، ويتطلب فن الحرب إيجاد حلول وسط ، تتلاءم مع كل حالة خاصة لوحدها ، على أن يأخذ الخطر والحكمة حجمهما الحقيقي .

---

(١) « ان الألعاب التي يختلط فيها الحساب بالصدفة خطيرة دائماً ، وتتزايد فداحة الخطر كلما أردنا الحصول على مكاسب اكبر » (الجنرال فوا)

والحلول الوسط ممكنة ، واذا كان تهديد العدو يحدد حرية مناورتنا ، فإن عملنا يضع الحدود أمام حريته . ويخطط العدو تصرفاته حسب تصرفاتنا ، تماماً كما نخطط تصرفاتنا بناء على تصرفاته . وهذا لا يعني أنه سوف يضبط كل تصرفاته بناء على تصرفاتنا ، كما أننا لن نفعل ذلك .

إن المناورة لا تتم اعتباطاً أو بعد تجربة مسبقة ، ولكنها تتم بناء على افتراضات يتناقص عددها باستمرار ، ويتم التحقق من وجودها بالمعلومات وبناء على سير الصراع . وكلما توغل عملنا بعمق ، تناقصت حرية عمل العدو ، الذي يجد نفسه مضطراً لأن يبدأ لعبته ويكشف مخططه . عندها يتجه تشكيله نحو اتجاه معين ، ويمتد نحو الأمام ، ويفقد مرونتـه الأساسية فيغدو اكثر جموداً . وكلما ازدادت خطورة الوضع ازدادات بساطته ، وتناقص فيه عدد الأخطار المحتملة ، حتى يتم التخلص في النهاية من المعضلة الأخيرة . لهذا قال البعض إن الهجوم يخلق الأمن . ومن الملاحظ أن القائد عندما يقسم مناورته إلى مراحل متعاقبة ، تتناقص معطيات هذه المزاحل وتزداد دقتها باستمرار ، فيستطيع هذا القائد في لحظة معينة حل التناقضات التي قدمتها المبادىء كتناقضات بلا حل .

ومن هنا نستنتج انه ليس لهذه المبادىء الكبرى المجردة أي معنى عملي ، إذا لم تحقق التوافق والتلاؤم مع الواقع ، ولم تخضع لقانون الحل الوسط . إن قيمتها شبيهة بقيمة الحِكَم والأعراف القديمة ، التي نسمعها على شكل أمثال تختصر تجربة الشعوب العملية المتراكمة عبر القرون . علماً بأن هذه الأمثال مختلطة ومتناقضة:

- في الحذر السلامة .

ولكن

- يبتسم الحظ للجسور .

- على المرء ألاّ يلقي بودرته للعصافير (أي أن لا يستخدم وسائله بلا مبرر) .

ولكن .

- على من يريد الوصول الى النهاية ان يستخدم الوسيلة .

- إذا طمعنا بربح كثير تعرضنا للخسارة .

ولكن .

من لا يخاطر بشيء ، لا يكسب شيئاً .

II ـ الحرب صراع جماعي

عندما شرح الجنرال كاردو التكتيك، قال بلهجة جنود نابليون المحببة إليه: يتلخص التكتيك في الجملة التالية : **حاولوا أن تضربوا جميعاً بآن واحد** . وهذا يعني ضرورة اشتراك جميع عناصر الكائن الجماعي (القطعة العسكرية) للحصول على نتيجة واحدة . ويتعقد تشكيل هذا الكائن كلما صعدنا في سلم التسلسل العسكري ، وهو لا يحتوي الأشخاص فحسب ، بل يضم مفارز تستخدم أسلحة ومعدات مختلفة . . . إنه كائن مادي ذو حجم معين ، ويشغل على الأرض مساحة محددة ، ويتوزع عادة على جبهة معروفة . ولا يمكن أن يتمثل جهد قطعة ما بجهد قذيفة نووية واحدة ، لأنه في الحقيقة مجموعة قوى مؤلفة من عناصر متعددة ، وعلى القائد أن يوجه هذه القوى الأساسية ويجمعها للوصول الى الذروة الهندسية للجهود المتلاقية ، الأمر الذي يسمح له بتنفيذ مهمته .

إن للصراع الجماعي ولا شك مدة معينة ، وتتحدد هذه المدة بإيقاع كثيراً ما قارنه نابليون مع إيقاع تراجيديا كلاسيكية قائلاً : « إن المعركة عمل درامي . . . وأمر القتال الذي يتلقاه الجيشان ، والحركات الأولى للوصول الى الالتحام هي التقدمة . وتشكل الحركات المعاكسة التي يقوم بها الجيش المهاجم العقدة (التي أسماها في مكان آخر الأحداث) . وهي تفرض أخذ مواقع جديدة وتؤدي إلى الأزمة (التي أطلق عليها في بعض الأحيان اسم الحدث) ، ومن ذلك تأتي النتيجة أو حل العقدة » . وللمحافظة على هذا الإيقاع كان نابليون « ينظم قواته داخل تنظيم معين » ونطلق على ذلك تعبير تمفصل التشكيلة . إلا أن لكل تشكيلة قتالية وجهين : يتجه أولهما نحو المهمة المزمع تنفيذها ، بينما يتجه الثاني نحو الخطر المعادي . ويتطلب الضرب بقوة استخدام وسائل كثيرة مجمّعة ، ولكن ، جعلها أقل تعرضاً للخطر يتطلب توزيعها على مساحة واسعة . لذا توضع وراء القوى المعدة للجهود الأولى عناصر جاهزة لسد الثغرات ، وصد مبادرات العدو ، والرد عليها . ولا يمكن تمثيل عمل قطعة ما بحقل رمي ومناورة واحد ، لأنه في الحقيقة مؤلف من جهود متعاقبة ، لا يمكن تنفيذها إلا على حقول رمي ومناورة متعددة ومتلائمة مع الأوضاع القائمة المتعاقبة .

وتنقسم مهمة القائد عند استخدام مرؤوسيه الى سلسلة من المهمات المنسقة في الزمان والمكان، وهو يأخذ الأمر كجسم واحد فيقطعه الى شرائح ، ويتمتع كل

مرؤوس وسط هذه الشرائح بحرية نسبية ، وهو يملك حقل عمله ورؤيته الخاص ، وينفذ فيه أفكاره وقراراته . ويتصرف كل مقاتل بصورة طوعية وإجبارية معاً ، لأنه يجد نفسه مرتبطاً برئيسه بواسطة زمام مرن ، يحدد له في كل لحظة كرة حرية عمله ، ويتراوح قطر هذه الكرة حسب الظروف ، ومكانة المقاتل في التسلسل العسكري . . . ولقد تزايدت حرية المقاتلين دون توقف منذ نهاية القرن الثامن عشر ، بعد ان كانت محدودة جداً في تشكيلات القتال المؤلفة من خطوط مستمرة لا يملك الحرية الحقيقية فيها سوى القائد العام . وفقدت فكرة المناورة مركزيتها ،وتشعبت حتى اصغر الانساق ، عندما تبعثرت التشكيلات وغدت تشكيلات خماسية (على شكل مَعين) ، تحتل رؤوسه ومركزه قطعات صغيرة تفصلها فراغات .

في العام ١٩١٤ ، كانت فصيلة المشاة مؤلفة من خمسين رجلاً ، يحملون كلهم البنادق ، وينتشرون على نسق ضيق من الرماة . وكانت هذه الفصيلة عاجزة عن المناورة ، ولا تقوم إلا بالرمي والتقدم . . . أما فصيلة اليوم فمؤلفة من ٣ أو ٤ جماعات ، وتأخذ تشكيلة ذات عمق ، وتحمل أسلحة آلية ذات نيران تسمح بالمناورة . ويمكن لهذه الفصيلة ان تغير اتجاهها ، وتُعدّل جبهتها ، وتدفع إلى النسق الأول عناصر من النسق الثاني ، كما يمكنها إبطال مقاومة العدو النارية ، والالتفاف عليها بجناح أو جناحين ، وهي قادرة بالاضافة الى ذلك أن تغطي مجنبتها أو تقدم مركزها إلى الأمام . إذن فهي تستطيع القيام بجميع الحركات الرئيسية للمناورة على نطاق ضيق .

وكل ما هو صحيح بالنسبة الى الفصيلة أكثر صحة في القطعات الأكبر . ويملك قائد الكتيبة المعاصرة في القتال حرية قائد فرقة نابليونية . واننا لنبسط الأمور كثيراً إذا قلنا إن المرؤوس سيد تصرفاته التنفيذية داخل الحقل المحدد بمهمته ، لأن الحقيقة أعقد من ذلك . إنه يراقب ، ويتلقى المعلومات ، ويتوقع ، ويشكل فكرته الخاصة . وبما ان زاوية نظره تختلف عن زاوية نظر رئيسه ، وبما أن الصورة الماثلة أمامه أقل اتساعاً ، ونظراً لأنه واقع اكثر من رئيسه في أسر التفاصيل التكنيكية المختلفة ، فإن فكرته لا تنطبق تمام الانطباق مع فكرة الرئيس ، « ولكل امرىء حقيقته » ، فهل يمكننا أن نقول ان هنالك تسلسلاً للحقائق تسيطر عليه حقيقة القائد ؟[1] . هذا أكيد ولا شك ! شريطة أن تظهر هذه الحقيقة في الوقت الملائم . إلا أن المرؤوس يتمتع رغم كل شيء بامتياز واضح ، هو قربه من مكان العمل ، وقدرته على التصرف بسرعة أكبر ، نظراً

(١) « في الحرب يفهم القائد وحْده أهمية بعض الأمور »
(نابليون)

لأن الفترات التي تفصل بين القرار والتنفيذ تتزايد مع ارتفاع النسق التسلسلي . لذا يتصرف المرؤوسون غالباً ببداهة تؤثر نتائجها على قرارات القائد المقبلة . . . وهكذا زال الانضباط الآلي القديم ، وحل مكانه بالتدريج انضباط يمكن ان نطلق عليه لقب فيزيولوجي ، نظراً لتشابهه مع التصرف الداخلي للكائنات الحية الراقية . فالجهاز العصبي لهذه الكائنات جهاز مزدوج يُتوِّجه الدماغ ، ويتألف من جهازين مختلفين : أولهما الجهاز المخي ـ الشوكي ، وهو محرك الحياة الواعية تحت قيادة العقل ، ولكن بعض أجزائه (النخاع الشوكي والغدد) تمتاز بقدرتها على القيام بردود فعل مستقلة ، وتستطيع في الحالات الضرورية تسبيب أفعال بدون موافقة مسبقة من المخ ، وثانيهما الجهاز السمباتي ، الذي ينظم وظائف الحياة الأساسية بشكل غير واع ، ولا يحس به الكائن إلا في حالة الاضطراب الذي يتطلب تدخل الدماغ . فإذا اعتبرنا الجهاز السمباتي مساوياً لتسلسل الادارات التي تؤمن الحياة المادية للجيش ، كان بإمكاننا اعتبار الجهاز المخي ـ الشوكي شبكة القيادة مع قائدها الأعلى ومرؤوسيه العاملين ببداهتهم . وكما ان المخ يلتقط الأفعال الانعكاسية فوراً ليدخلها بشكل ملتحم في سلسلة الأعمال الإرادية ، فإن القائد يُثَبِّت أو يصلِّح بداهات المرؤوسين المتمشية مع أفكاره ، ويلغي تأثيرات البداهات المتعارضة مع هذه الأفكار ، أو يقبلها كمعطيات جديدة . . . وهكذا يُثقل عمل القائد نوع من العوائق أدعوه قانون الاكراه .

بيد أن علينا ألا نأخذ كلمة الاكراه بمعناها السلبي ، فالمرؤوس لا يقدم على إكراه رئيسه بدافع من قلة انضباطه ، ولكن طبيعة الأشياء وتسلسل الأحداث يفرضان ذلك . إن عليه ان يطيع رجلاً يرى أمامه آفاقاً واسعة ، ويتوقع إلى مدى بعيد ، ويتصرف بناء على إيقاع معين ، بينما يعيش هو حبيس عالم أضيق ، وأمامه آفاق أصغر ، ويتصرف بإيقاع محموم .

وتتجمع نتائج طبيعة الصراعات الجماعية لتدفع القائد ، مهما كانت مكانته ، لأن يصنع من نفسه رجل مهمته ، الرجل الذي يتوقع ويفكر ويقرر في حدود الزمان والمكان ، وبايقاع معين يحدده نسق القيادة الذي يشغله . فإن أراد السيطرة على الأمور بشكل مباشر اكثر من اللازم ، ليؤثر على الأحداث تأثيراً أسرع ، شلَّ مرؤوسيه وخلق الفوضى بينهم . ولقد قال نابليون : « إن قيمة المرء مطابقة لردائه . وليس هنالك مكان كالصراع يتطلب من المرء أن يكون أهلاً لأشرطته ونجومه » .

ينبغي ألا يظن البعض اننا نريد سجن القائد في برج عاجي بعيد ، أو تجاهل

فائدة وجوده في ساعات الهلع . ولكن المالك قادر على زيارة أرضه بشكل مثمر دون أن يمسك بالمحراث . . . وبئس الجنرال الذي يتدخل في تغيير مكان خفير ! إن على القائد الحقيقي أن يعرف كيف ينتقل من العموميات الى التفاصيل ومن التفاصيل الى العموميات ، دون ان يفقد حس التقدير وحقيقة حجم الأشياء .

III - الحرب صراع مميت

الحرب عمل حدي إلى اقصى مدى ، وتزيد صفتها المميتة أبعاد وعنف القواعد الموجهة لكل صراع جماعي . ويتزايد التأثير المعنوي الناجم عن المفاجأة وضخامة الخطر بالخوف من نتائج المعركة . ويتطلب هدف الحرب الذي يتم الصراع حوله اقتصاداً صحيحاً بالقوى، ومطابقة الوسائل مع الأهداف بشكل كامل .

ولا يمكن تحقيق هذا الاقتصاد وتلك المطابقة بمجرد استخدام الطرق الملائمة ، وبعد إجراء تقدير يشمل الرجال والأسلحة والمعدات ، ويدرس إمكاناتها المادية والباليستيكية والميكانيكية . إذ ان الانسان في الحرب معرض للموت والخوف ، وفي كل زمان ومكان يحتاج المرء اشياء أكثر من اللازم ، ليحصل على ما يكفي ، وهذا ما أسميه : قانون الفيض .

ما هو عدد المقاتلين الفعالين في أي هجوم ؟ لقد أجاب أردان دوبيك على هذا السؤال من قبل بقوله : « يعيش مصير العالم في بعض الأدمغة وبعض القلوب »[1] . والنصر كمصير للعالم متعلق بهذين العاملين . . . تتألف كل كتلة بشرية من حفنة أبطال ، وبضعة جبناء ، وجماهير غفيرة من الأشخاص العاديين الذين يملكون استعداداً متماثلاً للفرار أو الانقضاض . ويتم استقطاب عمل هذه الجماهير حسب الظروف والمَثَل الذي يقدمه الأبطال أو الجبناء . ولكن القطعة العسكرية تختلف عن الكتل البشرية ، إذ يعمل التعليم والتدريب العسكري وطرق التنظيم على اعدادها ، بغية إبطال تأثير الخوف . إلا أن هذه التدابير كلها تدابير مُسكِّنة ، ولا تكفي لتغيير البناء الأساسي . وتبقى القطعات رغم كل شيء خليطاً غير ثابت نسبياً ، ومعرضاً دائماً

---

(١) شارل مورّا Ch. Murras — هل يجب أن نذكر بهذا المعنى قول يوليوس قيصر في معركة فارسال: « قليل من الناس من يحيا حياة انسانية » ، وتعليمات باستور الهادئة : « ان علينا ان نذكّر المدن بأمر تميل الى تناسيه ، وهو انها لا تعيش عبر العصور إلا بفضل بسالة وعبقرية بعض ابنائها »؟ . ولقد تحدث اناتول فرانس ايضاً عن هؤلاء الرجال « القادرين على المحاكمة بشكل أصح ، والتفكير بشكل أقوى من الآخرين ، والذين يتجسد فيهم مستقبل المدينة » .

للتفتت تحت تأثير صدمة قوية أو انفعال عنيف ، ليأخذ بعد ذلك شكل كتلة بشرية غير منظّمة .

فاذا افترضنا وجود قطعة متماسكة ، أي مركب ثابت بصورة استثنائية ، فإن علينا أن نتذكر وجود الخسائر البشرية والمادية خلال العمل . فما هو عدد الرجال والأسلحة الذي سيبقى سالماً في اللحظة المعينة ؟ .

وسآخذ الدفاع مثلاً لأوضح فكرتي بصورة أفضل . يقوم القائد المدافع عادة بدراسة الخارطة ، ويستطلع الأرض ، ثم يضع لإيقاف العدو مخطط نيران كاملاً، يشكل سداً نارياً لا ثغرة فيه . وهو يحاول عند عمله ألا يترك حفرة دون ان يحضر رميها بالقنابل والقذائف ، ولا ينسى منحدراً دون أن يعد ضربه بنيران الأسلحة الرشاشة والمدافع المضادة للدبابات . ولكن ماذا بعد ذلك ؟ ان السد الناري لا يتمتع بالاستمرار المطلوب ، اذا اكتفى القائد الذي وضعه بدراسة الأهداف والمنحنيات والمحارك واستهلاك الذخيرة ، لأن نيران العدو ستنصب على المدافعين ، وتكبدهم خسائر بشرية ومادية بالاضافة الى زعزعة معنوياتهم ، وهذا ما سيفتح في الدفاع وسده الناري ثغرة قبل بدء الأنقضاض . فماذا يجب ان نفعل اذا شئنا المحافظة على استمرارية هذا السد ؟ إن على القائد أن يدخل في حسابه الخسائر المادية والمعنوية المحتملة ، وان يحتفظ في يده بوسائل اضافية قادرة على تعويض هذه الخسائر . وهذا تحليل يبرر بصورة اكيدة **قانون الجهود المتعاقبة** ، الذي يترجم مادياً على الأرض بتنسيق القوى بالعمق .

ولكن كيف يمكن تقدير الخسائر المادية والمعنوية المتوقعة ؟ إن معرفة كافية للمعطيات الفنية ، ودراسة جدّية للمعضلة ، يسمحان بالوصول الى أرقام تقريبية عامة تحدد الخسائر المادية . أما الضعف المعنوي فكيف يمكن تحديد نسبته ؟ وكيف يستطيع الفكر التحليلي أن يعمل وسط التشابك الرهيب للأسباب والمؤثرات المادية والنفسية ؟ خاصة وان هذا الموضوع المشابه لكل مواضيع الحياة يخضع لرأي باسكال القائل : ان كل شيء « مُسَبِّب ومُسَبَّب » بآن معاً . وهذا يعني أن كل أمر من الأمور سببٌ تارة ونتيجة تارة أخرى ، أو سبب ونتيجة في الوقت نفسه . والسبب الأول في مَثَلنا هو الخسائر البشرية والمادية المؤدية للضعف المعنوي ، ويقلل هذا الضعف فاعلية القطعة وقدرتها القتالية ، ويدفعها الى القيام بمناورات خاطئة ، تنجم عنها خسائر بشرية ومادية جديدة تؤدي الى ضعف معنوي جديد ، وهكذا . . . « يتطلب الفن العسكري ان تحسب جيداً حساب جميع الاحتمالات ، على أن تُدخل عامل الصدفة بعد ذلك بشكل

حسابي » . وأرجو أن يسامحني نابليون ، اذا أضفت إلى جملته السابقة بعد كلمة الصدفة تعبير « أو العناصر الطارئة »، حيث ان الصدفة أو حظ السلاح - كما قال أسلافنا - عبارة عن مجموعة « العناصر الطارئة » التي تعجز أفكارنا عن حصرها أو حساب قيمتها .

هنالك أمور أخرى معقدة ومتحركة (الظواهر البيولوجية والاجتماعية والسياسية مثلاً) ، بشكل يجعل أمهر العقول واكثرها علماً ، عاجزاً عن متابعة أكثر من حالتين أو ثلاث حالات في لعبة الأسباب والنتائج المتشابكة ، ثم يضل بعد ذلك سبيله أمام حركة الأفعال وردود الأفعال المستمرة . عندها لا بد من اللجوء الى التجربة ، هذا الاختبار العام الذي لا يمكن شرحه ، لأنه متعلق بتأثيرات مجموعة أسباب مختلفة ومستقلة ويستحيل عزلها،مع ذلك،عن بعضها ، علماً بأن تدخل هذه الأسباب حتمي ولازم ، عندما نضطر الى بدء العمل قبل أن يستطيع العقل اجراء استنتاجاته .

وموقف كل قائد مشابه للموقف الذي كان فيه ديكارت عندما اخضع كل آرائه للدراسة من جديد . إنه مضطر إلى اتخاذ القرار في اعماله ، في حين تتطلب منه الحكمة الامتناع عن أخذ القرار في أحكامه . لذا عليه ان يضع لنفسه « اخلاقاً مؤقتة » ، تعتمد على أسس أولها أن يخضع للقوانين والعادات « التي يستخدمها أكثر الناس رشاداً » .

وسيكون أمام هذا القائد خط مبهم مليء بالظلمة ، ويرى نفسه مضطراً لرسم خط واضح بلا ظلال ، فالعمل لا يتلاءم مع انعدام الدقة . وهو لا يملك للوصول الى ذلك سوى الالهام ، هذه الصفة العجيبة المكونة من التخيل والحس السليم ، والتي لا تنافس العقل ولا تصلح إلا ان تكون له بمنزلة التابع . إن الالهام المفيد الوحيد ، هو الالهام الذي يعمل العقل والتجربة على دفعه . ويقول نابليون « الوحي هو الحل الآني لمعضلة درست مدة طويلة » . وهكذا يمكننا أن نفهم بلا استغراب ، لِمَ هبط على برانلي وحي نظرية الموجات بعد تفكير وحسابات وتجارب ومحاولات طويلة ، علماً بأن شخصاً عادياً يجهل قوانين الفيزياء لم يكن ليحس أمام البرادة المرتعشة إلا بدهشة كبيرة .

في يوم صائف ، وأمام اللمعان الأزرق والأبيض لبحر بيسكاي ، قال لي قائد من القواد الذين عملت تحت امرتهم في خطوط النار ، وأكن لرأيه السديد احتراماً كبيراً : « يكمن كل شيء في الاحساس بما تستطيع القطعة تقديمه ، والقدرة على دفع هذه القطعة لتقديم كل ما عندها » لقد قال الاحساس ولم يقل الفهم أو المعرفة . أفلم تكن

عبقرية الفن النابليوني كامنة في الاحساس الصحيح للقدرات القتالية في قطعة ما وسط ظروف معينة ؟ .

ان التفكير والتجربة والالهام ، هي الأسلحة الفكرية الثلاثة لكل قائد عسكري . وتظهر أهمية التفكير الرئيسية عند دراسة الصفات العامة لكل الصراعات الجماعية . ولكن التذكير بالموت ، هو الخطر الأكبر والصفة الملازمة للحرب ، والتفكير بقانون الفيض الناجم عن هذا الخطر ، يدفعنا إلى إعطاء التجربة والالهام أهمية جديدة .

* * *

إنني لا أدعي اكتشاف شيء هام بالنسبة الى المبادىء التي أشبعها الكتّاب العسكريون دراسة منذ أمد بعيد . ولكنني أعتقد أنني قدمت بعض النتائج المباشرة من زاوية جديدة ، ولعلي سببت استغراب البعض بطرحي لتعبير « قانون الفيض » . ولكن ليتأكد الجميع أن هذا القانون عبارة عن فكرة كلاسيكية قديمة ، هي فكرة الاهتراء في المعركة . ولكنني ذكرتها بصورة ايجابية ، بدلاً من أن أقدمها بشكلها السلبي ، كما يفعل الآخرون عادة .

وقد يصاب القارىء بخيبة أمل ، وأنا أعترف بأنني أشاركه هذا الشعور، ذلك لأنني فكرت ملياً بهذه القواعد القديمة الموجهة لكل عمل حربي ، وصغتها من جديد على طريقتي ، فشعرت مع ذلك بالانقباض ، وهو نفس الشعور الذي انتابني عندما سمعتها لأول مرة منذ أكثر من نصف قرن على مقعد الدراسة في سان.سير . لقد أعطاني أحدهم رافعة ، وقال لي انها تملك قدرة كبيرة ، ولكنني أجهل طريقة استخدامها ، ولا أملك نقط ارتكاز ، ولا أعرف إلا أن أرفع . « إن مبادىء الحرب لا تتجاوز حدود الذكاء العادي ، ولكن هذا لا يعني ان الذكاء العادي قادر على تطبيقها » (دراغوميروف) .

الفصل الثاني

المواقف الفكرية الثلاثة للقائد العسكري

« الحرب معلم عنيف للحقيقة »
(شارل مورّا)

لا يتطلب العمل في درجاته الأولية ، بالنسبة الى المنفذين وأنساق القيادة الصغرى ، سوى معرفة عدد قليل من الوسائل والحلول التي يتم اختيار بعضها حسب الظروف .

وعندما نرتفع في سلم التسلسل (مهما كان نوع النشاط المطلوب) ، يبدو العمل أكثر تعقداً وأشد قوة ، ويتزايد عدد المعطيات التي يتعلق بها ، كما تتزايد الحالات الخاصة ، ويغدو من المستحيل وضع تصنيف كامل للوسائل ، ويصبح من الضروري اختيارها حسب الطلب . وأي كتاب عن الأساليب عبارة عن سلسلة من عمليات المطابقة التقريبية ، فكل معضلة خاصة تتطلب عملية فكرية واسعة ، وتحليلاً يتبعه تركيب يتعلق بعدد معين من المعطيات التكنيكية والظروف الخاصة .

لذا فإن من الممكن والضروري تمييز اسلوب المحاكمة والوسائل التكنيكية المتبدلة حسب العصور والظروف المتبدلة ايضاً .

فهل يعني هذا كله أن الحالات الخاصة المتعددة لا تحتوي أية نقطة مشتركة ؟ كلا . إن الذكاء الذي يعمل على تقويم الأشياء ، وإجراء المقارنة فيما بينها ضمن حدود المقارنة الممكنة ، ويحولها إلى نماذج أو قوانين ، لا يلبث أن يلاحظ هذه النقطة . ولكنه لا يستطيع أن يحيط بالمجموع ، إلا بعد اختصار عدد الحالات الخاصة إلى قاسم مشترك واحد . والذكاء معتاد على مثل هذه الأعمال ، ولا أدل على ذلك من قدرة أصغر عامل حِرَفي على استنباط القواعد من عمله اليومي . ان اتقان العمل يخلق المعرفة بصورة طبيعية ، وتتجه المعرفة عادة نحو العموميات . إن العامل يعرف بعد حفر آلاف الأمتار المكعبة كيف ينظم ضربات معوله بناء على الطبيعة والظروف وميل الأرض ، فاذا ما

كسبتم ثقته حدثكم عن القواعد الملائمة التي أوجدها بنفسه . ومن الأحرى اذن أن يقوم القائد العسكري الذي يتعامل مع مادة معقدة جداً ، باستخدام هذا التبسيط والتعميم ، وهما الوسيلتان الوحيدتان اللتان يملكهما الفكر البشري لتجميع معلومات لا تفنى .

وليست عقيدة الحرب في جيش من الجيوش ، وخلال حقبة معينة ، حصيلة تفكير القادة الكبار ومساعديهم كما يعتقد البعض ، ولو كانت كذلك لغدت وجهة نظر فكرية محدودة القيمة . ولكنها في الحقيقة مركبة جميع جهود التعميم التي قام بها القادة على مختلف مراتبهم . وسأعود فيما بعد الى شرح المساعدة التي يقدمها المرؤوسون إلى أفكار رؤسائهم . ولكننا نلاحظ منذ الآن ، أن على القادة العسكريين من مختلف المستويات ، أن يرفعوا مستوى تجربتهم بمعرفة اسلوب المحاكمة التي يتم من خلالها اعداد العقيدة .

ولكن مهما كانت أهمية هذه العقيدة التي تدفع الفكرة ، وتوجه ذكاء مختلف المنفذين نحو اتجاه عام جماعي ، فإنها لا تستطيع تحديد القيمة المطلقة للحقائق الرياضية ، وللحصول على هذه العقيدة ، كان من الضروري مقارنة عدد من الوقائع التي لا تقبل المقارنة إلا من بعض الوجوه . وهذا يعني تشويه أجزاء من الحقيقة الممددة على سرير بروكوست[1] . لذا فإننا لا نستطيع أن نطلب من العقيدة ، كما نطلب من النظرية ، أن تقدم لنا،بالتفكير المنطقي وحده،الحل للحالات الخاصة . فإذا كان الأمر كذلك في العلوم الرياضية ، فما ذلك إلا لأنها لا تنطبق على حقائق بل على تصور مجرد . ولكن لكي نتمكن من علمنا العسكري ، ونحافظ عليه ، حاولنا تحويله في بعض الوجوه الى مجردات ، فجففنا وبسّطنا وصنّفنا الحقيقة الدامية المضطربة الماثلة في حقول المعارك . وما قواعدنا إلا درجات الفكر ؛ والحالات الخاصة فقط هي حقائق حية . ولكي تغدو عقيدتنا قابلة للاستعمال ، كان علينا أن نرد لها الحياة ، وأن نؤمّن توافق جميع المتناقضات التي تتألف منها حقيقة حالة واقعية ، وأن نهتم بالحدث لا بمظهره أو ظله . لقد قال ليوتي في احدى الكلمات الغامضة التي كان يعرف سرها : « تدعي العقول الساذجة ان الأمر هو هذا او ذاك ، وغالباً ما يكون في العمل هذا و ذاك » . إن ممارسة القيادة بحاجة لطريقة فكرية تختلف كثيراً عن طريقة المُنظّر الذي يصنع

(١) بروكوست قاطع طرق في بلاد الآتيك . كان ينهب المسافرين ثم يمددهم على سرير حديدي ويقطع أقدامهم اذا ما تجاوزت طول السرير ، أو يشدها حتى تطول اذا لم تصل حتى الحافة.

(المعربان)

العقيدة ، تماماً كما يختلف أسلوب الطبيب القائم بالتشخيص عن أسلوب عالم وظائف الأعضاء ، وكما تختلف الطريقة عن النظرية .

ولكن ممارسة القيادة بطبيعتها عمل مزدوج يشمل مرحلتين متميزتين تتطلبان مواقف فكرية متباينة وهما :

- مرحلة الدراسة والتفكير .

- مرحلة القرار والتنفيذ .

« إنني أبدو دائماً جاهزاً للرد على كل شيء ، ومجابهة أي شيء ، وما ذلك إلا لأني فكرت طويلاً قبل الاقدام على العمل . لقد توقعت كل ما يمكن أن يقع ، وليست العبقرية هي التي تكشف لي فجأة وبصورة سرّية ما عليّ أن أقوله أو أفعله في ظرف لا يتوقعه الآخرون ، إذن فمن يقوم بكل هذا ، انه تفكيري ، إنه التأمل » . وهكذا رفض سيد الحرب[1] ، عندما تحدث عن نفسه ، الأسطورة الخطرة التي تتحدث عن شرارة تهبط في الوقت الملائم على الرأس المختار . ولم يعترف باحتمال وجودها إلا بعد القيام بتحليل كامل وموضوعي لمعطيات المعضلة . وهناك لحظة يحاول القائد فيها أن يستنتج ، ولكن العقل يضطر للوقوف عاجزاً ، ويترك الأمور تجري على هواها ، لأن المعطيات دائماً ناقصة أو غير أكيدة ، وهنا يجب على القائد أن يغامر « يضطر المرء في الأعمال الكبيرة لأن يترك بعض الأمور للصدفة » . ولقد كتب (نابليون) في مكان آخر مؤكداً على هذا الفاصل بين مرحلة الدراسة والتفكير الموضوعي الحساس ، ومرحلة القرار والتنفيذ التي تعتمد على الإيمان : « ليس هناك من هو اكثر مني حذراً . فعندما أضع مخططاً عسكرياً ، أجسّم لنفسي جميع الأخطار والمتاعب الممكنة في كل الظروف ، فأعيش في انفعال مؤلم حقاً . . وعندما اتخذ قراري أنسى كل شيء إلا ما يدفع قراري الى النجاح »[2] . ولكن هذا لا يعني أبداً ان العقل يتوقف وينسحب بمجرد الوصول الى العمل ، فهو على العكس قادر على تجاوز الانقطاع ، مستنداً إلى بديهية من البديهيات

---

(١) يقصد المؤلف هنا نابليون .

(٢) تحدث نابليون عدة مرات عن التناقض بين الحذر في التفكير والجرأة والاصرار في القرار والتنفيذ . وهو يقول : « لبلوغ الانتصارات على المرء الاّ يتوقع إلا الهزائم » . « في بداية حملة ما ، يجب ان نفكر اذا ما كان علينا أن نتقدم أم لا . ولكن ما أن نقوم بالهجوم ، حتى يغدو من واجبنا دعمه حتى النهاية » وكان كوندي الكبير Le grand condé يقول يجب أن «نخاف الاعداء من بعيدّ حتى لا نخشاهم عن قرب » ، ولكن مونتيسكيو Montesquieu يرى أن هذه الميزة نادرة جداً فيقول : « هناك قلة قليلة من الناس تتصف بالحذر قبل البدء بالعمل وبالاندفاع الجسور بعد البدء » .

ليعاود بعد ذلك سيره من جديد . أفليست الرياضيات ، وهي مجال عقلاني ، مبنية كلها على البديهيات ؟» .

ويحدد القائد العسكري لفكره ثلاثة مواقف ، ويتبع ثلاث طرق فكرية مختلفة :

- طريقة المُنظّر الذي يمعن الفكر بالتجارب ، ويستخرج منها قواعد عامة ، ويشترك في اعداد العقيدة .

- طريقة الطبيب الذي يحلل ويناقش ويزن المعطيات لحالة خاصة محددة .

- طريقة رجل العمل الذي يستنتج ويقرر وينفذ .

إنَّ من أهدافنا الرئيسية تحديد ووصف هذه الأساليب الفكرية . ويمكننا بعد ذلك أن نجني ثمرة هذا التحديد ، « لأن تحديد مفرداتنا ضروري للتفاهم ، وانعدام هذا الأمر يؤدي الى فهم شيء بدلاً عن شيء آخر » (نابليون) .

ولكننا لاحظنا ان الكتّاب العسكريين يقومون غالباً بتأكيدات متناقضة . اذ يدعي أحدهم تفوق العقل والطريقة المنهجية ، بينما يفضل الآخر الالهام وشرارة العبقرية . . . ويريد هذا أن يناور تلقائياً ، في حين يريد ذاك القيام بمناورته بناء على التجربة . ويرفع كاتبٌ الذكاء ليضعه في أعلى المستويات ، بينما يرفع كاتب آخر الشخصية إلى السدة العليا . ولقد ظهر نابليون أكثر من مرة متناقضاً مع نفسه ، فبعد أن أكد عدة مرات أن للعلم العسكري قواعده ، عاد ليسلط الأضواء من جديد على الحوادث التي تؤثر على كل موقف ، ثم قال في مكان آخر عندما تحدث عن فن الحرب « ان التنفيذ هو كل شيء »[1] . ولكنه بهذا التناقض الظاهري يقدم وسيلة لحل التناقضات الأخرى . ومع هذا ، فإن علينا أن نأخذ حذرنا من هذه التعابير ! لقد كان نابليون يستخدم تعابير خاصة جاهزة ذكرت بعضها منذ هنيهة ، انه يستخدم تعبير « العلم العسكري » عندما يريد أظهار أهمية القواعد وعلو شأوها ، فيقف بذلك في الموقف الفكري الأول من المواقف الثلاثة السابقة . أما عندما يؤكد وجود عدد لامتناهٍ من الحالات الخاصة ، ويصر على أفضلية التنفيذ ، ويستخدم تعبير « فن الحرب » فانه يبدو وكأنه يستخدم طريقتي الطبيب ورجل العمل معاً . وهو بفضل استخدام هذين التعبيرين ، يحسم نقاشاً عقيماً ملأ صفحات الكتب العسكرية منذ القدم ، وهو : هل

(١) يمكننا الاستمرار في ذكر أقوال نابليون التي تظهر هذا التناقض : « قواعد الحرب الكبرى قواعد ازلية » ، « لا تتألف الحرب إلا من حوادث خاضعة للصدفة » ، « كانت مبادىء يوليوس قيصر كمبادىء هانيبال » .. « الحرب عبارة عن قضية احساس » . . . الخ .

الحرب علم أم فن ؟ إنها علم ضمن حدود إمكانية تلخيصها بمجموع ، أو بنظام معلومات وقواعد ، كما أنها فن يتعلق الأمر بتطبيق هذه القواعد والمعلومات على الحالات الخاصة ، لأنها تتصف عندئذٍ بصفة الفن الذي يحاول التقاط الأشياء في حقيقتها الداخلية الخاصة ، على عكس العلم الذي يهدف إلى كشف الصفات المشتركة ، ليستنبط منها قواعد ذات حقل تطبيقي واسع .

ولنلاحظ هنا أن التطبيق المتناوب للطرق الثلاث الخاصة بالمُنظِّر والطبيب ورجل العمل عبارة عن رياضة ذهنية صحيحة كاملة . ولقد اظهر الكسيس كاريل Alexis Carrel في كتابه «الانسان المجهول» ، الخطر الذي يتعرض له الذكاء عندما يفرط في التخمينات النظرية فقال : « ان عقلنا يحب الدقة ، وأمن الحلول النهائية ، وهو يميل بشدة لاختيار مواضيع دراسته مبتدئاً بالأوضح والأسهل تكنيكياً بدلاً من أن يبدأ بالأهم » . فلكم قدم لنا المؤلفون العسكريون من الأبحاث حول معضلات المناورة ، وهي مواضيع بسيطة مجردة شبه رياضية ، في حين كان عدد الذين حاولوا تحليل المعركة محدوداً ، نظراً لأنها مادة معقدة متحركة حية . أن ملاحظة الأحداث الخاصة بشكل كامل ، ودقيق ، ودراسة الحالات الخاصة دراسة تجريبية ، تكشفان لنا وجود معضلات حقيقية ، وتطرحان محتوياتها ، وتقويان الفكر ، وتزيدان ثروته ، وتحميانه من المبالغة في السير على مخططات جامدة . ولكنهما تحملان في طياتهما خطر الانحراف . وعلى الأفكار العامة عندئذٍ أن تعدل كل ميل زائد نحو التفصيلات ، لأن الافراط في دراسة التفصيلات قادر على الاضرار بتقدير الجوهر تقديراً صحيحاً . وتدل طريقة رجل العمل على أن الذكاء عاجز عن السمو ، إذا لم يحمه درع معنوي قوي ، وأن الخطأ ينجم عن ضعف الشخصية ، كما ينجم عن ضعف التفكير .

ولقد رأينا أن الأفكار الخاطئة التي تطبق بفاعلية ومهارة ، وتصل إلى نتائج حسنة ، تدفع البعض إلى الأفراط في البراغماتية(١) . ولكن الانسان المتمرّس في مناقشة الأفكار تمرساً يؤدي إلى التواضع والصفاء الفكري ، يحاكم بوعي وسرعة كل مبالغة في هذا الصدد ، ولا يستنتج من ذلك إفلاس العقل ، بل يشعر بحدود عقله . يقول بيرغسون انه ينبغي على المرء « أن يعمل كمفكر ، ويفكر كرجل عمل » ، ويقول غوته : « كيف يمكن للمرء أن يعرف نفسه ؟ إن الوصول إلى ذلك متعذر عن طريق التفكير وممكن بالعمل فقط » .

---

(١) البراغماتية Pragmatisme : « عقيدة تعتبر أن القيمة الحقيقية للاشياء هي قيمتها العملية فقط . وهي تنكر الحقيقة المطلقة ، وتقول : « ان ما ينجح حقيقي » . وتعتبر هذه العقيدة اساس المجتمع الأمريكي الحديث .

(المعربان)

الفصل الثالث

إنشاء العقيدة

« عقيدة الحرب كائن مستمر ، وعلينا أن نغذيه بالتجربة ونعطيه الحياة بالحسّ الدقيق بالحقيقة » .

(الماريشال بيتان)[1]

عندما كنت طفلاً كنت أقرأ قصص القتال ، وأتعجب كيف يمكن الوصول إلى المجد العسكري بكل هذه السهولة ، وكيف يكفي أن يناور المرء يوماً من اليمين أو يلتف من الشمال أو يخرق من الوسط ، حتى يجلله الشرف ، ويعيش اسمه في ذاكرة الرجال . وكنت أرى كل هذه المفاهيم الاستراتيجية البسيطة مشابهة لمفهوم أي متحدث عادي عن الأستراتيجية على مقاعد المقاهي ، وكان عليّ أن أقود الرجال في خطوط النار ، لأفهم أن التركيبات العسكرية سهلة دائماً ، ولكنها لا تصبح فعالة إلا إذا طبقت في ظروف تؤمن توافق عدد كبير من المعطيات المعنوية والفكرية والمادية المعقدة المتناقضة المتشابكة ، وان هذه التركيبات لا تتمتع بمزايا خاصة بها ، فاذا ما عُزلت عن عوامل الحياة لم تعد إلا عبارة عن ساق نبات قطعت جذوره. ان فكرة المناورة لا تخرج أبداً جاهزة مسلحة من عقل القائد ، كما خرجت مينيرفا من جبين جوبيتر في ظروف محددة بالزمان والمكان ، وهي لا تأخذ صفة العبقرية إلا لأنها مركبة من مجموع تشترك فيه أدق الحقائق . فالحقيقة تصنع الأحداث قبل أن تنزل لتقودها .

لقد نصح أردان دوبيك أن ينطلق كل تكتيك من الانسان ، أي أن ينطلق من الأسفل ومن أصغر المعطيات وأكثرها واقعية وتكنيكية، اذ لا يمكن استنباط العقيدة التكتيكية من بعض المبادىء المجردة الكبيرة ، ولكنها تُبنى مع احترام هذه

---

(١) تعبير « العقيدة العسكرية » تعبير تقليدي ، ولكنه غير ملائم ، نظراً لأنه يوحي بالصلابة والجمود والدوغماتية . ولقد تساءلت دائماً عن امكانية استخدام تعبير « فكرة عملياتية » بدلاً عنه ، ولكنني أرى ان التصحيح والتوضيح اللذين قدمهما المارشال بيتان كافيان لازالة هذا الايحاء ، والاحتفاظ بالتعبير كما هو دون تعديل .

المبادىء . . . وعندما يشيِّد المرء بناء فإنه يبدأ من الأساس .

ولكن عندما يتعلق الأمر بتجديد الطريقة اللازمة للبناء نصطدم ، كما في جميع الدراسات المتعلقة بالانسان ، باستحالة اجراء التجارب حسب ارادتنا « فالحرب علم تجريبي تنقصه التجربة »(١) . اننا لا نقوم بحملة ولا نشن معركة للتحقق من فكرة استراتيجية أو تكتيكية ، والتجارب الوحيدة التي يمكن ان نستخدمها هي التي يقدمها التاريخ لنا في الزمان والشكل الملائمين له ، وهي لهذا ثمينة وتستحق الدراسة إلى أبعد مدى . وهكذا نرى أن البناء العقائدي بحاجة إلى قاعدة تاريخية ، سواء كان ذلك في المجال العسكري أم في كل المجالات الأخرى المتعلقة بالنشاط الانساني . ولكن هذه القاعدة التاريخية جزء من الماضي ، إنها تجارب تلامس سطح الأرض ، بينما يتعلق الموضوع بالمستقبل ، والمطلوب إنشاء عقيدة قادرة على تحقيق النصر في صراع يقع في المستقبل بصورة ومدة محددتين تقريباً . . . إننا لا نجد شيئاً إذا لم نبحث ، وليس هناك اكتشاف بدون فرضية مسبقة ، لذا يجب أن نستخدم **الخيال** ، على أن نزود هذا الخيال جيداً بالمعلومات والوثائق والمعطيات التكنيكية والنفسية والسياسية . . وهو وحده قادر على الوصول في النهاية الى التوسع في الأفكار الضرورية .

ولكن هل يجب أن نكتفي بالخيال ؟ قد يكون في الخيال جميع الحسنات ، ولكنه يتصف بعدم الاخلاص . وليست تأكيداته سوى فرضيات علينا أن نُخضعها للمراقبة ، وإنني أكتفي بكلمة المراقبة ، لأن من المتعذر إجراء تجربة حقيقية باستثناء التجارب الناقصة المبتورة المتمثلة بالتمارين المنفذة في زمن السلم .

I-القاعدة التاريخية

الأمانة الفكرية هي الفضيلة الأساسية للمؤرخ . أما كتابة التاريخ مع محاولة إيجاد أمثلة تحفز الأجيال ، فهي أسلوب يستحق أن يُكرّس لأدب الأطفال رغم فوائده ورغم محبة القدماء له .

ويخضع التاريخ العسكري لنفس النظام الذي يخضع له التاريخ العام . ويمكننا ، بل ويجب علينا ، ان نستخلص منه بعض الدروس . ومن الخطأ تحقيره واستخدامه لإظهار النظريات . ومن الضروري كتابته حسب أسلوبه الخاص ، واستخلاص النتائج بعد ذلك بطريقة تفكير عسكرية بحتة . إن المرء لا يقطف من

(١) Henri Poincaré : Valeur de la science , (Flammarion , Paris)

حديقته زهرة ليعلقها على قبعة فكرة لا يعرف مصدرها أو كيفية ولادتها[1] .

« يعلمنا التاريخ (أو التجربة ، ويمكننا أن نستخدم هذه الكلمة أو تلك) أن . . . » . إن لهذا التعبير معنىً كبيراً عندي ، وهو يهزني من أعماقي . والحقيقة أن التاريخ أو تجربة حرب أو عدة حروب ، لا يمكن أن تعلمنا شيئاً من الدراسة الأولى .

وكيف تستطيع هذه الكتلة المبهمة الدامية المؤلفة من أحداث متنافرة متشابكة متناقضة أن تعلمنا شيئاً مهما صغر ؟ إن ذلك يحتاج الى تصنيفها ومقارنتها واظهار العلاقات التي تجمعها ، وبالاختصار إن من الواجب تفسيرها . فكيف نفسرها ؟ وكيف نستنبط منها فلسفة ؟ .

يتطلب استنباط المعلومات من التاريخ أن نرى ما تحت الوقائع ، حتى نكتشف « كيف » وقعت الأمور ، ونعرف عندئذٍ الأسباب . ان جميع العلوم التي تدرس الأنسان وتعمل على المادة التاريخية ذاتها (علم الاجتماع ، الاقتصاد السياسي . . . الخ) تجد نفسها أمام هذه المعضلة . لذا أوجدت هذه العلوم لنفسها أساليب استقصاء تشبه الأساليب التي يستخدمها العسكريون . ويطبق العسكريون عادة قواعد علوم الملاحظة ، ويحاولون تحديد سبب من الأسباب ويلاحقون تأثيراته . وقد تسمح الاحصائيات في الحالات المثلى بوضع التأثيرات على شكل أرقام . أما في الحالات الأخرى ، فتتم مراقبة ظواهر عدّة ، هي مجموعة مختلفة من الأسباب المادية والمعنوية والفكرية التي يستحيل عزلها ويصعب قياسها . ويُكتفى هنا بتحديد هذه المركبات نوعياً : (في العام ١٩١٨ كان مسك موضع دفاعي عرضه كيلومتر واحد يتطلب كتيبة . وكان الهجوم على عدو متمركز في خنادق وملاجىء يحتاج سبع جماعات مدفعية في كل كيلومتر من عرض الجبهة . . . الخ) . انها أرقام ذهبية ثمينة رغم غرابتها ، لأنها تعطي قيمة ملموسة وحجماً متسلسلاً للأفكار المبهمة . وهي قادرة على اعطاء قيمة حقيقية للنظريات المبتدعة زمن السلم . ولكن علينا أن نستخدم هذه الأرقام بحذر ، وأن نترك العقل يتعامل معها بحذق ، وان لا ننكرها دون أسباب أكيدة ولا نعدلها دون احتراس ، فهي أغلى ثمار الحقل الفكري ، التي أنبتتها جهود الجندي ودمه .

وهكذا نصل بفضل دراسة واعية ، رغم عدم دقة القواعد ، إلى تحديد الأساليب وكشف الطرق التي حققت النصر في معارك الماضي القريب . وقد نصل في بعض

---

(١) تتطلب الدراسات التاريخية نقداً قاسياً لا يرتجل ارتجالاً ، ويقوم مؤسس العقيدة ، راضياً أم كارهاً ، بالبحث داخل الوثائق التاريخية ، ليجد ما يبدو له مهماً بالنسبة لفكرة تطفو في عقله » . (الجنرال دوبيني) .
« General Debeney: La guerre et les hommes, Plon, Paris» .

الأحيان الى تحديد الاتجاه وسير التطور هنا وهناك . فهل هذا يعني أننا نستطيع توقع المستقبل انطلاقاً من هذه المعلومات التاريخية ؟ كلا ، اننا لا نستطيع ذلك إلا بالنسبة إلى فترة زمنية محدودة . ان التاريخ لا يرسم منحنى منتظماً مستمراً ، بل تلتقي فيه وتتداخل أسباب كثيرة مختلفة متناقضة ، إن منحناه متبدل في نقاط تمثل الحوادث : إنقطاع ، إنحراف ، إنعاكس اتجاه . إنه سلسلة متعاقبة من عناصر منحنيات محددة معروفة ، تبدو لأول وهلة ناجمة عن الصدفة . وليس التوقع إطالةً لامتداد منحنى فحسب ، ولكنه يشمل أيضاً تخيل الأحداث التي تستطيع أن تعرقله ، وهذا عمل أصعب حقاً .

II - الخيـــال

« إن التاريخ الحقيقي ، والذكرى الصافية ، ودراسة الماضي الواقعي ، لا تعيق خيال رجل العمل ، اكثر مما تعيق لوحات المتاحف خيال الفنان »[1] . وهي على العكس تحثه وتخضعه لوتيرتها ، وتحدد له الاتجاهات التي يسمح تكرر حالات الفشل والنجاح عليها بتوقع الافلاس أو التفوق . وللتخيل بجسارة وبشكل صحيح ، على المرء أن يبدأ الملاحظة بشكل منهجي .

ولكن يجب ألا نفرض على الخيال استخدام اسلوب معين . إنه في أعماقه عمل يخرج عن المألوف ، وحرية مفرطة . وهو يعمل بشكل مختلف من شخص إلى آخر ، إنه بالنسبة إلى البعض إلهام مفاجىء تجمعي ، أما بالنسبة إلى الآخرين فهو عبارة عن ومضات مصباح تشع وسط الليل في اتجاهات مختلفة . ولكنه بالنسبة الى الجميع (بما في ذلك المجانين) لا ينفصل عن الحقيقة أو الأمور المعقولة التي تعطيه قاعدة انطلاقه . إنه قادر على التقدم بسرعة أكبر من الحقيقة ، لأنه يكتفي لتأمين سيره « بأفكار لا تكفي الواحدة منها لإيضاح شيء،ولكنها تصل الى الايضاح بفضل تعددها » (باسكال) ، ومقارنات وتشابه ورموز ، ولكنه لا ينقطع عنها خلال تقدمه ، ويسعى دائماً الى التماس معها . إنه جسر ينطلق من ركيزة ليتخطى حفرة ، على ان يستند من جديد على ركيزة أخرى ، إذا شاء أن يجتاز حفرة جديدة . ويطمح الخيال الى تجاوز العقلانية ، وقد يصل الى ذلك احياناً ، إلا أنه يبقى متوازياً معها . والخيال ، كالاستنباط التاريخي ، معرض للوقوع في كل لحظة ، في خطيئة الخلط بين التوقع وعملية تمديد المنحنى (الذي يرسمه الماضي والحاضر)، وهذا أمر هام جداً بالنسبة إلى المؤلفين الذين يكتبون قصص الخيال

---

(١) شارل مورّا .

العلمي . إن معظم هؤلاء المؤلفين وأكثرهم شهرة ، مثل جول فيرن Jules Verne ، « ويلس » Wells يكتفون بتخيل الأمور في المستقبل ، انطلاقاً من بداية تطور لاحظوا وجودها في الحاضر ، وهذه وسيلة لا تروي غليلنا ، انها تؤدي على العكس الى تفاقم الخطر الذي يهددنا .

ولا يهتم الخيال خلال اندفاعه بعامل الزمن ، ولكنه يصب اهتمامه على العمل . إننا نرغب حقاً في توقعُّ تأثير الأسلحة المحتملة في المستقبل على تطور الفن العسكري ، ولكننا نشتبك في الحرب بما نملكه لا بما نرغب فيه أو نتوقعه . إن على العقل أن يضع في الزمن صور المستقبل .

والخيال المجدي ، هو الخيال المطلع جيداً على المعلومات الخاصة بالعوامل المؤثرة على شكل وسير العمليات الحربية (عوامل سياسية ونفسية وتكتيكية وتنظيمية وتكنيكية) ، والقادر على توقع تأثيراتها المتبادلة ، والخاضع ـ بفضل العقل ـ لإيقاع الزمن . إن أول ما يدفع الخيال هو التجمع الصُدفي للأفكار والمفاهيم والصور ، ولا يكون الخيال خصباً إلا عند من يعرفون كثيراً ، ولا يمكن أن يغدوا مثمراً إلا عند من يعرفون الأمور بشكل جيد .

III ـ المراقبـــة

ثم تجري مراقبة الفرضيات التي يخلقها الخيال بفضل تجاربنا ومناوراتنا في زمن السلم ، سواء كانت هذه المناورة بقطعات او دون قطعات[1] ، ولكن هذه المراقبة ناقصة ، نظراً لأن المناورات والتمارين تعطي عادة نتائج ناقصة ومشوهة ، فاذا لم ننتبه جيداً أخذنا من هذه النتائج صورة خادعة .

أما طريقة « الحالات الملموسة » ، التي تتضمن استنباط العقيدة من المقارنة بين حلول مختلف الحالات الخاصة ، بدلاً من استنتاجها بالمحاكمات العامة النظرية ، فقد صنعت منذ نشوئها قيمة مدرستنا الحربية ومصيرها . إنها تجبر الفكر على التدقيق والواقعية ، فتحضّر بذلك للعمل الذي يرفض الاكتفاء بالأمور المجردة الغامضة .

---

(١) تستخدم الجيوش نوعين من المناورة لتدريب قطعاتها وكادراتها زمن السلم . ويشارك في النوع الأول قادة الوحدات بدون قطعات ، ويقومون بالعمل على الأرض أو الخرائط ، وغايته تعويد الضباط على اتخاذ القرارات وايجاد الحلول واصدار الأوامر في كل مراحل وظروف القتال ، في حين يقوم بالنوع الثاني قادة الوحدات مع وحداتهم ، فتشمل الفائدة الضباط وجنودهم .

(المعربان)

ولكـن تطبيقها منفردة يعرضنا الى الخطر ، ولقد ظهرت اخطارها منذ أن ضعفت قاعدة الدراسات التاريخية في جيشنا . والحقيقة انه اذا كانت معطيات « الحالات الملموسة » محددة بصورة خاطئة ، فإننا لا نستطيع أن نمنع انفسنا في لحظة اختيازها من ان نتخيل الحل او الحلول الممكنة . وعندما تظهر هذه الحلول خلال التمارين ، نلاحظ اننا لم نجد في التمارين إلا ما أدخلناه فيها سابقاً ، تماماً كما يخرج الحاوي الأرنب من قبعته . وعندما يتطلب الأمر مراقبة العقيدة ، تضطر « الحالات الملموسة » الى الاعتماد على عقيدة تاريخية . ولقد قدم الجنرال فون إيمانسبيرغر المثل على ذلك ، عندما طالب الجيش الألماني بتبني أفكاره حول استخدام الدبابات ، واتخذ من خرق الجبهة الألمانية من قبل الجيش الفرنسي الأول والجيش البريطاني الرابع في ٨ آب ١٩١٨ قاعدة لدراسته ، واكتفى بتعديل الفكرة التاريخية لتتلاءم مع الوسائل الحديثة المستخدمة ، أفلا يشبه أسلوب عمله هذا الطريقة التي رسمها المارشال فوش في مقدمة ١٩١٨ لكتابه « مبادىء الحرب » ، عندما نصح بإمعان النظر في (الحالات المجرَّبة المأخوذة من التاريخ لتحاشي كل انحراف في الدراسة) ؟[١] .

* * *

ان الطريقة الايجابية اللازمة لإعداد عقيدة حربية ، هي : الانطلاق من قاعدة تاريخية صلبة لعب الفكر الناقد دوراً رئيسياً في إنشائها ، والاعتماد على خيال مزود بمعلومات واسعة عن الظروف المحتملة في الصراع المقبل ، لبناء فرضيات تخضعها بعد ذلك للمراقبة ، عن طريق دراسة حالات ملموسة متعددة . وعلى جميع الكادرات أن يعرفوا هذه الطريقة بدقة ، لأنهم يشتركون فيها ضمن حدود مستوياتهم . إنها طريقة لا يتوقف استخدامها ، فالعقيدة لا تغيّر جلدها ما بين آونة وأخرى بتبديلات مفاجئة . انها خَلقٌ مستمر ، وهي كمعظم القضايا الانسانية تحافظ على نفسها بواسطة الوسائل التي أنجبتها . انها في تطور مرن دائم ، وكل جيش يفقد هذه المرونة الحيوية ويتصلب ويتكلس ، ويضع كل إيمانه بالفضائل الدائمة لقواعد تعلمها ، يتجه الى الهزيمة الحتمية . انها طريقة تتطلب احترام قواعدها بشدة ، ما دام الجهاز العسكري عاجزاً في زمن السلم عن إثبات قيمته .

---

(١) هناك طريقة اخرى للمراقبة ، مبنية على المقارنة الموضوعية بين استنتاجاتنا واستنتاجات الجيوش الأخرى ، ولكن هذه الطريقة لا تقدم لنا كبير فائدة . ان فن الحرب عالمي بطبيعته ، لأنه يتضمن تجابه الأعداء وجمع الحلفاء ، ولكنه يفرض على كل امة من الأمم مشاكل خاصة .

يعرف الصناعي ورجل الأعمال في صراعهما اليومي أهمية التنافس كحافز ، كما يعرفان عواقب الفشل أو النجاح المحدود ، وهذا ما يدفعهما إلى العمل والتخيل والتوقع . ولكن القائد العسكري لا يحس وخزات هذه المهاميز . وعلى إرادته أن تحث بلا انقطاع فكره الناقد ، وتثير خياله ، وتبعث اندفاعه ثم تحافظ عليه . وعقاب القائد العسكري غير أكيد ، وتحاول النفوس الضعيفة تجنبه ، ولكنه يكون عندما يأتي رهيباً : انه عار ، وازهاق أرواح بلا جدوى ، وبؤس الوطن .

اننا لانملك لوضع عقيدتنا سوى وسائل ناقصة : **المحاكمة** التي قد تخطىء ، عندما تطبق على موضوع كالتاريخ لا يمكن قياس جميع عناصره ، و**الخيال** الذي نشك بنتائجه ، و **تجارب** زمن السلم المبتورة التي تحمل بعض الأخطاء . ويتطلب قصور وسائلنا الدائب ، ومقارنتها المستمرة للاستنتاجات المؤقتة والجزئية . فإن تم ذلك أمكننا تجنب اتحرافات العقيدة ، تلك الانحرافات الشائعة في زمن السلم .

ان التجارب الماضية تفقد جدّتها وجاذبيتها بعد عدة سنوات من العيش بسلام . ويميل الفكر العسكري إلى الانحراف نحو العقلانية المطلقة ، ولا يتم التمسك إلا ببعض القواعد الكبيرة العامة ، التي ينطلق القياس المنطقي ليستنتج منها سلسلة لا تنتهي من الاستنتاجات . وينزلق الفكر رويداً رويداً ، حتى يصل إلى تجاهل غير واعٍ للوقائع . وتقوم بعض الكتابات المنمقة بإغراء الأفكار وجذبها خارج حدود الاعتدال ، كما جذبتها قبيل العام ١٩١٤ إلى تبني عقيدة الهجوم بلا تحفظ . ويظهر بعد الحروب الكبيرة ، على العكس ، حذر غريزي من المؤلفات الفكرية ، التي تحمل في طياتها بعض الخطر . ولكن ينبغي ألا يؤدي احترام الوقائع إلى التشاؤم ، وإلا وصل بنا ذلك إلى الركود ، الذي تمثل في العام ١٩٣٩ بعبادة الدفاع الثابت بشكل وثني .

إن الفن العسكري الفعال ينشأ على قاعدة تاريخية قوية ، بفضل الجهد المستمر الحذر الواعي ، الذي يقوم به **عقل** يدفعه **الخيال** بلا انقطاع ، وتراقبه **تجارب** زمن السلم وتوجهه . وبهذا فقط يمكن أن يتحقق « الخلق المستمر . . . المُغَذّى بالتجربة ، والمقوى بحس دقيق لمعرفة الامكانات » ، الذي دعا اليه المارشال بيتان في يوم من أيام ١٩٣٥ ، عندما منح مدرسة الحرب العليا وسام الليجيون دونور . . . إن الحقيقة المتحركة بحاجة لعقيدة تكون طريقة لإنشاء افكار العمليات ، لا نظاماً لوصفات جامدة لا تتغير .

* * *

الفصل الرابع

دراسة الحالة الخاصة

« على المرء ألا يقاتل بلا هدف ،
على المرء ألا يقاتل بدون مخطط »
(مارشال بوجو Bugeaud)

والآن ، وبعد أن عرفت طبيعة الحالة الخاصة ، يمكنني أن أطلب من القائد عندما يدرس الحالة الماثلة أمامه ، أن يُقدم على ذلك بفكر متحرر من القوانين والقواعد السابقة التي درسها ، شريطة أن يتصف هذا الفكر بالانتباه وحب الاستطلاع ، كفكر طفل أو انسان بدائي . اننا عندما أردنا وضع أسس العقيدة ، اضطررنا لأن نعامل الوقائع بعنف ، فهل سنقوم الآن بتشويه الوقائع التي تصادفنا لنجعلها تتلاءم مع نظريتنا ؟ ان طبيعة الاشياء في الحرب لا تخضع لمناهج جامدة ، وتصيب بالهزيمة كل من يريد تقييدها بهذه القيود الحديدية « يا لتعاسة الجنرال الذي يسعى الى حقل المعركة بمنهاج جامد ! » (نابليون) . ان كل حالة خاصة عبارة عن عقدة ، أو كرة من خيوط معقدة، تتشابك فيها وتتداخل وتتراكب وتتلاحم سلاسل متباينة من الأسباب والنتائج ، التي هي قواعدنا النظرية . ولا يمكن متابعة أية قاعدة من هذه القواعد من طرف الى آخر في داخل العقدة ، دون القيام بعمليات ثني وتمزيق واقتلاع .

وعلينا أن نلاحظ الحالة الخاصة المدروسة في صفاتها الذاتية كما هي دون تعديل . وفي هذه اللحظة ، نكاد لا نضطر إلى تذكر القوانين والتصنيفات لوضع الحالة في جوّها التقريبي . ما هو بعدنا عن العدو ؟ هل ينبغي علينا أن نهاجم أم ندافع ؟ أي في أية مرحلة من مراحل القتال نجد أنفسنا ؟ ومن الممكن أن نلاحظ هنا شيئاً أو واقعة دون استخدام التحليل . اننا نحصل على معظم معلوماتنا من ملاحظة المجموع ، ولا أدل على ذلك من عجزنا عن وصف التقاطيع الدقيقة للوجوه التي اعتدنا رؤيتها ، ولدينا القدرة على التعرف عليها في كل الظروف ، حتى لو كانت وجوه اشخاص أعزاء علينا .

ولكن الطريقة أقل بساطة وتأكيداً مما يتصور عادة ، فالملاحظة الصحيحة

للواقع ، وخاصة عند الانسان المتطور معرضة للتحريف ، لأن فكر الانسان يميل دائماً إلى تعديل ما يلاحظ انطلاقاً مما يعرف (يضع الأطفال عادة عينين وفماً كاملاً عندما يرسمون الصورة الجانبية للأشخاص) ، وما يظن (يعتقد المرء دائماً انه يلاحظ الظواهر الأولية لما يخشاه أو يرغب فيه) ، واستناداً الى أساليبه المعتادة (تحويل الحقيقة إلى مجردات سهلة في المحاكمة) . والخلاصة أن الحالة الذهنية ، التي ينبغي على القائد أخذها في هذا الوضع ، هي حالة الفنان ، انظروا اليه وهو يدور حول « الموديل » ! وانني لأستميح الفنان عذراً اذا قلت انها مماثلة لحالة الرجل البدائي أو الحيوان . انظروا الى الهرة وهي تدور حول شيء غريب لتراقبه من جميع الوجوه ، وتشمه ، وتلمسه ، وتدحرجه بقوائمها .

اعتاد احد المدربين في مدرسة الحرب العليا ان يقول لنا : « عندما تكونون على الأرض . . . ابدأوا بنسيان الأنظمة التي درستموها » . وقوله هذا دعوة لإجراء الملاحظة الفنية على الحالة الملموسة « انكم ستتذكرونها فيما بعد » نعم ! . . انني لا أرفض القواعد العامة[1] ، ولا اتجاهل مجموعة الأساليب الجيدة التي انبثقت الانظمة عنها ، ولكن كيف نستخدمها ؟ لقد درس جاك شوفالييه موضوعاً أكبر من موضوعي في كتاب « الفكرة والحقيقة »[2] ، وأجاب عن هذا السؤال بشكل واضح قائلاً : « إن علينا أن نوجه القوانين نحو الوقائع بغية ايضاحها بدلاً من مطابقة الوقائع مع القوانين » . وهذا يعني أن نوجه على سطح كرة الخيوط المتشابكة حزماً ضوئية ، لنلاحظ هنا وهناك وفي كل مكان تقريباً حلقة ، أو مجموعة خيوط ملتفة حول بعضها ، تعود الى إحدى سلاسل الأسباب والتأثيرات التي تشكل قواعدنا العامة . وعندئذٍ تنبثق الأفكار تحت دفع ظاهرة المشاركة التي تربط بعضها بالبعض الآخر ، ويرتسم في ذهننا بداية مشروع مخطط ، مشروع غامض ، مختلط ، ناقص ، تظهر عليه هنا وهناك نقاط أكثر وضوحاً وتقدماً من غيرها ، وكأنها أعمدة ترتفع ، وسلّم تتحدد درجاته .

وما أن يتم ذلك ، حتى تأتي لحظة تدقيق هذه الأجزاء وإكمالها ، إن أمكن ، بتحليل موضوعي دقيق لمعطيات المعضلة[3] . ولا يستطيع هذا التحليل تضليلنا الآن بجذبنا نحو

---

(١) تحدث المارشال فوش في هذا الموضوع ، واعترف ان المرء ينسى النظريات في لحظة العمل ، ثم اضاف بلهجة لا تخلو من السخرية : ولكن دراستها « تمنح الثقة » .

(٢) «L'Idée et le réel» Jacques Chevalier, Arthaud, paris »

(٣) « لا يمكن الوصول في الحرب الى شيء إلا عن طريق الحساب ، وكل ما لا ينجم عن تفكير دقيق لا يؤدي الى نتيجة . . . » (نابليون) .

تفصيلات جذابة سُلطت عليها الأضواء ، لأن نتائجه محددة منذ هذه اللحظة ضمن حدود المنظر العام الذي رسمناه .

« ما هي المسألة ؟ »[1] . هذا هو السؤال الذي تثيره فوراً كل معضلة قتالية (أو أية معضلة من معضلات العمل) . ماذا نريد أن نعمل ، وهكذا تبدأ دراستنا من النهاية ، وأنا أقصد كلمة النهاية بمعنييها : المعنى الفلسفي (الهدف الواجب بلوغه) ؛ والمعنى الشائع (أي الأخير في التسلسل الزمني) . ان المهمة والوضع هما العاملان المحددان لكل عمل . والوضع كائن قبل المهمة ، ولكننا نبدأ دائماً ببحث المهمة (الهدف الواجب بلوغه) .

تصدر المهمة من السلطات العليا وهي تتضمن :

- دائماً ، معطيات أساسية : النتيجة المطلوبة من القطعة ، والحدود الملموسة لحقل عملها (اتجاه ، جبهة ، مدة) .
- غالباً ، معطيات اضافية معدة لتوجيه البداهة في الحالات الطارئة غير المتوقعة : مهمات الوحدة الأعلى والجوار .
- احياناً ، معطيات محتملة اضافية تحدد درجة الحرية المتروكة للقائد مثل : الخط الذي لا يمكن تجاوزه دون أمر جديد ، معلومات عن القوات الاحتياطية ، وحدود استهلاك الذخيرة ، شروط الحركة على الطرق وقواعدها . . الخ . . . .

والمهمة في حد ذاتها أمر ، انها روح الأمر ، وعلى المرء قبل الاستماع لأي أمر أن يصنع في فكره الفراغ والصمت . وفهم الأوامر بحاجة الى الارادة وتركيز الأفكار . ويجب أن تُقرأ المهمة بتواضع فكري عميق ، انها بديهية العمل ، وعلى الفكر الناقد ان يقف امامها صامتاً ، فليست هذه الساعة ساعته ، إلا أنه سيعود إلى الساحة فيما بعد . والعسكري كالمؤمن يتبع نصيحة باسكال « الخضوع مع استخدام العقل » . ولكن إسكات الفكر الناقد في هذه اللحظة صعب ولو لهنيهة ، فلكل قائد كما قلت نظرة خاصة ، وحقل رؤية خاص يتلاءم مع نسق القيادة الذي يشغله ، وهو يحاول أن يتوقع ؛ وهذا عمل يدخل في صميم واجبه ، ويدفعه توقعه واندماجه في العمل الى تحديد مهمة لنفسه ، قبل أن يتلقى مهمته الجديدة . ولا يعرف الكثيرون في مثل هذه الظروف قراءة المهمة ، وهم يجهلون فن القراءة نفسه ، لأنهم يندفعون فيها تحت تأثير

---

(١) فوش .

الميل أو الهوى ، ولا يفهمون من الأوامر إلا ما تجاوب مع أفكارهم الخاصة . إن علينا خلال قراءة الأوامر ان نحترس من أنفسنا . ومن الحكمة ان يقرأ القائد المهمة المعطاة له من السلطة العليا بصوت عالٍ ، أو أن يدع أحداً يقرأها عليه . فالأذن أداة أكثر بدائية من العين ، ولكنها أشد أخلاصاً .

أما معرفة الوضع ، فتعني تحديد الوسط الذي سنعمل فيه ، وهذا يعني تأمين ضمانة جديدة لقيمة قراراتنا وتأثير افعالنا . ويتدخل في هذا التحديد عدد مختلف من العوامل مثل : الخصمين (العدو وقواتنا) ، ومسرح الصراع (الأرض) والشروط الجوية . والعناصر القابلة للحساب من بين معطيات الوضع ، هي العناصر الخاصة بالقضايا الملموسة (الجو ، الأرض ، عدد المقاتلين والأسلحة وإمكانية كل منها ، وسائل النقل ، والامكانات الاضافية) ، أما العناصر الأخرى المتعلقة بالحقل النفسي والمعنوي فلا يمكن حسابها بالأرقام ، وعلينا أن نقدرها بالفكر الحساس الدقيق ، ومعلوماتنا معرضة للخطأ وعدم الدقة والخلل ، وتتزايد اخطاء التقدير بلا شك عندما تتعلق المعلومات بالعدو ، لأن العدو يتبع الكذب ديدناً ، وليس له مهمة سوى خداعنا ، سواء تعلق الأمر بنواياه (هل يريد الدفاع أم الهجوم ؟) ، أو ببعده وقيمة الاتصال المحقق معه (هل نحن في تماسٍ مع المقدمة أم مع القلب ، ومع مخفر أمامي أم مع مركز مقاومة رئيسي ؟) أو قيمة وأهمية قواه وتشكيلاته ، أو الفترات الزمنية التي تحتاجها مختلف أنساقه للاشتراك في القتال ، أو درجة استعداده للمعركة ، أو قيمة قواده وجنوده المعنوية . لذا يمكننا ان نتصور عدم دقة الاستنتاجات التي نتوصل اليها حول امكاناته (لكي نحترس) ، وحول ارادته (لكي نعمل) . اما تقدير قواتنا نفسها (وقوة القطعات المجاورة بشكل مختصر) فيتعلق بعوامل عادية مثل : ميزان القوى ، والمدد التي تستطيع فيها مختلف العناصر الاشتباك بالقتال ، وقيمة القوى المتوافرة ونسبتها الى عرض الجبهة . وهذه معلومات يمكننا تقديرها بكثير من الدقة والصحة . وعندما يأتي دور تقدير درجة استعداد قطعاتنا للقتال ، والقيمة المعنوية للقادة والوحدات ، تبدأ الأخطاء بالظهور بشكل رهيب ! . . . أما الأحوال الجوية والوقت والأرض فهي أمور شبه ثابتة ، ومن الممكن قياسها . اننا نعرف الطقس والفصل (رغم احتمال وقوع تغيرات مفاجئة غير متوقعة) ، كما نعرف ساعة شروق الشمس وغروبها ، ووجود الاضاءة القمرية وشدتها . وتقدم الأرض لنا معطيات اكثر دقة وثباتاً ، إذ تسمح معرفتها جغرافياً باستنباط مجموعة من النتائج العسكرية المتعلقة بامكانية الحركة عليها ، وشبكة الطرق ، وطبيعة مجاري المياه ، ونوع المناطق المأهولة ،

وامكانات اجراء عمليات التحصين والتحكيم .

نحن نعرف ان الأرض نوعان : مكشوفة ومغطاة .

أ ـ الأرض المكشوفة

ـ اذا كانت تعرجات هذه الأرض كبيرة ، قدمت لنا أقسومات أرضية فسيحة ، ومناطق واسعة ظاهرة ومختفية .

ـ فإذا زادت تعرجات الأرض صغرت مساحة الأقسومات ، وتزايد عدد المناطق الظاهرة والمكشوفة ، واصبحت هذه المناطق مقطعة وغير منتظمة .

ـ وإذا كانت الأرض منبسطة تماماً ازدادت صعوبة المراقبة الأرضية الى حد كبير .

ب ـ الأرض المغطاة والمتقطعة .

ـ اذا كانت التعرجات فيها كبيرة ، اعطتنا اقسومات كثيرة ، وحقول نظر واسعة .

ـ واذا كانت صغيرة ، اصبحت الأقسومات متعددة ايضاً ، ولكن حقول النظر تغدو قليلة وقصيرة .

وتتم دراسة الأرض في بادىء الأمر على الخارطة ، ثم يتم استطلاع الأرض نفسها . وتكفي الخارطة في الحقيقة لإعطاء منظر عام ذي أبعاد متناسبة صحيحة ، بينما تعطي المراقبة المباشرة للأرض مناظر مجزأة ، مشوهة ، نظراً لتدخل أفكارنا وما نرجوه أو نخشاه في تعديل المنظر الماثل أمامنا . إلا أن المراقبة المباشرة تسمح بتدقيق بعض النقاط الغامضة على الخارطة . ويسمح الاستخدام المتعاقب لهاتين الوسيلتين بتحديد الخطوط الكبرى (الذرى والوديان) ، وتقدير قيمة نقاط الاستناد الطبيعية (قرى وغابات) ، وكشف نقاط الملاحظة . فإذا ما أدخلنا خلال الدراسة مفهوم الأتجاه ، ووضعنا أنفسنا في موضع العدو تارة وفي موضعنا تارة أخرى ، استطعنا تحديد المناطق المرئية والمستورة ، وأقسومات الأرض المختلفة ، ومجموعة المسالك المؤدية إلى حقل المعركة . الخ . . . وهذه كلها معلومات دقيقة وثمينة ، لذا فالأرض بالنسبة إلى القائد العسكري عميل من الدرجة الأولى . ولقد تجاهلها بعض المُنظِّرين العسكريين بقولهم : « اننا لا نهاجم الأرض ، بل نهاجم العدو ! » هذا صحيح ، ولكن العدو جاثم على الأرض ، وهو يحاول جاهداً تضليلنا بالحيل المخادعة ، فلا غرو إذا طلبنا من شاهد صادق أكبر عدد من المعلومات المتعلقة بهذا المتّهم الكاذب .

والآن وبعد أن انتهى تحليلنا ، لا بد من التذكير بضرورة القيام به بهدوء ورباطة جأش « كقاضٍ متجرد يقارن الأسباب في قضية مدنية »[1] . ولكن ما الفائدة من كل هذا التحليل ؟ اننا لن نصل به الى تأكيدات مطلقة ، أو معرفة كاملة بالموضوع . فهنالك اخطاء عديدة ونقص في دقة المعطيات ، ونحن كما يقول كلاوزفيتز « نسبح في ضوء القمر » . ولكن مخططنا ، الذي بدأ يرتسم منذ هنيهة ، يسير الآن نحو الكمال في عدة نقاط ، وتزداد دقته في أماكن أخرى . وتتضح الأعمدة المرتفعة التي تحدثنا عنها وتزداد ارتفاعاً .

انني أعرف أن كلامي هذا سيثير النقد التالي : « هل ستجد الوقت الكافي للقيام بدراسة دقيقة كهذه ؟ » نعم ، ان عندي ما يكفيني من الوقت ، اذا عرفت كيف أنظم وقتي . فالقائد لا يعمل وحيداً ، وهنالك هيئة أركان تعاونه ، وهو يكسب من هذه المعاونة وقتاً ثميناً ، اذا ما تخلص من الفكرة القديمة القائلة : بأن عليه في جميع الظروف أن يرى ويعرف كل شيء بنفسه . و « يحتفظ القائد الحقيقي لنفسه بالعمل الذي لا يستطيع غيره القيام به »[2] . والوقت يمضي بالنسبة إلى الجميع بخطوات منتظمة ، انه يتقدم بالنسبة إلى القائد كما يتقدم بالنسبة إلى الآخرين وليس في اليوم إلا أربعة وعشرين ساعة . . . وأنا أعرف أن على هيئة الأركان تقديم القضايا بشكل موجز ، بعد أن تحولها الى عناصرها الأساسية ، ولكن الحقيقة لا تتصف دائماً بالسهولة والوضوح ، وقد نرتكب عند توضيح وتبسيط مظاهرها أخطاء تفسد أعماقها ، وهنالك مواضيع معقدة بطبعها ، وتؤدي الرغبة في تبسيطها المفرط الى خلق مسخ مشوّه : « وعلى القائد الذي يقول لمساعده : « ليس لدي سوى خمس دقائق امنحها لك ، فاشرح لي موضوعك » ، ان يعرف انه يطلب المستحيل .

ان رجلاً يجهل الرياضيات الخاصة ، ويريد فهمها وتشكيل فكرة عامة عنها ، عاجز عن إيجاد الاستاذ القادر على القيام بهذه المهمة . والقائد المشغول الذي يريد أن يعرف كل شيء ، لا يكتسب في النهاية سوى بعض الأفكار المبهمة السطحية . أنه سيُلمُّ بالعموميات والأفكار العامة التي لا تكفي لاتخاذ قرار سليم . لذا ينبغي توزيع العمل بشكل آخر ، وأن يعطي القائد المُثْقَل بالعمل بعض المواضيع الثانوية الى

(١) مونتي كوكولي Montecuccolli

(٢) وفي نفس المعنى ، حدد المارشال جوفر للأميرال الأميركي هوس بلهجة لا تخلو من السخرية والغرابة ، أسلوب قيادة قائد كبير : انه لا يعمل شيئاً ، ويدفع الآخرين لعمل كل شيء ، ولا يدع احداً يُكرهه على العمل (ضد ارادته طبعاً) .

مرؤوس موثوق ، ثم يوافق على الاستنتاجات ، بعد أن يتأكد من ملاءمتها لخط مشروعه العام ، بشكل يكرس فيه نفسه للقيام بدراسة عميقة تشمل المعضلات الرئيسية ذات النتائج الحاسمة . ويخصص لهذه المعضلات الوقت اللازم ، ولا يتورع عن الاهتمام بتفاصيلها الدقيقة إذا لزم الأمر ، ويكون هذا ضمانة لنجاح الحالة المطروحة ، وتمريناً للقائد نفسه على مجابهة الحالات المفاجئة التي يُفرض عليه حلها في وقت وجيز . نحن نعرف أن الطفل يلاقي صعوبة كبيرة في نطق الكلمات ، ثم يبدأ القراءة بشكل عادي ، ولا يلبث أن يصبح قادراً على فحص صفحة بنظرة عجلى ، وبعد ذلك بمدة طويلة ، وعندما يغدو رجلاً منقطعاً للعمل الفكري ، يصبح بإمكانه الالمام بأهم محتويات مصنف كبير بعد تقليب صفحاته . ان ذكاءنا الذي يدرس باعتناء محتوى حالات ملموسة في تمارين زمن السلم أو خلال الحرب ، عندما يسمح إيقاعها بذلك ، يصبح قادرا عند اللزوم على الدراسة بسرعة ، وتجاوز تفاصيل المحاكمة للوصول الى استنتاجات أقل دقة ، ولكنها متلائمة مع معطيات المعضلة ، كما يغدو أهلاً لملاحظة ما يستطيع تركه بين أيدي مساعديه ، دون أن يكون ذلك تهاوناً منه .

اني سأطلب من القائد بعد كل هذا دليلاً آخر على التواضع الفكري . إنني سأطلب منه أن يستشير مرؤوساً مؤهلاً حتى بالنسبة إلى الأمور التي احتفظ القائد بها لنفسه . نعم ! لقد قلت يستشير ، وأنا أؤكد على ذلك ، كما أؤكد أن من أهم صفات القائد قدرته على الإصغاء . . . انني أعرف ان كلامي هذا سيصطدم مع الفكرة التقليدية للانضباط المتشدد ، التي انتشرت بين الحربين العالميتين بشكل واسع . ولكن لا بأس في ذلك ! فأنا مؤمن بخطأ هذه الفكرة وضررها ، وموقن تمام اليقين بأنها مسؤولة جزئياً عن نكساتنا .

ان القائد لا يستطيع أن يلم بكل شيء ، ولا يمكن اعتباره أذكى الناس وأمهرهم . أما مرؤوسوه الذين يخجل من استشارتهم فهم ورثة منصبه ، انهم قادة الغد . ولا يمكن اعتبار الخَلَف دائماً أقل فهماً وأضعف إدراكاً من سَلفه ، وإلا لكان علينا أن ننحدر الآن ، وبعد تعاقب الأجيال الماضية الى أسفل درك . . . إن هذه الفكرة الشكلية البليدة وغير المجدية عن الانضباط ، والتي تعطي القائد حصانة موهومة لا يؤمن بها أحد ، لا تستحق سوى السخرية . لقد سببت لنا حتى الآن كثيراً من الآلام ، وقادتنا إلى الخلط بين الانضباط والتزمت الضيق ، كما أدت إلى إشغال المناصب والأعمال الهامة بمرؤوسين يتميزون بالخنوع ، ولا يملكون ذرة من الفكر الناقد أو الشخصية القوية .

لقد قال أستاذنا الجنرال أيتيين ، أبو الدبابات المنتصر ، والقائد الكبير الألمعي : « لا يملك العقل شرائط ، وحبذا لو يكون عند الشرائط عقل ! » . ولكن هذا القول كلام يقال في المجالس ، ولا يخلو من المزاح . ولقد صححه الجنرال عندما مضى وقت الهزل وأكمله فأصبح « ليس للحقيقة شرائط ونجوم ، ولا يملك هذه الأشياء إلا القرار » . هذه هي عقدة القضية ، وهذا هو تعريف الانضباط الحقيقي . ان على القائد أن يعرف كيف يصغي الى مستشاريه ، وان يستخدمهم أو يتبعهم إذا لزم الأمر ، دون ان يؤثر ذلك على حرية القرار ، الذي يملك وحده حق اتخاذه بفضل مستواه ومسؤوليته . وليس القائد عالماً أو عرافاً أو نصف إله ، إنه رأس مكلف باتخاذ القرارات ، وهذا واجبه ، وفشله في هذا الواجب يحط من قيمته ، اما استشارة المرؤوسين وطلب مساعدتهم ، فلا يسببان ذلك ابداً . ليس هنالك من ينكر ان لويس الرابع عشر كان يتذوق السلطة ويحبها ويتقن استخدامها ، وهو القائل بكل عظمة « يحتاج القرار لفكر سيِّد » ، ومع هذا نراه يعطي حفيده دوق انجو الذاهب لتولي حكم اسبانيا هذه النصيحة النهائية : « استشيروا ! انكم لن تستشيروا ابداً اكثر مما يجب ، ثم . . قرِّروا !! » وفي هذا العصر نفسه رثى بوسويه صديقه كونديه الكبير ، اكثر قادتنا العسكريين الكبار اندفاعاً وعفوية ، فذكر في رثائه حزمه وسرعة قراره « في حمأة القتال وخلال اللحظات السريعة ، حيث يتقرر النصر » ، ولكنه لم ينسَ ان يذكر انه « كان في المواقف الأخرى يستشير الآخرين ويصغي لجميع النصائح بكل وداعة » . ونابليون نفسه لم يطرح غير ذلك عندما قال : « على المرء ان يكون بطيئاً في الاستشارة والدراسة ، وسريعاً في التنفيذ »[1] .

---

(١) يتحدث المؤلف هنا عن الانضباط والاستشارة ومشاركة المرؤوسين . . . الخ من الأمور ، مقدماً النصح للتخلص من العيوب التي قد تصيب الأنظمة الخاصة بالجيوش المحترفة ، والجيوش البورجوازية أو السائرة على غرارها ، والمبنية على أسس انضباطية ، وتقاليد عسكرية خاصة ، لها مفهومها التقليدي عن التسلسل العسكري ، والأوامر ، والطاعة العمياء دون تردد أو مناقشة . وهو في هذه النقطة مصلح عسكري « فابي » ، اذا سمحنا لأنفسنا باستعارة هذا اللفظ ، لأنه يحاول إصلاح الخطأ داخل البنيان ، دون أن يرى خلل البنيان نفسه وضرورة تغييره جذرياً . ونحن نرى اليوم ان معظم الجيوش الشعبية ، لا تحتاج إلى مثل هذه النصائح ، لأنها حلت المعضلة بتغيير البنيان نفسه ، ووجدت المخرج من الجمود والتزمت باتباع تقاليد الديمقراطية العسكرية المبنية : على انضباط واعٍ ، واحترام متبادل بين القادة والجنود ، ومركزية ديمقراطية تعتبر النقاش والنقد والنقد الذاتي الطريق الوحيد للوصول إلى الحلول والأفكار الخصبة ، التي تسمح للقائد باتخاذ القرار وإصدار الأوامر .

(المعربان)

الفصل الخامس

القرار والتنفيذ

« هنالك بون شاسع بين الرغبة والإرادة ، وبين الإرادة والتصميم ، وبين التصميم واختيار الأساليب ، وبين اختيار الأساليب والتنفيذ »

(الكاردينال دو ريتز)

« ليس هذا إرادياً ، ولكننا مدفوعون ، وعلينا أن نراهن » (باسكال) . يلعب انعدام الدقة وعدم التأكد دوراً هاماً في القضايا الإنسانية ، نظراً لأنها أكثر احتمالاً من الجزم ، ولا تستطيع الأسباب فرض شروط لازمة على الحدث ، ويبقى هنالك عدد من الاحتمالات الممكنة الأخرى[1] . أما في الحرب فأمامنا عدو حرّ في قراراته ، ومع هذا فإن علينا في لحظة من اللحظات أن نعمل مهما كانت رغبتنا ، ومهما نقصت المعطيات المتوافرة لدينا . ولكن قبل أن نعمل، علينا أن نقرر اتجاه العمل وأشكاله . وواجب التحليل أن يقودنا الى المركّبة ، وهذا يعني أن علينا أن نستنتج ، ولكن بما أننا لا نعرف إلا جزءاً من العوامل المليئة بالشك والأخطاء ، فإن علينا أن نختار ، أي أن نقامر : ولا شك في هذا . إن العقل الذي يعمل بمعطيات مبهمة غالباً ، وخاطئة أحياناً ، وناقصة ومتحركة دائماً ، عاجزة عن الوصول الى تأكيدات حسابية ، وتشمل استنتاجاته نسبة من الصدفة ، وحقل احتمالات . ومع هذا فإن علينا أن نعمل ، لأن المهمة وعمل العدو وضغط الوقت تدفعنا الى العمل ، ثم لا تلبث أن تجبرنا عليه . وهنالك لحظات يزداد فيها خطر التقاعس ، لأن اللحظة الملائمة للعمل أهم من نوعية العمل نفسها . إن عدم الدقة في مجال الدراسة وإعداد العقيدة أفضل من خطأ المحاكمة ، أما في مجال الصراع « فالتقاعس هو الجريمة الوحيدة »[2] . وهكذا فإن القائد العسكري مضطر ، أكثر من أي شخص ، للعمل في ظروف مظلمة قاسية ، وهنا تكمن عظمته .

---

(١) يترك هذا بلا شك مجالاً واسعاً للاختيار بحرّية .

(٢) فوش . . . ولقد سبقه الى هذا المعنى أردان دوبيك بقوله : « التقاعس هو المسؤول الوحيد » .

ويُطبق « رهان باسكال »[1] ، على إرادة النصر ، كما يطبق في البحث عن الله . والأمل الحسابي ناجم عن نتيجة الربح بالحظ . ان الربح في الرهان الميتافيزيقي هو اللانهاية ، فإذا كان احتمال وجودها معدوماً غدت المراهنة ضرباً من السخف ، لأن اللانهاية مضروبة بصفر تساوي صفراً . ولكن اذا أعلَمَنا العقل ان وجود اللانهاية مُحتمل ، وجب علينا أن نقدم للرهان كل شيء . ونطبق فيه « أفكار الإرادة » التي لا يفهمها العقل . ان بلوغ النصر أمر رغم أهميته لا يعادل معرفة الحقيقة الإلهية ، ولكن يتعلق بهذا النصر في المجالين الزمني والفكري عدد كبير من الاشياء العظيمة المقدسة ، لذا فإن علينا أن نغامر ونراهن ، عندما يدلنا التحليل العقلاني على وجود نسبة معقولة من احتمالات النجاح . فرهاننا هذا دليل على الإيمان . قال فوش : « كان عليّ أن اتخذ قراراً تتعلق به آلاف الأرواح البشرية ، فدرست واستشرت ، ولكنني لم أتوصل في النقاط الخطيرة الى قناعة كاملة بالحل المطروح أمامي . وتساءلت أأهجم أم أنتظر ، وهل أدفع الهجوم من اليمين أم من الشمال ؟ وكان هنالك فرص واحتمالات متساوية أمام الحلّين . عندئذٍ وبعد أن استنفدت كل وسائلي توكلت على العناية الإلهية ، وانطلقت » . ويذكرنا هذا الكلام بقول لويس الرابع عشر : « تُفضّل الحكمة أن تترك في بعض الظروف شيئاً للصدفة ، إذ ينصح العقل عندئذٍ باتباع حركة أو غريزة عمياء تسمو على العقل وتبدو قادمة من السماء » . وهكذا يمكننا أن نقول أن في كل قرار قسماً كامناً في الصدفة ، هو قسم القائد .

والقرار في حد ذاته ناقص ، يحتوي شيئاً من الخطأ ، وعلينا أن نحاول إضعاف هذه الصفة الى أبعد حد ، وانقاص حقل الإمكانات حتى يصبح حقل احتمالات ، ذلك لأننا « إذا عجزنا عن كشف اكثر الافكار صحة ، وجب علينا أن نتبع أكثرها احتمالاً »[2] . ولكن المعطيات ناقصة ومثقلة بالأخطاء ، ومن واجبنا مضاعفة التفكير والتوقع ، وإلا أعطينا المجهول والصدفة فرصة غير مقبولة . « يجب ان نهب في كل ما نعمل الثلثين للعقل والثلث الثالث للحظ . فإذا ما زاد القسم الأول كنا جبناء ، وان زاد الثاني أصبحنا متهورين »[3] . ونحن نعرف انه لا تتم محاولة الوصول الى شيء

---

(١) « رهان باسكال» حجة شهيرة استخدمها باسكال ليدفع الملحدين الى حظيرة الايمان بالله . ويمكن اختصارها بالشكل التالي : « إذا آمنتم بالله ربحتم كل شيء دون ان تخسروا شيئاً . لأنكم اذا ربحتم (وكان الله موجوداً) ربحتم كل شيء ، وإذا خسرتم (وكان الله غير موجود) لم تخسروا شيئاً » .

(المعربان)

(٢) ديكارت .

(٣) نابليون .

بدون إيمان ، كما نعرف أنه لا يمكن الوصول الى شيء معقول دون نقد وتحليل . ولكن بعد أن يتقلص حقل الممكن الى أبعاده المحددة ، يبقى على القائد خطوة واحدة يخطوها .

إن عليه قبل كل شيء تحديد أبعاد رهانه « هذا ما أعرفه عن العدو ، وهذا ما سأفعله ، وهذا هو هدفي » . وعليه أن يحدد هذا الهدف في أبعد مكان يتوقع الوصول إليه ، تاركاً هامشاً للحظ . فما هي الصفات التي ستعطي القائد إلهامه الذي سيطرد من الأفق كل الظلال ، ويدله على نقطة الضعف في درع العدو ، ويكشف له المناورة التي تخلق المفاجأة ؟ وهل توجد مثل هذه الصفات ؟ نعم لقد كانت موجودة ، ويؤكد لنا نابليون ذلك في جملة من جمله المعبرة المباشرة ، التي تبدو كبروز صخري وسط تموجات أسلوب إنشائي كلاسيكي تتجمع فيه كل ذكريات قراءة واسعة : « تبقى الصدفة عجيبة بالنسبة لذوي الأفكار المتوسطة ، ولكنها حقيقة بالنسبة للمتفوقين » . ويشبه هذا الأسلوب ولا شك أسلوب لابروييربعد إيجازه وتكثيفه على الطريقة الأمبراطورية : « إن المقاتل والسياسي والمغامر الماهر لا يصنعون الصدفة، ولكنهم يعدونها ويجذبونها ويبدون وكأنهم يحددونها ، إنهم يعرفون استخدام الصدفة السانحة ، وهذا أمر يجهله الغبي والجبان ، كما يتقنون استخدام حذرهم وتدابيرهم للاستفادة من هذه الصدفة أو تلك أو عدة صدف مجتمعة بآن واحد : فإن جاءت هذه النقطة ربحوا ، وإن جاءت النقطة الأخرى ربحوا ايضاً . وقد تجعلهم نقطة واحدة قادرين على الكسب بأشكال متعددة . . . ويمكننا أن نمتدح في هؤلاء الاشخاص العقلاء حسن الحظ وحسن التصرف ، وان نكبر فيهم الصدفة والتعقل » .

ويقف الخيال في الصف الأول من الصفات العجيبة ، التي تجعل القائد قادراً على ان يعطي الصدفة معناها ويحدد مكانها . إنه الولد النابغ المغامر للفكر البشري ، وهو يلعب دوراً كبيراً في تحقيق أمننا الذي لا يتعلق « بالمعلومات والمواضع » ـ كما كانوا يرددون ـ قدر تعلقه بدرجة دقة توقع القائد لتصرفات العدو . والخيال هو موجة اللعب في مجال المفاجأة الكبير الواسع، الذي يشمل في الحقيقة كل أنساق التسلل العسكري ، فللمفاجأة درجاتها المتعددة ، ويمكن تحقيق المفاجأة إذا لم يملك الخصم الوقت أو الوسائل الكافية لصد الضربة . وقد تُفاجأ الوحدات الصغرى، بينما تبقى الوحدة الكبيرة بعيدة عن المفاجأة ، وقد يقع العكس أيضاً ، ولهذا المجال أشكال متعددة مجهولة غالباً ، ولا يتم تحقيق المفاجأة بالسرية والسرعة فحسب ، فهناك طرق أخرى لتحقيقها مثل :

ـ اجراء مناورة يعرفها العدو ويتوقعها ، مع استخدام زمان أو مكان غير متوقع .

ـ القيام بمناورة كلاسيكية أسقطها العدو من حسابه واعتبرها مستحيلة التنفيذ .

ـ استخدام شكل جديد في المناورة .

ـ استخدام معدات قتالية لم تُعرف من قبل .

ان الخيال جذاب مُغرٍ ، ولكن من الجنون العمل اعتماداً عليه وحده . وعلى القائد أن يصغي إلى ناصحين أكثر جدية هما :

ـ الحس السليم . وهو غريزة تكشف الشكل العام للأمور ، وقدرة على تقدير ما لا يمكن قياسه .

ـ التجربة : التي تؤثر على التكوين الداخلي للفكر المعتاد على معالجة الحقائق فكرياً ، وتعدل هذا التكوين بشكل يسمح له بمسايرة وتيرة الأحداث . ويقال ان خشب قيثارة الفنان يفعل ذلك بعد طول استخدام .

ان على الحس السليم والتجربة أن يلعبا دوراً خاصاً فيما يتعلق بالوقت ، هذا العامل الأساسي في معطيات العمل . وليس لأوضاع القوى الخاصة في المناورة إلا أهمية بسيطة ، لأن من يدور لإجراء المناورة يستدير في الوقت ذاته معرضاً نفسه لمناورة الخصم ، ولا ينجح في المناورة إلا من يتقن وضع الثقل في الوقت المناسب .

ان حركة تطويق واسعة تغدو بلا قيمة ، إذا قام العدو قبل إغلاق الطوق بخرقه والتملص منه . ويقترب التكتيك من الديناميك (العلاقة بين القوى والحركات) والسينيماتيك (حركات الأجسام) أكثر من اقترابه من الجغرافيا . ولكن الوقت عامل يصعب تقديره ، ويسهل على الفكر البشري العادي تحديد الاتجاه الرئيسي للأحداث في المواضيع الانسانية ، واستنتاج التصرف المطلوب ، في حين يصعب عليه تقدير سرعة الأحداث وتحديد المهل المفروضة . ويقول نابليون « الوقت هو فن البشرية الكبير » . والحقيقة أننا نتصرف تحت دفع حياتنا الفانية القصيرة ، لذا فنحن نعيد كل شيء الى مقياسها ، وتقديراتنا قصيرة غريزياً ، ويذهب فكرنا في سير النتائج بسرعة أكبر من الأحداث . والقائد العسكري الحق هو الذي ينجح في حساب وقته ، ويعرف كيف يتوقع حتى يتدارك الأمور ، أي حتى يُدخل في الوقت الملائم عملاً معيناً داخل تعاقب الأحداث ، التي يجهل سرعتها ووتيرتها جهلاً يكاد يكون تاماً . ولكن الفكر البشري يجد صعوبة كبيرة عند التفكير بالمحتوى والحركة معاً ، لذا يقوم عادة بتقسيمهما الى صور

متقطعة ثابتة ، ويعرف رجل العمل كيف يصنع من هذه الصور فيلماً ، أما النظري فيعتمد في دراسته على الفانوس السحري .

يقول بونابرت : « يجب ان نرى الإنسان الحي ماثلاً على الخارطة والجبال والقوات السائرة » .

لقد غدا احياء فكرة الحركة حساساً جداً في عصرنا . لأن تقدم وسائل النقل الميكانيكية أدى إلى زيادة سرعة المناورة ، وجعل الخطيئة اسهل وقوعاً وأشد خطراً . أما تحسين وسائل الاتصال (هاتف ، لاسلكي ، تلغراف) وأدوات طبع الأوامر (آلات كاتبة وناسخة) ، فقد أدى إلى إنقاص المدد المطلوبة لنقل الأوامر ، ولكنه سبب عدم الانتباه الى الأخطاء بشكل يهدد وسائل القيادة بالضرر . . . فعندما كان نقل الأوامر وإعدادها بنسخ كافية يتطلب وقتاً وعدداً كبيراً من النساخ ، وعندما كان نابليون يُلزم نفسه بعمل جبار يتمثل في املاء ست أو سبع رسائل بآن واحد ، كان القادة يأخذون هذه القيود والفترات بعين الاعتبار ، وكانوا يعرفون أنه ما أن يأخذ مرافق من المرافقين الأمر ويضعه في جعبته وينطلق حتى يصبح من المتعذر استعادة هذا الأمر وتصحيحه . ومن هنا أتت ضرورة الايجاز ، وإقلال عدد المرسل اليهم ، والتفكير الطويل والتوقع المستمر قبل اتخاذ القرار ، مع إعطاء هذا القرار عند أخذه بعض المرونة ، حتى يستطيع المنفذ عند الضرورة صد الأمور الطارئة ، ومعالجة تغيرات الموقف التي تقع بين إصدار القرار وتنفيذه . أما اليوم فالوسائل الحديثة تغرينا بأن نكتب دون إمعان ، أوامرَ نعرف أننا قادرون دائماً على اختصارها وتعديلها في آخر لحظة بمكالمة هاتفية أو برقية لاسلكية ، وأن نطيل هذه الأوامر ونحشوها بالتفاصيل الخاصة بعمل المرؤوسين ، ونزيد عدد النسخ الموزعة . أي أنها تغرينا على نسيان ان الوقت الضائع في مثل هذه الأمور هام مهما قصرت مدته ، وأن اعطاء الأوامر بعد فوات الأوان خطيئة ضد الفكر ، ولكنها خطيئة قاتلة .

إننا لم نخط خطوتنا الأخيرة حتى الآن : « إن الصور الباهتة الناجمة عن التفكير نادراً ما تملك قوة دفع الرجل الى العمل »[1] ، ويجد المرء هذه القوة الدافعة في ارادته ، التي تسمح له بأن يُحلّق متجاوزاً حواجز الشك والنقد الصغيرة ، ليصل في النهاية الى ثقة براغماتية تتمثل في العمل . ولا يستطيع الذكاء بلوغ هذه الدرجة السامية التي يصبح بعدها خلاقاً ، إلا إذا استند الى التجربة والحس السليم والشخصية القوية .

---

(١) شارل مورّا « شمس ١٣ أيار ١٩٠٠ » .

لقد أكد نابليون هذا الأمر بشدة ، واعتبره لازماً لدعم الذكاء في لحظة تعثره عند مدخل العمل . وكان يطالب بقادة « مربعين » ، تتساوى فيهم القاعدة والارتفاع « يجب ان يكون لرجل الحرب شخصية تعادل فكره . أما من زاد فكرهم وقلت شخصيتهم فلا يصلحون لهذه المهمة ، فهم كمركب لا يتناسب صاريه مع ثقله » . ان الإرادة بلا ذكاء شيء خطير ، ولكن الذكاء بلا ارادة أمر لا قيمة له في المجال العملي . ويؤدي اقتران العقل المفكر التحليلي مع الإلهام الفوري التركيبي الى خلق العبقريات الكبيرة . بيد أننا لن نجد القائد الفذ إلا عندما تنضم الشخصية الى الصفتين السابقتين .

ثم تجيء لحظة القرار ، وهي اللحظة التي يجب ان يختفي فيها خوفنا ، بعد ان قُمنا بحساب كل شيء ، وما علينا بعد تحديد كل الأخطار إلا أن نتقدم بجسارة . يقول نابليون : « ليس هنالك أصعب من اتخاذ القرار » . وعلى القائد أن يعرف أنه سيكون في هذه اللحظة وحيداً . وسيزداد شعوره بالوحدة رغم إمكانات المحيطين به وإخلاصهم ، انه سيكون وحيداً كالأم في ساعة المخاض ، رغم جميع مظاهر المحبة المحيطة بها . وعليه أن يعرف أن هذه الوحدة تخلق عظمته ، وتبرر حقه في القيادة ، فهو الذي يحمل المسؤولية كلها فوق رأسه .

ولكن عليه ان يطمئن : لأن الفعل في لحظة الذروة يغدو شديداً وساخناً لدرجة تُطهّره ، على حين يصبح فكر القائد الحق حاداً عنيفاً بشكل غير عادي . وعليه أن يعرف أنه قد يتلقى من جهده المؤلم مكافأة فورية ، تتمثل بشعور جارف من التعب اللذيذ والراحة والاحساس بالثقة . ولقد عشت هذا كله في مساء ٢٤/ ٥/ ١٩٤٠ ، عندما أعطيت أوامر الهجوم الليلي على جسور السوم جنوبي بيرون ، وحقق الهجوم نجاحاً بعد عدة ساعات ، واعتبرت ذلك ضرباً من الوحي . ثم عشته في ليلة ٣ ـ ٤ حزيران ، عندما كنت أنتظر سماع أصوات انفجار القنابل الأولى ، معلنةً انطلاق هجوم رأس جسر آبفيل . . . وأصبنا يومئذٍ بالفشل . فلعنت الشيطان الداخلي الذي خدعني بدناءة ، ثم فهمت بعد ذلك انني خدعت نفسي بنفسي ، وأن ما أحسست به بعنف كان أكثر من توقع غامض ، لقد كان الانهاك البدني اللذيذ الذي يحس به الرياضي بعد جهد عنيف ، وشعور الخلاص الذي ينتاب الفنان بعد إنجاز عمل فني يجهل مصيره ، أو كان شعوراً حسياً بالمعونة الإلهية .

ولنرَ الآن ماذا يشمل القرار ، وهو العمل الرئيسي الخاص بالقائد ؟

ان على القائد قبل كل شيء ان يُعلم الجميع ، بلا غموض ، عن حدود رهانه أي : فهمه للموقف ، وفكرة مناورته . عليه أن يحدد بوضوح فرضية أو فرضيتين تبدوان له اكثر امكانات العدو احتمالاً (علماً بأنه سيحترس من امكانات العدو كلها) . ثم يضع خطة مناورته ، ويبين أين ومتى وكيف يُزمع قيادة عمل كبد قواته بغية تنفيذ مهمته . وينبثق عن فكرة المناورة المخطط العام للعمل (التنظيم العام ، المراحل المتعاقبة ، توزيع المهمات بين الوحدات المرؤوسة) . ولكن القرار مبني على فرضيات وليس على معطيات أكيدة ، لذا يسعى القائد خلال سير العمل لأن يدقق ويؤكد أو يُعلم ، وأن يحدد المعلومات الواجب جمعها بغية التحقق من نوايا العدو كما تصورها ، وتحديد الحقل العام للامكانات .

ومن الضروري كتابة القرار بعد أخذه ، حتى لو كان مؤلفاً من عشرة سطور . وعلى القائد أن يتحمل مسؤوليات قراره ، وهو ملزم بذلك أخلاقياً أمام مرؤوسيه وأمام نفسه ، وعليه ألا يحاول في حالة الفشل إيجاد المبررات في عدم فهم المرؤوسين [1] ، ان الجمل التي يخطها قلمه ، والمكتوبة بأسلوبه ، والمطبوعة بطابعه الخاص ، ستنتقل الى الأوامر بصورة شبه كاملة ، وستحمل فقراتها المتسلسلة إلى المرؤوسين نبرات صوته .

والآن ينبغي أن يتحول القرار إلى أوامر يطبقها جميع المنفذين ، وهذا هو دور هيئة الأركان . ومن الأفضل ألا يتدخل القائد في هذا العمل . ان القائد الواثق من مساعديه ، والذي اختار مجموعة أركانه وأعدّها وفق أسلوبه لدرجة صار يشعر بعدها أنها امتداد لذاته ، قادر على توقيع الأوامر دون أن يقرأها ، وهو واثق من أنها تترجم قراره بأمانة . ويكسب القائد بذلك بضع دقائق ليأكل أو ينام أو يدخن غليونه ، وهي دقائق ضرورية لمقاومته الجسمية وتوازنه العصبي ، وهما أهم بكثير من الوقت الذي يكرسه لتعديل توازن أو تركيب جملة من الجمل . وهو إن تدخل في صياغة الأوامر، كان ذلك لتعديل الشكل العام والطول فقط .

تؤكد جميع الأنظمة العسكرية ان على الأمر أن يكون واضحاً دقيقاً كاملاً موجزاً ، ولكنني أفضل أن أقول : يجب ان يكون الأمر واضحاً دقيقاً كاملاً ، ومن المستحسن ان يكون موجزاً . ولكن الصفتين الأخيرتين متناقضتان . فكيف نحل المعضلة ؟ إن أهمية الكمال والايجاز متبدلة حسب المرحلة القتالية ، ففي المرحلة الأساسية قبل العمل مثلاً ، تملك هيئة الأركان وقتاً يسمح لها بإصدار أوامر عامة مطولة

---

(١) لذا يجب ألا يعطى أمر الانسحاب شفهياً ، حتى عندما يكون الانسحاب عرضياً مفاجئاً .

نسبياً ، ويجد المنفذ آنذاك الوقت ليقرأها ويفهمها . لذا يستحسن ان تكون هذه الأوامر كاملة ما أمكن ، لأن معرفة المرؤوسين لفكرة القائد ونواياه تساعد على إيجاز الأوامر المقبلة المعطاة إبان العمل ، علماً بأن هذه الأوامر ستكون موجزة حتماً ، بسبب هام هو ان هيئة الأركان لا تستطيع في ذلك الظرف صياغتها مطولة . وغالباً ما سيكون المنفذ الذي يتلقاها في أوضاع قاسية لا تسمح له بفهمها إن لم تكن موجزة . وعلى القائد أن يعرف ان طول الأوامر لا يتعلق بامكانات هيئة الأركان وقدرتها على عملية الصياغة ، قدر تعلقه بقدرة عناصر التنفيذ على الفهم . كما عليه أن يستخدم خياله لينقله الى بيت متهدم ، أو حفرة موحلة ، ويضعه موضع المرؤوس الذي سيتلقى هذه الأوامر بعد قليل .

وما أن يصدر الأمر حتى يغدو مقدساً رغم نقائصه الجزئية ، ورغم تطورات الصراع التي تدعونا بلا انقطاع الى التساؤل عن صحة قرارنا . ويصبح القائد مُلزماً بملاحقة عملية تنفيذه بإصرار ، وعدم اختصاره أو تعديله دون سبب هام « إن أفعال الحياة لا تحتمل الانتظار أية فترة . . . وعلينا . . . ان نختار لأنفسنا بعض هذه الأفعال ، ولا نشك بها بعد ذلك لأنها قادمة من التنفيذ العملي ، بل نعتبرها حقيقة أكيدة ، نظراً لأن العقل الذي جعلنا نختارها حقيقي وأكيد » . انديكارت عندما أوجد « الأخلاق المؤقتة » ، التي كانت يود تطبيقها في المجالات التي لم يستطع ـ كما لم نستطع ـ تحديد قواعدها العقلانية الحقيقية ، استنتج ما يلي : « وحكمتي الثانية هي ان اكون حازماً ومصمماً ما امكن في اعمالي ، وأن أتبع الأفكار المشكوكة التي اختارها بكل اصرار ، كما لو كانت أفكاراً اكيدة ، مقلداً بذلك المسافرين التائهين في غابة ، والذين ينبغي عليهم ألا يتسكعوا دائرين في كل اتجاه ، وألا يقفوا في مكانهم بلا حراك ، وان يسيروا بدل ذلك بخط مستقيم دائم نحو الاتجاه نفسه ، ولا يغيروا لأسباب تافهة الاتجاه الذي حددته لهم الصدفة وحدها . وقد لا يصلون بهذه الوسيلة الى حيث يريدون ، ولكنهم سيصلون اخيراً إلى مكان أفضل من وسط الغابة» .

ومما لا شك فيه ، وجود اخطاء يمكن اصلاحها عبر الاستمرار فيها باصرار ، ولقد اتفق جميع رجال الحرب على فائدة هذا التصرف في حقلهم الخاص ، وعلى ضرورة اصلاح أخطاء القرار بالاصرار على التنفيذ . وهم يشعرون جميعاً بنفور غريزي وعقلاني من الأمر المعاكس . ولقد رأينا نابليون يشرح بوضوح هذه النقطة ، كما رأينا مونتي كوكولي خصم تورين يقول في المعنى ذاته : « ما ان يتم اتخاذ القرار ، حتى نرفض الاستماع الى الشك أو التحفظ ، ونفترض أن الضرر الذي يمكن ان يقع لا يأتي دائماً ،

لأن العناية الإلهية تبعده حيناً ، وتنجينا مهارتنا منه حيناً آخر ، كما ان حذر العدو قد يمنعه من اغتنام الفرصة » . ولكن الاصرار لا يشبه الإيمان الأعمى ، كما لا يشبه عناد البغل ، وعليه ألا يُخرس العقل نهائياً ، اذ يقوم هذا العقل بمهمة رئيسية هي مراقبة الأفق المضطرب ، واكتشاف اللحظة التي ينبغي فيها تغيير القرار . ويعرف القائد الحقيقي كيف يحقق في اعماقه التوازن بين الشك الفلسفي الناجم عن كل مناقشة تعتمد على قواعد فرضية ، والاختيار الضروري للعمل .

اننا لا نأمر آلات أو ملائكة ، بل نأمر رجالاً يمكن ان يترددوا أو يخطئوا . وعلى القائد أن يضع نصب عينيه أن من واجبه التغلب بلا انقطاع على جمود وعدم فهم بعض مرؤوسيه ، ومعارضة البعض الآخر . ويقول فوش : « قيادة الرجال لا تعني ابداً ان يكون القائد غامضاً . . . ان القيادة أمر بسيط . والمهم هو فهم من نتعامل معهم ، وافهامهم رأينا جيداً »[1] . ويعرف كل من مارس القيادة يوماً صعوبة إفهام الأوامر للآخرين بدقة ، لأن المرؤوس لا يسمع غالباً ما يُقال له ، بل يسمع ما يتخيل ، وهو يفكر بشيء آخر أو بشكل آخر . ويخلق هذا الأمر بينه وبين رئيسه حاجزاً أو سراباً . انه لا يفهم دائماً بشكل دقيق لأن الفهم بحاجة الى تفكير وتحليل ومقارنة ، وهو عاجز عن ذلك غالباً ، بسبب انغماسه في رؤياه الخاصة وأهوائه (تطلعات ، خوف) . والحقيقة ان علينا اذا أردنا إفهام المرؤوسين امراً ما ، العمل على اقناعهم بأنهم يريدون ما نأمرهم به ، وليس هذا العمل ممكناً دائماً . . . واعطاء الأوامر لا يكفي وحده . والمهم هو أن تُقبل هذه الأوامر أو أن تُفرض عند اللزوم . وقد يكون المرؤوس متردداً او غير حاذق ، عندها تظهر أهمية المراقبة ، وهي واجب من أهم واجبات القائد الخاصة بعد اتخاذ القرار[2] . . . وعلى المراقبة ان تبحث عن النتائج مبتعدة عن التدخل في أسلوب العمل ، إلا اذا كانت مهارة المنفذ أو خبرته أو تصميمه مدعاة للشك ، علماً بأن ثقة القائد الإرادية المستمرة العلنية ، الممنوحة كتحدٍ ، تعطي فوائد جمة ، وتكون في الساعات العصيبة خير حافز للمترددين .

وعلى القائد أن يبقى خلال المراقبة أهلاً لمنصبه وبمستوى مسؤولياته،وألا يتردد في إصلاح خطأ مرؤوس لم يرَ حقيقة المعضلة المطروحة . . ولكن عليه أن ينتبه قبل إجراء أي تعديل على التدابير المتخذة من قبل مرؤ وس موثوق ، يعمل في حقل عمله ويفهم

---

(١) « Des principes de la guerre» Foch (Levrault , Paris)

(٢) « يفقد الأمر جدواه ، إذا صدر ولم يُراقب تنفيذه » (تيير) .

المهمة بشكل جيد ، فقد يكون هذا المنفذ القريب من العمل والمتلائم مع دوره محقاً في تصرفه . . . ان المرء بحاجة الى التشاؤم ليحسن اختيار النقطة التي يوجه اليها رجاله ، والسبيل اللازم لبلوغها ، ولكنه يحتاج كثيراً من التفاؤل للبدء في قيادتهم نحوها .

* * *

عندما نقسم عمل القيادة الى مراحل مختلفة : الدراسة والقرار والتنفيذ ، يعتقد القارىء اننا نضع منهاجاً جامداً للسير عليه . . . والحقيقة ان هذه المراحل تتداخل وتتشابك .

ان القائد العسكري ينشىء قبل البدء بالعمل مخططاً مسبقاً واسعاً قدر الإمكان يتعلق بالأحداث ، لأننا نستطيع من منبع الأحداث التأثير على مجراها بشكل أفضل[1] . وليس المخطط جامداً كما يظن البسطاء ، ولكنه مرن جداً . وهو يغدو ضاراً عندما لا يمكن تغييره ، لأن روح الحرب هي بنت الارادة والحاجة . ومن العبث أن يكون المخطط برنامجاً صلباً ، وتوقيتاً مسبقاً يتوقع كل شيء ، فطبيعة الصراع ترفض ذلك ، كما أن الذكاء مهما سما في التوقّد، والعبقرية ، عاجز عن إكمال نواقص المعطيات ، أو التقدم بثبات داخل وسط كل ما فيه متحرك ضبابي ، أو إخضاع حرية عمل الخصم تماماً . ولا يستطيع هذا الذكاء ان يدّعي القدرة على رسم منحنى المستقبل، وكل ما يستطيع رسمه هو محاور إحداثياته ، مع تحديد النقاط الأساسية والخطوط الرئيسية للشكل العام بخط رفيع . ثم تأتي الأحداث لتؤكد هذا الشكل أو تعدله . والمهم هنا أننا استطعنا حصر الشكل العام داخل شبكة مخطط لا يستطيع منها فكاكاً . وتكون فكرة القائد في هذا الشكل العام دقيقة بالنسبة إلى الأحداث القريبة ، ولكنها أقل وضوحاً بالنسبة إلى الأحداث المتوقعة فيما بعد . انه مخطط مبهم ، تتحدد إبعاده الصحيحة فيما بعد خلال العمل . ويفضل القائد الموهوب الاحتفاظ بمخططه مُبهماً ، لأنه يعتبر ان افضل الوسائل المستخدمة لمفاجأة العدو واكثرها فاعلية ، ماثلة في خداع العدو وإغراقه في الشك لأطول مدة ممكنة ، وذلك بوضعه أمام معضلة متعددة الأطراف . وهذا ما كان نابليون يدعوه « إنشاء فكرة ذات شكلين » . ولا يمكن تقدير قيمة مخطط الصراع إلا بالنسبة الى مخطط العدو ، انه قبل كل شيء هدف وتوقعات شرطية ومجموعة قوى وحركات . ولا يكون المرء قائداً اذا لم يلاحظ هذه الأمور الثلاثة باستمرار ، ولم يكن جاهزاً لجمع ثبات الهدف مع تعدد الظروف والامكانات وتباينها .

---

(١) « إن ما يكون اختيارياً في البداية قد يغدو ضرورياً في النهاية » . (ريشيليو) .

ويؤدي تنفيذ الأوامر الأساسية الى تعديل أو رفض أو تأكيد الفرضية أو الفرضيات المأخوذة ، ويتم هذا الأمر بعنف أو بصورة متدرجة . وعلى القائد (ويشمل هذا كل قائد وليس القائد العام فقط كما كان نابليون) إن يتحلى بصفة اساسية هي : « ان يكون هادئاً ، يأخذ الانطباع الصحيح عن الأمور ، ولا ينفعل أبداً ، ولا ينبهر أو يسكر بالأخبار الحسنة أو السيئة ، ويجمع الاحساسات التي يتلقاها متعاقبة أو بآن واحد في خلال اليوم ، ويصنفها حسب مكانتها » .

ولكن شكل المعضلة متغير في كل لحظة ، وعلى القائد أن يتلاءم مع الأحداث بصورة مستمرة ، وأن يعطي المخطط دفعة خلّاقة ، وأن يقوم بإصدار قرار جديد أو بتعديل القرار السابق عند اللزوم . ويدفع سيل الأحداث القائد ، ولكن القائد يستخدم هذا السيل كبحار ماهر ، على أن يتابع حساب موقع السفينة وقياس الانحراف وتعديل الاتجاه . . . وان تذكّرنا في غموض المعركة واضطرابها لكلمة عنف ، التي ذكرناها قبل قليل ، يجعلنا نفهم هذه الكلمة بشكل أدق وأشمل . نعم ان القائد كائن وآلة لاتخاذ القرارات . ولكن لا يكون كذلك إلا اذا تمتع بنفس قوية[1] ، وكان قادراً على مسك الدفة وسط بحر مضطرب الأمواج ، تحوم فوقه مناطق واسعة من الظلال ، تجبرنا ضآلة وضعنا البشري على تركها للصدفة . على أن يتحلى رغم قدراته بجرأة كافية لاختراق هذه المناطق الغامضة ، التي لا تزال خاضعة لأحكام آلهة مجهولة ، رغم حكمة توقعاتنا وحسن تصرفاتنا وقوة أسلحتنا . فإن تمتع بكل هذا ، كان أهلاً للاحساس بالثمالة القوية الصافية ، التي تحدث نابليون عنها يوماً بحماسة شعرية قائلاً أمام مرافقه ناربون : « السعادة الإلهية للقائد العسكري هي . . . ارتال تتحرك ، وحركات تنطلق بناء على أوامر القيت منذ هنيهة ، وقوة لا تقاوم تتجه نحو نقطة واحدة ، ورجل يقف بعيداً ثابتاً يتوقع ، ويحكم ، ويستوحي كل شيء من افكاره » .

(١) « اننا لا نشك بأهمية قوة النفس اللازمة لشن معركة » (نابليون) .

القِسم الثاني

الإعداد للعمل الحربي

الفصل السادس

مجالات الذكاء الثلاثة في الإعداد للحرب

« فن واسع يشمل جميع الفنون »
(نابليون)

يمكن ربح الحرب وخسارتها خارج ساحة المعركة وقبل دخولها .

الحرب بنت السياسة ، وتعلن السياسة مَعطيات المعضلة المطروحة أمام القائد الأعلى ، والتي قد تكون بلا حل . ولكننا نخرج هنا من المجال العسكري البحت ، وندخل في الحقل المشترك للسياسي والعسكري ، لأن القائد الأعلى في الدول المنظمة بشكل عاقل ، قادر على الدخول بحرية إلى مجالس الحكومة والتكلم بالسلطة اللازمة ، ولكن هذه المشكلة لا تتعلق إلا بنسق القيادة الأعلى ، وعلى القائد العسكري ، عند الاقتراب من قمة التسلسل ، ان يجمع الفكر السياسي إلى معارف وفضائل وظيفته . ومهما تكن دراسة العلاقات بين السياسة والحرب جذابة ، فإنني أرى عدم التعرض لها في هذا الكتاب .

وهنالك أمور أخرى تتعلق بالاعداد للحرب ، وتتصف بأهمية أعم ، وتلامس مناطق عمل القيادة الممتدة بشكل أوسع وهي :

- ما هو السلاح الذي نحتاجه ؟ .
- كيف سنقوم بتنظيم قطعاتنا ؟ .
- كيف نعدّ العقول التي ستستخدم هذه الأسلحة الحربية ؟ .

وتهم النقطة الثالثة مجموع القادة العسكريين على مختلف مستوياتهم ، وهذا أمر بديهي . أما موضوعات التسليح والتنظيم ، فهي مطروحة خلال العمل ، ومن قبل العمل نفسه ، أمام كل مقاتل مفكر . ويدلنا التاريخ العسكري على ان بداهة المنفذين واصرارهم كانا سبباً في ظهور الاختراعات الرئيسية . لقد كان لوفوا مثلاً يعارض استخدام البنادق ، لأنه كان يعتبرها اداة سهلة العطب ، ولكن الجنود كانوا يلقون في

امسيات المعارك رماحهم وبنادقهم القديمة المرتكزة على حامل ليتسلحوا بالبنادق النمساوية ، وانتهى الأمر بأن فرضوها عليه . وفي الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ ، لعبت قوات المشاةالفرنسية دوراً أساسياً في انتشار استخدام الأسلحةالآلية (الرشاشات) واسلحة الرمي المنحني (هاونات - قاذفات رمانات) . . . . ولا يقل دور المرؤوس أهمية عندما يتعلق الأمر بالتنظيم ، أفلم ترَ نهاية القرن الثامن عشر ظهور الفرقة ، وهي اول قطعة كبيرة دائمة ، بناء على بداهة فردية ؟ أفلم يقم عشرون فوج مشاة منذ ١٩١٥ بتكتيل جماعات القتال كخلية حول السلاح الآلي ، قبل ان تلغى تشكيلة نصف الفصيلة بزمن طويل ؟ .

إنني لا انوي تضمين هذا الكتاب فكرة عن صناعة الأسلحة ، أو بحثاً في التنظيم ، او نظاماً للتعليم العسكري ، لأن في ذلك انحرافاً عن هدفي الأساسي ، وهبوطاً من الآفاق الفلسفية التي حاولت البقاء فيها ، الى ارض تكنيكية بذلت في تجاوزها قصارى جهدي . ان ما أريده هو ابسط من ذلك واكثر طموحاً بآن معاً .

انني أبغي ، كما حاولت بالنسبة الى العمل الحربي نفسه ، أن أحدد دور القائد وموقفه الفكري في معضلتين من معضلات الاعداد للحرب ، وهما : تنظيم القطعات ، ووضع نظام خاص للتسليح . وأن أُظهر أن القواعد التي يخضع لها القائد في هذين المجالين لا تختلف في جوهرها عن القواعد الموجهة لعمله خلال الصراع ، ولكنها تتطلب بعض المعلومات الاضافية والمعارف الخاصة ، وتشكل في الحقيقة جزءاً هاماً وفعالاً من تحضيرات الصراع[١] .

ان التفكير أداة رائعة قادرة على القيام بدراسة نفسها . انها مرآة قادرة على عكس صورتها ، وجرّاح يستطيع إجراء عملية على نفسه . وسأحاول تحديد الأسلوب اللازم لتحضير الذكاء زمن السلم ، كجزء من الاعداد للحرب . ولن أدخل هنا أيضاً في تفصيلات تعليمية ، أو أحدد طرائق ، أو أضع مخطط عمل يصلح للاستخدام في كل نسق من الانساق ، بدءاً بالجندي وانتهاءً بالقائد الأعلى . وكل ما أريده هو تحديد الخطوط العريضة للحقل الخاص بإنشاء الفكر الحربي ، وإبراز القواعد التي ينبغي عليه تطبيقها . لأن الدراسات العسكرية على مختلف مستوياتها ، تحمل في داخلها صفات

---

(١) كتب باريه Barrès في آخر مذكراته : « ان اجمل الكلمات كلمة نظم ، أي وضع داخل تنظيم معين . فهي تعني نصح وامر ، وتجمع كل ما تحتويه فكرة النظام من معنى . . . انها تعني وضع الأمور في نظام معين ، وإعدادها لتحقيق هدف معين . كما تعني القدرة اللازمة لهذه النتيجة . ان نظم تعني رتب وامر » .

مشتركة ، ووحدة البيئة والطريقة . لقد كان المارشال ليوتي يدعي انه طبق عند تنظيم أملاكه في اللورين نفس القواعد التي استخدمها في المغرب ، وأعارها نفس الاهتمام . « ان موضوع الأنساق أمر لا وجود له » . . . وهو يريد ان يقول بذلك ، ان اختلاف الدرجة في قوانين العمل اختلافاً يتعلق بالنسق ، لا يعني وجود اختلافات في طبيعة هذه القوانين . فقيادة الفصيلة تتم مع الالتزام بنفس القواعد الفكرية المطلوبة لقيادة فيلق . وتجري الاستعدادات لها بالطريقة ذاتها . وتظهر قيادة أصغر وحدة أهم دروس فن الحرب ، و« الأقسام الإلهية » للحرب ، تماماً كما تظهرها ممارسة القيادة العليا . لذا يلاحظ القارىء أني لم أحاول إظهار الفروق بين الاستراتيجية والتكتيك. ولا يعود ذلك إلى أنني أفكر كالبعض بأنه لا وجود للاستراتيجية ، وبأنها عبارة عن (لغوصارخ) ،ولكنه يعود الى اعتقادي بأنها ما دامت تأخذ حياتها ومبرر وجودها من وسائل عمل التكتيك ، فهي مضطرة لاتباع قواعد التفكير المطبقة فيه ، كما يعود إلى يقيني بأنه ليس لها ، ولا يمكن أن يكون لها من هدف سوى : دفع القوة إلى مكان العمل ، وإلى حيث تستطيع التأثير في أحسن الظروف . وهذا ما يجعلها تتأثر بهذه الظروف نفسها .

الفصل السابع

إعداد نظام التسليح

**« الكلمة الأخيرة دائماً للتكنيك ، الذي
يوحي بكل تقدم تكتيكي واستراتيجي »**
(الجنرال إيتيين)

I ـ حدود الخيال المجدي

يلاحظ المقاتل ، الذي يجابه المعضلات الدامية فلا يجد لها حلاً ، ان هنالك ضرورة لاستخدام معدات جديدة ، أو تحسين الأسلحة المستخدمة . وقد ينجم عن الاكتشاف العام اكتشاف المقاتل لإمكانات جديدة متعددة في حقله الخاص . إن خيال الجندي المتحفز تحت إلحاح المطالب والتطلعات يسبق الزمن بجرأة ، ويرسم الخطوط الرئيسية للمعدات الضرورية أو الناقصة . ولكن عليه أن يبقى داخل حدود معينة لا يتجاوزها ، وإلا غدت فاعلية جهده صفراً . ويدعي البعض أن خيال جون فيرن كان حافزاً على الاسراع بولادة الغواصة ، وقد يكون ذلك صحيحاً في حدود عشر سنوات فقط .لقد توقع ليوناردودافينشي ظهور الدبابة والطائرة ، ولكننا لا نستطيع تأكيد تأثير تخيلاته على ظهور هذه المعدات بعد أربعة قرون .

ولا يتقدم التكنيك الصناعي بقفزات واسعة كالعلم المجرد ، ولكنه يعيش فترات تلاؤ م دقيقة ، ويسير بجهد بطيء وإصرار صبور . وهذا صحيح لدرجة أنه إذا كان لدينا معضلة ذات معطيات نظرية معينة ، مطروحة بشكل معين ، فإن النتائج التي يتوصل إليها مهندسو جميع الأمم في العصر نفسه تكون متشابهة متجاورة . **لذا فمن الممكن اذن تحديد حقل الامكانات الفنية في المستقبل القريب بدقة كافية** . ولكن هناك أخطار طارئة ، **كتدخل احد الاختراعات العلمية الكبيرة (بارود المدافع ، المحرك الانفجاري ، القدرة الذرية) ، إذ يسبب هذا التدخل ثورة ، ويكشف حقلاً جديداً للامكانات** . وليس هنالك من يملك القدرة على تحديد إمكانية مثل هذه الثورات . وتستطيع الدول القوية الغنية إقلال قيمة الخطر بتنظيم أريب للبحث العلمي ، ولكن

الوحي يهبط أين وحيثما أراد ، لهذا فإن سيف ديموقليس سيبقى ، مهما فعلنا ، معلقاً فوق رؤوسنا ، كرمز مهدِّد ، لهذه الصدفة ، التي نستطيع تقليص حجمها دون أن نقدر على إلغاء تدخلها نهائياً في القضايا البشرية .

وحتى لو لم يكن هذا الخطر موجوداً ، فإن توقعاتنا عاجزة عن التوغل بعيداً داخل المستقبل . والحقيقة أن العناصر الفنية والتكتيكية تؤثر على بعضها بلا انقطاع . إذ توجه رغبات المنفِّذ تصرفات الصانع ، كما يمكن للمنجزات التكنيكية أن تخلق في بعض اللحظات ثورة تكتيكية ، تكشف إمكانات غير متوقعة ، وحاجات جديدة . إن مخترعي الأسلحة النارية الأولى لم يستهدفوا إلا خرق الدرع أو تدمير المتاريس ، ولكن بداهتهم أطلقت سلسلة من النتائج لم يكن أحد يتوقعها أو ينتظرها ، وأدت إلى قلب فن الحرب . **ولكن اذا أراد الذكاء ان يتقدم شوطاً أبعد في مجال المستقبل ، تعثر على منحنيات التكنيك والتكتيك ، مهما كان هذا الذكاء وقّاداً وموهوباً .**

اننا نبحث عن نقاط التوجه في الأمام ، ولا يعطينا البحث في مستوانا إلا نقاط تراصف . إن على المستخدم أن يتجاوز التقدم الفني بأفكاره لتحقيق متطلباته ، ولكن مسافة القفزة المطلوبة لا تتجاوز عدة سنوات ، ولا تزيد عن عشرة أعوام على أكثر تقدير . وان زادت عن ذلك زاد احتمال وقوع اكتشاف علمي غير متوقع ، وتشابكت التأثيرات المتبادلة للتكنيك والتكتيك ، ونخرج عندها من حقل المحتمل إلى مجال الممكن الواسع ، وننطلق في لعبة التفكير ، الذي قد يكون ممتعاً دونما فائدة حقيقية . **ان علينا ان نختار نقطة التوجه على خط الأفق الواضح ، لا على الخطوط البعيدة الغامضة المغمورة بالضباب أو المليئة بالسراب** ، على أن نترك التوقعات الأجرأ لكتّاب قصص الخيال ، وصفحات المجلات المشوّقة ، وأقلام أنبياء الرؤيا ، الذين يؤمنون حتى الآن بقدرتهم على إبعاد الشعوب عن الحرب بوصف نتائجها الرهيبة المقبلة .

II ـ حوار التكتيكي والفني

توجد **الحاجات التكتيكية** كما رأينا في قاعدة كل تقدم للتسليح . ولكن محاولة إرضاء هذه الحاجات تكشف عدداً آخر من العوال ، هي **الامكانيات الفنية** .

يقول فيثاغورس في « أشعاره الذهبية » : « يعيش الممكن إلى جوار الضروري » . ان هذا محتمل ، ولكنهما جاران سيئان يصعب تفاهمهما .

يقول التكتيكي عادة : « هيا ! ان الأمر سهل جداً ، فأنا المستخدِم ، وأعرف

وحدي ما يلزمني ، انني أرسل بطلبي الى الفني ، وما عليه الا أن ينفذه » . والحقيقة ان الأمر أكثر صعوبة ! ولا يكفي أن نرغب في الشيء حتى يغدو تنفيذه ممكناً . فهنالك معضلات بلا حل : « ان طلبك يا أخي التكتيكي لا يصلح دائماً للتنفيذ ، أو أنه لا يصلح للتنفيذ حرفياً . وكل عتاد من أعتدة القتال ، يحتوي في تكوينه (ككل آلة) توازناً داخلياً بين صفات متعددة ، ذات متطلبات متناقضة . انك لا تستطيع صناعة دبابة بالوزن الذي ترغب فيه ما دمت مصراً على أن تتمتع هذه الدبابة بصفات معينة من الحركية والتسليح والتصفيح . ومن المستحيل إعطاؤك سلاحاً آلياً متيناً فعالاً ذا وزن صغير كما تطلب . وحتى لا تقع طلباتك في هذا التناقض ، فإن عليك أن تكون نصف إله ، أو أن تعرف نتائج الدراسات الجارية بالنسبة إلى نموذج تجريبي للسلاح المطلوب . . . إن أهم ما في الأمر دراسة النموذج التجريبي وصنعه . فما أن تتم هذه المرحلة ، وننتقل إلى عملية التصنيع بشكل متسلسل ، حتى تظهر متطلبات جديدة تعيق رغباتك وهي : آلات المصانع ، وشروط العمل ، والتموين بالمواد الأولية أو المنتجات نصف المصنعة . الخ » .

ويبتسم الفني عند سماع هذا الكلام ، ويوافق عليه بهزات رأسه قائلاً : « انني أعرف وحدي ماذا أستطيع صنعه ، دعوني اصنع كراس نماذج (كاتالوج) ، ثم اختاروا بعد ذلك ما تشاؤون ، فهذه طريقة مستخدمة بنجاح في الصناعة المدنية » .

« مهلاً يا صديقي الفني ، انك تتجاهل ان عندك زبوناً واحداً هو المستخدِم العسكري (القيادة او القائد ان شئت تمثيل المستخدِمين بشخص واحد) ، وعندما لا يكون أمام المنتج سوى زبون واحد ، يصبح هذا الزبون سيداً . . . كما انك تتناسى مكانتك الحقيقية ، انك يا صديقي مرؤوس (ولا تتأثر من قولي فكلنا مرؤوسون بدرجات متفاوتة)، فالمهندس مرؤوس في المصنع ، وكراس النماذج (الكاتالوج) الذي تحلم به لم ير النور إلا بعد ان استخدمت الادارة كل وسائلها (أبحاث ، إحصائيات ، دراسات تجارية . . . الخ) . لمعرفة رغبات الزبائن المُحتَمَلين وحاجاتهم . والادارة مضطرة لذلك ، لأنها تتجه الى كتلة بشرية مُبهمة ، ذات طلبات متعددة ومتناقضة . اما انت فعندك زبون واحد ، قادرٌ على ان يقول بوضوح ما يريد . ان معاندته لا تفيد ، ولكن إفهامه والتعاون معه يدفعانه حتماً الى تقدير الامكانات بشكل افضل » .

ان حل المعضلة كامن في **التعاون** : نعم ! ان على التكتيكي المنفِّذ ، الممثِّل

بالقائد الذي سيشترك في المناقشة ، أن يحدد طلباته ، ثم يقوم بعد ذلك بالمناقشة في جو من المساواة . ويجد الفني نفسه أمام طلبات لا يستطيع تحقيقها حرفياً ، فيبدأ بالدراسة ، وتكشف له الدراسات شيئاً فشيئاً عدداً من التناقضات والاستحالات . فهل هو قادر على تحديد ما يمكن الغاؤه ، وما يجب المحافظة عليه بأي ثمن ؟ كلا ! فاذا ما تُرك وحيداً ، انزلق بلا شك نحو حلول تقدم تسهيلات فنية ، حتى لو كان في طياتها مساوىء عسكرية خطيرة . ولكن اذا أعلم المستخدِم عن سير الأعمال ، كان قادراً على تحديد ما يمكن إلغاؤه ، واصبحت متطلباته أمام الصعوبات الظاهرة باستمرار محدودة وموجهة . وينشأ بين هذين المتعاونين حل وسط ، يلحق بالفكرة الأولى عدة تعديلات ، دون المساس بالهدف الرئيسي . واخيراً يأتي يوم يستطيع التكتيكي فيه ان ينظر الى صورة نموذج ملائمة تقريباً ، فيستخدم السلطة الممنوحة اليه ، ويقرر البدء بصناعة العتاد .

III ـ سياسة التصنيع

يتطور التسليح في زمن السلم بشكل ابطأ واكثر تقطعاً من تطوره خلال الحرب . ويبدو التقدم في السلم كمنجزات متباعدة ، ناجمة عن عمل سري بطيء مستمر في الأدمغة ، ومكاتب الدراسات وحقول التجارب . **ورغم انقطاع عمليات التصنيع ، تبقى الابحاث مستمرة** . ويشبه تطور زمن السلم الانهار التي يقع قسم من مجراها تحت الأرض .

اننا نعرف ان أقل تعديل في زمن الحرب يُقبل فوراً تحت ضغط الضرورات ، ويختلف الأمر في زمن السلم اختلافاً كلياً ، ولا يمكن ان يتم فيه كل تعديل ، والا أصبح لدى كل دولة مستودع اسلحة يشبه معرض النماذج . لذا تطبق الدول سياسة اعداد النماذج التجريبية ، مع وضع سياسة جاهزة دائماً لتجديد التسليح بناء على آخر نموذج تجريبي . . . ومعطيات هذه السياسة معقدة ، وهي تشمل : وضع البلاد الداخلي والخارجي ، التوقع الخاص بالتطور الفني ، المدد التي تصبح الأسلحة والأعتدة بعدها قديمة ، وهي مدد مختلفة جداً (تفقد الطائرة جدّتها خلال بضع سنوات أو بضعة اشهر أحياناً ، على حين حققت الدبابة رينو لفرنسا تفوقاً اكيداً لمدة ١٥ عاماً ، وحقق المدفع ٧٥ التفوق نفسه لمدة ٣٠ عاماً) . ويمكن جمع هذه المعطيات حول الموضوعين التاليين :

ـ بعد اية فترة نتوقع اندلاع الصراع المسلح ؟ .

ـ هل يؤمن التقدم المحقق لمعداتنا هامش حيطة يتلاءم مع هذه الفترة ؟ .

يحتاج الفني عند صنع السلاح وقتاً أكبر من الوقت الذي يحتاجه التكتيكي لصياغة رغبته . وتظهر الحاجة بكل وضوح قبل أن يتم صنع العتاد اللازم لإرضائها . وقد يتطور الموقف خلال فترة الدراسة والصنع ، وتتعدل متطلبات القيادة . كما قد يتقدم التكنيك ويفتح الآفاق لامكانات جديدة . ويحب التكنيكي عمله ويريد أن يكون كاملاً ، وهو لا يمل من إدخال التعديلات عليه وإعادة تحسينه مائة مرة ، فإذا أردنا الانتقال الى التنفيذ ، كان علينا أن ننتزع من يديه الأبويتين هذا المخلوق الذي لا يتعب من مداعبته .

قال الجنرال ايتيين : « **كلمة نفذ تعني رضي عامداً القيام بعمل غير متكامل** » . ويمكننا فهم معنى هذه العبارة إذا عرفنا أن هذا الجنرال كان منفذاً كبيراً .

فهل يعني هذا ان علينا التوقف عن متابعة التطور الفني ؟ كلا ! ويعطينا البحارة نموذجاً ممكناً للحل ، ذلك لأنهم اضطروا لمعالجة هذه المعضلة منذ أمد بعيد ، نظراً لأن مراكبهم أغلى وأقل عدداً من معداتنا ، واستخدموا في حلهم أسلوب الشرائح المتعاقبة . ان من الواجب إعداد النموذج التجريبي المختار بناء على خصائص أساسية ، ودراسته بالنسبة الى هذه الخصائص فقط ، فإن حاز رضانا قمنا بتقديم طلب الصنع . وإذا ما تبدلت في خلال هذا الوقت متطلبات القيادة أو الإمكانات الفنية ، بدأت دراسة جديدة قد ينجم عنها طلبات جديدة عند الوصول إلى مرحلة النضج . ولكن يجب ألا تتبدل خصائص نوع ما إبان الدراسة أو التنفيذ ، لأن هذا يهدد التوازن المطلوب الذي يتم الوصول إليه بكل صعوبة . . . ويتم تقديم الطلبات بناء على النموذج القديم ما دام النموذج الجديد تحت الدراسة ، لأن اكبر خطيئة معوقة للانتاج الصناعي ، هي عدم الاستمرار في التصنيع ، وانقطاع سلسلة التجميع ، وعدم احترام قانون العمل المتسلسل . بيد ان التمسك بهذا القانون امر صعب ، فالفكر الذي يحب الدقة والاتقان لا يقبل بسهولة الخضوع لطريقة مبنية على تعاقب حلول جزئية ناقصة . ومع هذا فالخضوع ضروري ، وإلا تعذر علينا الانتقال الى التنفيذ .

ومهما كانت الحكومة عاقلة ، ومهما كانت القيادة قادرة على التوقع ، فإن التسارع المتزايد للتقدم الفني ، الذي يؤدي الى تقادم اسرع للمعدات ، يجعل من الضروري **القيام بإعادة التسليح على نطاق واسع منذ أن يظهر خطر الصراع في الأفق** . وما أن يقع التوتر الحاد ، وتبدأ التعبئة العسكرية ، حتى تصبح **التعبئة** الصناعية ضرورية لتأمين حاجات التسليح ، وهذه التعبئة عملية معقدة جداً ، تتطلب إعداداً دقيقاً ، وزيادة كبيرة في سلطة الدولة ، وعلى الأخص في الدول الرأسمالية . ذلك لأنها تتعلق

باختيار المصانع المعدة لصنع الأعتدة والأسلحة ، وتقديم الطلبات إليها ، وتأمين اليد العاملة لها ، عن طريق تعيين الأشخاص اللازمين لزيادة عدد العمال ، أو لشغل وظائف العمال الملتحقين بالقطعات المحاربة ، وتزويدها بالمعدات والآلات ، الإضافية والمواد الأوليّة اللازمة لانطلاق النشاط الجديد . وعندما يبدأ الصراع ، يبدو بوضوح أن ضرورة مواجهة متطلبات متزايدة باستمرار ، ومتابعة التقدم بإنشاء صناعات جديدة ، تتطلبان **توسيع قاعدة الانتاج** .

والخلاصة أنه لا يمكن اعتبار سياسة التسليح مهمة خاصة بالقيادة العسكرية فقط ، لأن عليها أن تتعاون في هذا المضمار مع الفنيين والجهاز السياسي والاقتصادي والمالي للبلاد . ولكن القيادة مشتركة في هذه المهمة بشكل وثيق ، فهي المُهتم المباشر بها ، والمُحرك الضروري لها . ولا يمكن أن نتصور في ايامنا هذه قائداً عسكرياً يقف بعيداً عن هذه القضايا .

IV ـ قاعدة نظام التسليح

الحرب مجال الشك والموت ، وتتطلب القطعات المشتركة فيها للقيام بمهمات القتال القريب اسلحة متشابهة ما أمكن .

قد لا يكون من قبيل الصدفة فقط ، ظهور بعض ذرى الفن العسكري خلال عصور كانت المشاة فيها قادرة على الاكتفاء بنوع واحد من الأسلحة : لقد كان يوليوس قيصر يستخدم ليجيونات يحمل مقاتلوها سيوفاً قصيرة ورماحاً ثقيلة ، على حين قاد نابليون في نهاية القرن الثامن عشر مشاة مزودة بالبنادق والحراب .

ولكن علينا أن نعترف أن هذه المراحل كانت قصيرة . صحيح ان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شهدا مشاة مزودة بأسلحة بسيطة موحدة ، ولكن ما اكثر القرون التي شهدت تزامن سلاح القذف وسلاح الطعن ، وموازنة حملة المقاليع والأقواس وقاذفات السهام والبنادق المرتكزة على حامل مع حملة الرماح القصيرة والمناجل والرماح المدببة القاطعة والرماح الطويلة ، لأن جهود المنظمين **تتجه نحو تأمين فاعلية الاسلحة اكثر من اتجاهها نحو التوحيد ، ولأن هنالك عصوراً لم يستطع التكنيك فيها تحقيق التأثير المطلوب ، إلا باشتراك اسلحة متعددة ومتخصصة** . وهذا الاشتراك أمر له مساوئه ، فمشاة القرن التاسع عشر كانت أكثر مرونة وأشد تحملاً من مشاتنا المتنوعة . ولكن علينا أن نعترف بضرورة هذا الضرر . على أن نلغيه في كل مكان لا يبدو فيه

ضرورياً،ونحدده في كل مكان آخر . أما المدفعية التي اضطرت لاستخدام سلاح معقد (معقد لأنه قوي) ، فقد عرفت في تاريخها أحداثاً كبيرة عندما تبنت (ستة عيارات فرنسية) في عصر هنري الثاني ، ثم خفضت عدد عياراتها الى خمسة في أيام فالبير ، أي عندما طبقت أفكار اولئك الذين اعترفوا بضرورة التعدد والاختصاص ، ثم رسموا لهما حدوداً معقولة .

ان تنوع حقل المعركة واضطرابه وتعدد اشكاله واخطاره ، تجعل قابليته للتخصص أقل من قابلية المصنع . . . لا شك أن الأسلحة الصالحة لكل استخدام اسلحة عديمة الجدوى ، ولكن صنع أعتدة على درجة عالية من التخصص لتنفيذ مهمة معينة عبارة عن عمل خطير ، لأنه قد يحرمنا مما يلزمنا في الظروف الأخرى . وتقدم المدفعية لنا في هذا المضمار دراسة مثمرة : كانت مهمة المدفع ٧٥ الرئيسية دعم المشاة ، إلا أن بعض المعارك أجبرت المتحاربين على استخدامه في رمي التدمير ورمي معاكس البطاريات . أما القذّاف ١٥٥ قصير ، وهو سلاح مخصص للتدمير ، فقد استخدم في رمايات الايقاف عندما تطلبت ذلك طبيعة الأرض ، أو عجز المدفع ٧٥ عن القيام بالمهمة . وفي العام ١٩٤٠ ، مررت بظروف أجبرتني على أن أرمي ضد الدبابات بالقذاف ١٠٥ قصير الموجود في مدفعية فرقتي . لهذا يبدو أن استخدام كلمة ملاءمة أفضل من استخدام كلمة تخصص . وعلى كل عتاد حربي أن يكون ملائماً لمهمة عادية ، ولكننا نضطر في بعض الظروف المؤاتية أو السيئة إلى استخدامه بشكل أوسع أو أضيق من هذه المهمة ، لذا فإن عليه أن يكون قادراً على تحقيق تغطية جزئية لحقل نشاط الأعتدة المشابهة له .

هنالك أسباب متعددة غير متطلبات الحرب الحديثة تجبرنا على تزويد المقاتلين بمجموعة مختلفة من وسائل العمل (أسلحة رمي مستقيم ورمي منحن ، دبابات ، مدافع مضادة للدبابات . . . الخ) ، ومن هذه الأسباب وجود تناقض بين القدرة والحركية داخل مجموعات الأسلحة المختلفة . ان النار هي الحجة الفعّالة في المعركة ، ولا يمكن الوصول الى نتيجة حاسمة بدون هجوم ، والهجوم نار قوية كثيفة تتقدم . ولكننا لا نستطيع عادة الجمع بين القدرة النارية والمثالية والحركية المطلوبة في أنموذج واحد ، داخل مجموعة معينة ، من مجموعات الأسلحة والأعتدة . وليس هنالك سلاح صالح لكل استخدام ويلبي كل الرغبات . لذا فقد قمنا بدون إرادتنا بتعميم الأسلوب الذي تبنته المدفعية منذ أمد بعيد ، وخلقنا مجموعات أسلحة (ولعل من الضروري أن أستخدم هنا كلمة درجات ، فهذا تعبير يوحي بالانتقال بشكل واضح) . وهكذا

فالمشاة الحديثة مزودة بمجموعة أسلحة للرمي المستقيم (مسدس رشاش ، بندقية ، رشاش خفيف ، رشاش متوسط ، رشاش ثقيل) ، ومجموعة اسلحة للرمي المنحني (رمانات يدوية ، رمانات بندقية ، هاونات متعددة العيارات) . وفقدت الدبابة ذات الاستخدام العام مكانتها تماماً منذ العام ١٩٣٩ ، وظهرت مجموعة دبابات خفيفة ومتوسطة وثقيلة ، كما ظهرت بالمقابل مجموعة أسلحة مضادة للدبابات . ولم يختلف تطور الطائرات عن سير تطور الأسلحة البرية الذي ذكرناه .

يجب أن تكون الأداة القتالية متينة ، سهلة الاستخدام . فهي تستعمل في ساعات الخطر ، ومن قبل رجال لا يملكون دائماً ثقافة عالية ، كما يجب أن تكون بسيطة الصنع ليمكن إنتاجها بسهولة على نطاق واسع . وليس من الضروري ان تكون بسيطة التكوين ، لأن ذلك يعني وضع قيود تعيق التقدم التقني الذي لا يصل إلى التحسين وزيادة المردود إلا عن طريق زيادة التعقيد . ومن حسن الحظ ! لا يتناقض التعقيد مع المتانة وسهولة الاستخدام وبساطة الصنع . وتقدم الصناعة الكبيرة لنا في كل يوم دليلاً على ذلك .

تطرح صناعة الأعتدة والمعدات الحربية معضلات مشابهة لمعضلات الصناعة المدنية ، بالاضافة إلى متطلبات وخصائص واضحة أخرى . ونحن نعرف أن الصناعات في زمن السلم تعمل جاهدة لتحقيق التوفير ، والمردود المتوسط الجيد ، وطول مدة الاستخدام . أما في الصناعة الحربية ، فتفقد هذه المتطلبات كثيراً من أهميتها ، وتختفي ضرورة التوفير أمام البحث عن الفاعلية ، ويضحى بالمردود المتوسط بغية تحقيق المردود الأقصى ، وتتحدد مدة الاستخدام باحتمالات التدمير والمدة المتوقعة لتقادم العتاد . وينتج عن ذلك ان على كل سلاح أو وسيلة من وسائل الصراع أن يتمتع بقدرة كبيرة ، وإمكانات عمل مختلفة ، وهامش حيطة كاف ، مع الاكتفاء احياناً بمدة استخدام صغيرة نسبياً . إن السيارة التجارية تستخدم عادة جزءاً لا بأس به من قدرتها ، وتستطيع السير بلا مراجعة مسافة ٤٠ ـ ٥٠ ألف كيلومتر . ولا تقدم القاطرة سرعتها القصوى في المنحدرات الصاعدة ، ولكنها تعيش عشر سنوات ، وتعطي الطائرات المدنية عادة ٦٠ ـ ٧٠٪ من قدرتها . أما محرك الدبابة فلا يصمم لاعطاء الجهد المتوسط والسير بسرعات معتدلة ، بل لصعود المنحدرات ، واجتياز الميول التي تفرضها ظروف القتال ، مع الاكتفاء بقدرة على المسير لا تتجاوز ١٠ آلاف كيلومتر . ويعيش السلاح الفردي في المعركة مدة لا تزيد عن سنة ، ولا تستطيع الرشاشات الحديثة أن ترمي أكثر من ١٠ آلاف طلقة في الساعة ، ولكنها تستهلك في بعض الحالات ١٠٠٠

طلقة في الدقيقة . وتفقد الطائرة حداثتها خلال عدة أشهر ، ولو خفضنا سرعة الطائرة المطاردة التي تحلق بسرعة ٩٠٠ كيلومتر في الساعة ثلاث مرات ، لانخفضت قدرة محركها سبعاً وعشرين مرة ، ولكان باستطاعتها أن تقطع مداها الأقصى .

إن الحرب مملكة الصراع والحظ والشك والاحتكاك ، لذا فهي لا تتقبل إلا تخصصاً محدوداً ، وتسعى رغم فوائد التوحيد الى تحقيق الفاعلية المطلوبة بمجموعة معدات تتصف : بالمتانة ، وسهولة الاستخدام ، وبساطة الصنع ، والقدرة العالية ، وامكانات عمل مختلفة ، مع وجود وسائل حيطة كافية .

* * *

والآن بعد أن حددنا المدد التي تحل فيها مشاكل التسليح ، وعرفنا الأدوار الخاصة بالفني والتكتيكي ، وحددنا ماهية سياسة التصنيع وقاعدة اسلوب التسليح ، يبدو لي ان الموقف الفكري للقائد في هذه السلسلة المتعاقبة من الأمور موقف واضح جداً ، فليس عليه أن ينافس الفني بالمعلومات ، لأن هذه خطيئة فاحشة ، ولأن التكنيك يتعلق بأمور خاصة محدودة ، في حين القائد ، كما يقول ليوتي هو « فني الأفكار العامة » .

وعلى القائد ألا يقف مواقف حديّة ، أو يطلب المستحيل ممن حوله . إن الأوامر الحازمة لأكبر قائد لاتستطيع تغيير جزء من مليون جزء من كثافة الحديد، أو تجبر الاسمنت على الجفاف بسرعة اكبر . ونحن لا نأمر الاشياء إلا إذا خضعنا لقانونها ، وعلى القائد ألا يكون جاهلاً أو فنياً مختصاً ، بل ينبغي عليه ان يكون مستخدِماً واعياً ، وأن يستفيد من مساعديه المختصين ، ليبقى على اتصال دائم مع الاوساط الصناعية أو الفنية ، فيعلمها عن طلباته ، ويكتشف الامكانات العسكرية التي تنبثق من عملها ، على أن يحتفظ لنفسه بحق تحديد الاتجاه ، واعلام الفنيين عن الهدف المنشود . إننا لا نأمر إلا ما تجاوزناه ، وعلى القائد أن يتجاوز التكنيك ويضعه في موضعه داخل جملة الوسائط . وموقفه من التكنيك كموقف مدير المصنع ، الذي يُفترض دائماً ان يكون أفضل المهندسين وأمهرهم ، والذي لا يحكم على قيمة التكنيك نفسه ، ولا يعتبره إلا وسيلة لبلوغ الهدف المنشود ، وهو ازدهار المشروع .

ومع مرور الأيام ، تزداد صعوبة السيطرة على التكنيك ، نظراً لتحسنه المستمر وتزايد قوة وسائله باضطراد . ان الحرب انعكاس للحضارة ، وتأخذ الحضارة الغربية شكلاً تقنياً يزداد مع الزمن وضوحاً . ولو درسنا تقدم البشرية ، لوجدنا أن تقدمها المادي القديم كان بطيئاً جداً ، ثم ازدادت سرعته بعد ذلك زيادة طفيفة ، وتقدم منذ

منتصف القرن التاسع عشر بسرعة اكبر ، حتى غدا اليوم جارفاً . وتعدلت الشروط العامة لحياة المجتمعات بعمق وسرعة ، وسار التاريخ سيراً حثيثاً ، وتابع الفن العسكري وتيرة التاريخ وخطواته . وإننا نلاحظ أن تقسيمات هذا الفن محددة باستخدام مادة اولية في صناعة سلاح غير معروف (النحاس ثم البرونز بعد الحجارة ، واخيراً الحديد) ، أو بإخضاع قدرة جديدة تزيد قدرة الانسان (الحصان ، البارود الاسود ، المتفجرات المبنيّة على أساس النيترات ، المحرك الانفجاري ، واخيراً الدفع النفاث ، والموجات الضوئية والصوتية والكهربائية ، والانفجار النووي) . كما نلاحظ أن وتيرة التطور تزداد سرعة ، لقد دام العصر الحجري ٣٠ ـ ٤٠ الف سنة ، ودام عصر النحاس والبرونز ١٠ آلاف سنة ، وبقي عصر الحديد ١٥ الفاً ، واستمر عصر الحصان المجهز بالسرج واللجام والحدوة ٧٠٠ عاماً ، كانت الأفضلية ، خلالها للفرسان ، ودام عصر البارود الأسود الذي اظهر تفوق المشاة ٣٥٠ عاماً ، ولكن عصر الرمي السريع الذي غدا ممكناً بفضل البارود الجديد لم يعـش إلا نصف قرن (١٨٦٦ ـ ١٩١٧) ، وعاش عصر المحرك وسيطرة الطائرة والدبابة والمكننة ربع قرن فقط (١٩١٨ ـ ١٩٤٣) . ثم جاءت المراحل التالية في الحرب العالمية الثانية ، لتقدم عصراً جديداً ، ساد فيه الدفع النفاث والميكانيكا التموجيّة(1) والفيزياء ا النووية .

ولأستخدام تكنيك معقد متحرك بلا انقطاع ، ينبغي على القيادة ان تطلع على التطور باستمرار ، لأن ذلك يزيد من قدرتها الفنية في قيمتها المطلقة ، على ألا تدع القدرة الفنية تسيطر عليها ، بل تعدّلها بدفع ملائم من صفاتها الأخرى (خيال ، فكر ناقد ، شخصية . . .) ، فليست القدرة الفنية بالنسبة للقائد (العسكري والمدني) سوى ميزة ثانوية ، تقل اهميتها بتزايد منصبه . وهذا ما ذكره بوضوح هنري فايول في « الادارة الصناعية والعامة » . ان المعلومات الفنية لعامل ما أقل امتداداً من معلومات مدير المصنع ، ولكن معلومات العامل تسيطر على مجمل نشاطه ، بينما يبذل المدير معظم جهده في أمور ادارية وحسابية ومالية وتجارية ، بالاضافة الى قضايا الأمن . فاذا طبقنا ذلك على الحياة العسكرية وجدنا التباين ذاته بين الجندي والقائد .

وهناك واقع جديد يدعو إلى ضرورة التعاون الوثيق بين المقاتل وصانع الأسلحة ، وتداخل التكنيك والتكتيك ، وهذا الواقع هو امكانية وقوع المفاجأة الفنية

---

(١) الميكانيكا التموجيّة Mecanique ondulatoire ، هي توسع لنظرية الكوانتا او الكوانتوم ، والتي تؤكد ان كل قدرة مشعة لها كالمادة تكوين غير مستمر على شكل حبيبات متحركة ، وهي قاعدة الفيزياء الحديثة . وتعتبر هذه الميكانيكا ان كل جزيئة متحركة مرتبطة بموجة تحسب عناصرها بأساليب حساب عناصر الموجات الضوئية .

الحاسمة الناجمة عن استخدام عتاد حربي جديد ، تلك الأمكانية التي بُعثت في عصرنا من جديد . لقد كانت هذه المفاجأة ممكنة في الماضي عند اصطدام شعبين من حضارتين مختلفتين (الحروب البدائية ، الحروب الاستعمارية) ، ثم غدت أكثر صعوبة وسط حضارة بطيئة التقدم ضعيفة الانتاج . ومع أن الدول استطاعت في خلال هذه الفترة المحافظة على سرية بعض التحسينات ، فإن عملها بقي محدود التأثير . ولم تكن الاكتشافات الكبيرة الدافعة لخلق امكانات جديدة قادرة على الاختفاء طويلاً ، كما أنها لم تكن قادرة على إنشاء احتكارات وطنية تدوم مدة طويلة تجعلها مؤثرة ، ذلك لأنها اكتشافات يؤثر بعضها على البعض الآخر بشكل متبادل ، ولأن الابداع الفني وصناعة المعدات الجديدة كانا بحاجة لمدد طويلة . ولكن تزايد سرعة التقدم المادي ، وتطور القدرات الصناعية ، أديا بسرعة إلى الايحاء بفكرة بعث المفاجأة الفنية . وفي الحرب العالمية الأولى جرت محاولتان في هذا الاتجاه ، عندما قام الألمان باستخدام الغاز ، وعندما استخدم الحلفاء الدبابات . ووصلت كلتا المحاولتين إلى نجاح جزئي ، وأثرتا على النتيجة النهائية ، وسببتا ظهور معدات جديدة ، ولكنهما لم تتمكنا من تحقيق الحل الحاسم . ويرجع ذلك إلى عدة أسباب : لقد كانت صناعة البلاد معبأة ، وكانت جميع المواد الأولية المتوافرة مُستخدمة ، وكان الحصول على كمية كبيرة من الأسلحة الجديدة ، التي تقدم آمالاً كبيرة ولكنها غير أكيدة ، بحاجة للتضحية بصناعات معروفة وفاعليات أكيدة . ولذا وجدت السلطات المسؤولة صعوبة في اتخاذ قرار مشابه . ولم تكن المفاجأة تامة ، لأن عملية الاستخدام التكتيكي للسلاح الجديد بالتعاون مع الأسلحة القديمة ، كانت تدفع القياد تين الألمانية والانكليزية إلى القيام بتجارب جزئية تنذر الخصم ، علماً بأن المفاجأة الفنية لا تكون حاسمة إلا إذا تمت في مدة قصيرة نسبياً . ويلعب قانون الصراع في هذا المجال دوره : « **ان لكل فعل رد فعل معاكس يحاول مساواته بالقوة ليلغيه** ، وكل عتاد حربي جديد يؤدي إلى حركات تليها ردود فعل ، فالعتاد في الحقيقة ترياق نفسه[1] . وفي خلال الحرب العالمية الثانية ، استخدمت المفاجأة الفنية من جديد . ولم تكن النتيجة حاسمة تماماً ، ولكنها كانت كبيرة ، وفتحت أمام المستقبل أفقاً أوسع وأوضح . ومنذ أيلول ١٩٤٠ ، نجح الانكليز في تحقيق مفاجأة فنية ، ذات صفة دفاعية محدودة النتائج ، بفضل « الرادار » الذي سمح لطيرانهم رغم ضعف عدده بصد الهجوم الألماني الجوي على جزيرتهم . وفي ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ وضع الألمان آمالهم في

---

(١) أدى ظهور المدفع الى استخدام معاكس البطاريات ، والدبابة افضل سلاح مضاد للدبابات ، والطائرة أفضل سلاح للدفاع الجوي . . . الخ .

أسلحتهم السرية (المبنية على الدفع النفاث) ، ولكن الأحداث سبقتهم ، ولم تستطع صناعتهم ، المنهارة تحت ضربات الطيران الأنلكو- اميركي ، إعطاء المفاجأة الفنية المحققة آنذاك (الصواريخ ف ١ ، ف ٢ ، القنابل الصاروخية المضادة للطائرات ، المطاردات النفاثة) الفرصة الكافية للوصول إلى الحل الحاسم . ثم استخدم الأميركيون القنبلة الذرية ، وحققوا مفاجأة فنية رائعة ، ولكننا لا نستطيع الجزم بأنها كانت حاسمة ، لأن اليابانيين كانوا قد قرروا الاستسلام قبل انفجاري هيروشيما وناغازاكي .

ومهما يكن من أمر ، فإن علينا أن نعترف بأن تسارع التقدم الفني ، ونمو القدرات الصناعية (الذي يستمر خلال الصراع) جعلا من الممكن تحقيق المفاجأة الفنية الواسعة الرامية إلى تحقيق نتائج حاسمة . تلك المفاجأة التي تعتبر الآن مناورة الشعوب القوية . وتشكل مخططات البحث المنهجية منذ الآن جزءاً من الاستعدادات الدفاعية الوطنية ، وتشرف عليها أجهزة جماعية صناعية على مستوى الدولة ، مزودة بوسائل قوية ، وتعمل بالارتباط المباشر مع القيادة العسكرية في جو من السرية الكبيرة . وقد لا تشترك هذه المخططات بشكل واسع في فتح آفاق جديدة للعلم المجرّد (فالفرضية المثمرة تضيء العقل الواعي عندما تشاء) ، ولكنها ستقلل ولا شك المدد الضرورية للافادة من أي اكتشاف يصلح للحرب ، وتطبيقه تطبيقاً عملياً ، في وقت تبسّط فيه التعبئة الصناعية الحاذقة عملية الانتاج الواسع وتزيد من سرعتها . إن اعداد المفاجأة الفنية دائم ومستمر ، وسيكون خطر وقوعها في الحرب المقبلة كامناً على الدوام ، فهل سيحقق الانسان يوماً مفاجأة قوية عامة تكفي لاخضاع الخصم قبل أن يلعب قانون رد الفعل دوره ، ذلك القانون الذي عرقل بسرعة حتى الآن تأثيرات كل سلاح جديد ؟ ان هذا أمر قليل الاحتمال في مجالات الابحاث التي يتنافس فيها المتخاصمون اليوم . ولكن علينا أن ننتظر مفاجأة تؤدي الى فقدان التوازن ، وتسمح بالوصول الى نتائج هامة ، وتؤدي بالتعاون مع الوسائل الأخرى الى نتيجة حاسمة .

إن صنع الأسلحة وتكديسها عمل حربي مسبق ، وهو يأخذ من الصراع معظم صفاته ، نظراً لتعلقه بالسياسة ، وسعيه لتأمين السرية وتحقيق المفاجأة ، وادارته للوسائط ، واخطاره ، واضطراره لاتخاذ القرارات وسط جو من الشك . ولا يمكن للقائد العسكري ان يلعب دوره في عملية الاعداد والانشاء ، إلا إذا اعتمد على صفات وقوانين يتطلبها العمل الحربي . فهل يمكن بعد ذلك ان نستغرب ، اذا رأينا ان العمل الحربي يخضع لنفس قواعد واشكال العمل الأخرى التي لا يختلف عنها إلا بكونه ذروةً ، وموجزاً عنيفاً ؟ .

الفصل الثامن

التنظيم

« التنظيم : إنشاء أجهزة
تهب بعملها الحياة » .
(لاروس)

I - الأسلحة والقطعات الكبرى

عندما نريد دراسة موضوع التنظيم ، يظهر أمامنا تعبيران هما : السلاح (بمعناه المفهوم عندما نتحدث عن المشاة والمدفعية . . الخ) ، والقطعات الكبرى . ومن الضروري تعريفهما بشكل دقيق ، قبل البدء بأي تحليل عميق للموضوع . إنني عندما حاولت القيام بهذا التعريف لأول مرة ، لاحظت باستغراب كبير عدم توصلي بسرعة الى وضع التعبير الأول في صيغة بسيطة كاملة مناسبة ، رغم اعتقادي آنذاك بأنني أعرف ما هو السلاح .

فهرعت الى منقذ الجاهل ، وفتحت « اللاروس الكبير » ووجدت فيه هذا التعبير : « الأسلحة هي الأقسام الرئيسية في جيش ما » .

ولم يكن ذلك صحيحاً ! فكل عسكري يعرف ان الأقسام الرئيسية في جيش من الجيوش هي القطعات الكبرى (فرقة ، فيلق) ، المشكلّة من وحدات أصغر ، تدخل في تركيبها عناصر تابعة لمختلف صنوف الاسلحة .

ومع هذا فقد كان اكتشافي مفيداً ، ودفعني هذا التعريف الخاطىء الى السير على الطريق الذي يسمح لي بمعرفة حقيقة تعبيرين متكاملين هما : السلاح ، والقطعات الكبرى .

تستند كل محاكمة متعلقة بقضايا الجيش الى قاعدة رئيسية هي المعركة ، فالمعركة هي الهدف الأساسي للتنظيم العسكري . وتعمل جميع المعدات في المعركة بأشكال مختلفة ، تتناسب مع صفاتها وأساليبها الخاصة من أجل تحقيق هدف مشترك ، لذا

توضع مختلف صنوف الوسائل الحربية ـ اعتباراً من نسق معين ـ تحت قيادة قائد واحد . وتضم الفرقة والأنساق الأعلى وما نسميه القطعات الكبرى مجموعة مختلفة من الوسائط ، موضوعة تحت قيادة رئيس واحد ، لتحقيق هدف مشترك[1] . وتكون أشكال وحركية هذه الوسائط متباينة ، (مدافع ، طائرات ، عربات مدرعة ، أسلحة خفيفة) ، وهي تستخدم تكتيكات قتالية متعددة الأشكال . . . ولكن القتال لا يستمر بلا توقف ، وعلى القطعات في مراحل توقفه ان تعيش وتسير وتتدرب على استخدام وسائل الصراع ، ويتطلب هذا توحيداً نسبياً اعتباراً من نسق معين ، لذا فإن القطعات الأصغر من الفرقة[2] تتصف بتجانس أكبر من تجانس القطعات الكبرى ، وما هي في الحقيقة سوى وحدات أسلحة واحدة ، (وحدات مشاة ، مدفعية ، خيالة ، مدرعات . . . الخ) فالسلاح إذاً هو مجموعة من وحدات تستخدم اعتدة ووسائل قتالية واحدة ، ولها بالتالي متطلبات ووسائل تدريب متشابهة ، وكادرات قادرة على الانتقال والتبادل في داخلها ، وتجمع هذه الوحدات تحت اسم واحد لإدارتها (ولا أقول لقيادتها) ، لأن إدارة مجموعة متجانسة اسهل من ادارة مجموعة مختلطة .

إن السلاح هو هذا ولا شيء غير ذلك .

وأنا أعرف ان البعض يعارضون هذا الرأي ، ويقولون ان وحدة المهمة تحدد السلاح . ولكن هذا غير صحيح ، ففي منتصف القرن الثامن عشر ؛ كانت الخيالة تحوي :

ـ خيالة ثقيلة : (فرسان يرتدون الدروع ، وفرسان يحملون البنادق) ، مخصصة لخرق تشكيلات المشاة المربعة المعادية في خلال المعركة .

ـ خيالة خفيفة : (فرسان ، وفرسان مطاردة) ، تعمل في المعركة لتأمين حيطة الجيش أو لمطاردة العدو المنهزم .

---

(١) تدخل بعض الجيوش مختلف صنوف الأسلحة في قطعات اصغر من الفرقة ، مثل مجموعة اللواء ، التي يدخل في تشكيلها المشاة والمدفعية والمدرعات والمهندسين . . الخ ، بشكل تصبح معه هذه المجموعة وحدة قتال ومناورة ، قادرة على العمل منفردة او داخل مجموعة ألوية . ويتعلق الاختيار بين تنظيم الفرقة (وما ينجم عنه من استخدام المجموعات التكتيكية) ، وتنظيم اللواء (الذي يعمل بأسلحته العضوية) ، بعوامل مختلفة من بلد الى آخر ، نظراً لتعلقها بقضايا ادارية واقتصادية وتدريبية وبشرية ، كما تتعلق بعوامل جغرافية نابعة من طبيعة الأرض وتضاريسها ومدى سماحها بفتح القطعات الكبرى وزجها في المعركة .

(المعربان)

(٢) أو الأصغر من اللواء في بعض الجيوش (المعربان).

ـ الخيالة الراجلة : وكانت عبارة عن مشاة محمولة (وتتطور مع الزمن نحو الخيالة) .

فهل كان هناك وحدة مهمة ؟ ومع هذا كانت الخيالة في ذلك العصر سلاحاً لا يشك باستقلاله . لأن الحصان ، وهو وسيلة عملها الرئيسية ، كان يفرض عليها متطلبات ، وأساليب قتال ، وشكل تدريب خاصاً بها .

كلا ! ليست وحدة المهمة صفة أساسية لتحديد السلاح ، فكل مهمة قتالية ذات اتساع معين تتطلب تعاون عدة اسلحة مختلفة . إن وحدة المهمة،على العكس،صفة من صفات القطعة الكبرى ، وهي مجموعة وحدات من مختلف صنوف الأسلحة ، تحقق في داخل القطعة توازناً معيناً ، يسمح لها بأن تأخذ على عاتقها تنفيذ المهمات في جزء من مسرح العمليات أو حقل المعركة .

II ـ تخصص الوحدات ووسائط الدعم

يعلمنا التاريخ العسكري ، ان السلاح يلعب دوراً أساسياً في مشكلات التنظيم عند الشعوب المتحضّرة ، . على حين تؤثر العناصر الأخرى (العِرق ، طبيعة مسرح العمليات ، الحالة الاجتماعية . . . الخ) بشكل ثانوي . واذا قارنا وحدة من وحدات جنود المستعمرات مع وحدة ميكانيكية وجدنا تشكيلاتها متشابهة ، ولا تحتوي إلا اختلافاً بسيطاً في الجزئيات . وفي الحرب العالمية الثانية ، كانت سرية المشاة الألمانية رغم آريتها (!) مشابهة للسرية السوفياتية أو السرايا البريطانية المختلطة من كل الأجناس ، ذلك لأن هذه الوحدات الثلاث كانت تخدم سلاحاً واحداً . ولهذا وضعت فصل التنظيم مباشرة بعد فصل التسليح .

لقد غدا تسليح القطعات الحديثة أمراً باهظ التكاليف . وتزيد تكاليف تسليح فرقة فرنسية في العام ١٩٣٩ بما يعادل ٨ ـ ٩ مرات (بسعر الذهب) عن تكاليف تسليح فرقة من فرق ١٩١٤ . ونعني بالتسليح هنا مفهومه المحدد جداً ، والمتعلق بالأسلحة فحسب ، دون اعتبار التجهيزات والأعتدة وأكداس الذخائر التي تضاعفت بلا شك مع زيادة وتيرة الرمي وغزارته . وإذا أردنا أن تكون مقارنة المصروفات أقرب الى الصواب ، وجب علينا أن ندخل في الحساب وحدات الاحتياط العام ، التي لم تكن في العام ١٩١٤ موجودة بكثرة ، ثم غدت في العام ١٩٣٩ متعددة ومزودة بعتاد ثمين . ولكي نأخذ فكرة عن التكاليف ، يكفي أن نقول ان تسليح فرقة مشاة اميركية ، كان

يكلف في العام ١٩٤٥ مبلغ ١٠ ملايين دولار ، وان تكاليف تسليح فرقة مدرعة بلغت ٣٠ مليوناً .

وليس هنالك دولة تملك من الثروة والقوة الصناعية ، ما يجعلها قادرة على ان تكدس ، منذ زمن السلم ، عتاداً حديثاً لكل رجال شعبها الصالحين للتعبئة ، وادامة هذا العتاد ، والمحافظة عليه في مستوى التقدم الفني المتطور باستمرار . ولقد استنتج البعض قبيل الحرب العالمية الثانية فكرة اقتراب بعث الجيوش المحترفة من جديد . ورسموا شكل وحدات المحترفين القادرين على استخلاص أكبر مردود من معدات تتسم بالتطور الكبير ، وقلة العدد . وكان حكمهم سريعاً وناقصاً ، فاذا دفعنا التحليل أبعد من ذلك ، وجدنا ان تطور التسليح وتحسّنه يؤدي الى غلائه وتعقيده وازدياد تخصصه . ويقول نابليون : « تهاجم الموقع بمدفع وتدافع عنه ببندقية » ، وهذا المبدأ مطبق اليوم مع ازدياد تعارض المهمتين بشكل واضح ، إذ انه لم يعد تعارضاً بين سلاحين فحسب ، بل بين مجموعتين من الأسلحة ايضاً .

ان الأسلحة الرئيسية في الهجوم هي المدافع (بعد أن أُدخلت فيها الهاونات للرمي المنحني) ، والدبابات ، والطائرات المنقضة ، وقاذفات القنابل .

أما في الدفاع ، فالأسلحة الرئيسية هي الأسلحة الرشاشة ، ومجموعة الوسائط المضادة للدبابات ، والمدافع المضادة للطائرات ، والطائرات المطاردة الاعتراضية .

ولقد زاد التناقض بين متطلبات الدفاع والهجوم ، وتحتاج القطعة في الدفاع أسلحة رشاشة ، ووسائط مضادة للدبابات ، ومدافع مضادة للطائرات ، كما تستخدم في الهجوم مدافع ودبابات وطائرات . فاذا أردنا تزويدها بجميع ما يلزمها للهجوم والدفاع ، تشكلت قطعات ضخمة تصعب قيادتها . وللخروج من ذلك حلان :

١ ـ خلق قطعات مختصة بالهجوم أو بالدفاع .

٢ ـ تزويد القطعات في ملاكها الاساسي بوسائط عضوية صالحة للاستخدام في كل الظروف ، ودعمها بعد ذلك بوسائط إضافية ، بشكل يتلاءم مع مهمتها الآنية ، وهذا ما يسمى نظام وسائط الدعم (وهي عناصر يقدمها الاحتياط العام مؤقتاً الى القطعات الكبرى ، أو تقدمها القطعة الكبرى للوحدات الصغرى التابعة لها) .

ولا يمكننا هنا أن نختار بين الحلين ، فالعمل الصحيح لا ينسجم مع التدابير

الحدية وحيدة الاتجاه ، ولكل حل من الحلين محاسنه ومساوئه ، ومهمات المنظِّم الرئيسية هي موازنة المحاسن والمساوىء ، وتركيبها ، وتعديلها حسب الأسلحة ، وفي مختلف طبقات البناء العسكري

III ـ الكم والكيف (العدد والنوعية)

لا يتعارض هذان العاملان تعارضاً مطلقاً كما يحاول اقناعنا بعض المجادلين البسطاء ، ولقد اظهرت لنا المانيا أن من الممكن تحقيق الحل الحاسم بجيش من نوعية عالية ، مع عدد كافٍ ، لتحقيق المهمات الثانوية طويلة الأمد . وهنا يقول المتعنتون من أجل تبسيط الأمور : إذن فلنشكل جيش صدمة حسن التدريب وحديث العتاد ، وجيشاً من الميليشيا . . . . ولكن الأمر أعقد من ذلك ! ففي القطعات الهجومية المختصة ، التي تستخدم افضل الأسلحة وأكثرها دقة ، مكان لعدد كبير من الاختصاصيين المحترفين ، ولكن فيها ولا شك مكاناً أكبر للمجندين الاحتياطيين ، الذين يقومون بأعمال اضافية ، أو يشكلون عناصر جاهزة لسد الفراغ الناجم عن خسائر الحرب .

ويعرف معظم العسكريين سمات الوسائط المادية الحربية الحديثة ، ومقدارها وتعددها وتعقيدها وازدياد فاعليتها ، ولكن قلة قليلة فقط تعرف السلسلة المزدوجة للنتائج المتعاكسة الناجمة عن ذلك . صحيح ان إبداع وتنفيذ واستخدام عتاد فني حديث ، للوصول الى هدف معين ، أمر معقد يزداد مع الزمن تعقيداً وصعوبة ، ولكن خدمة المعدات توزعت وغدت أكثر بساطة ، فلخدمة الرشاش يتجمع أربعة أو خمسة رجال ، ويأخذ كل واحد منهم دوراً أكثر بساطة من الانقضاضات في العصور السابقة . ولكن على النقيب قائد سرية الرشاشات ، ان يلم بمجموعة من المعلومات الفنية تفوق معلومات نقيب المشاة في القرن الثامن عشر ، ويتدخل الاختصاصي (ميكانيكي الرشاشات) عندما يصاب السلاح بعطل خطير ، ويؤدي استخدام المعدات الآلية في الحرب كما في العمل الى نتائج كبيرة ، كانت تتطلب في الماضي مجموعة متشابكة من العمليات المجهدة . ويمكن في أيامنا هذه القيام بأعمال شاقة صعبة من خلف مقود آلة . . لقد اختفى الحِرفي في الحرب والمصنع ، وحلت محله مجموعة مختلطة من العمال غير الفنيين ، والعمال الاختصاصيين ، والأخصائيين ، والمراقبين ، والمهندسين . وتبسطت أعمال كتلة العمال غير الفنيين والعمال الاختصاصيين ، بينما تزايدت (بنسب متفاوتة) صعوبات اعمال الصفوة المختارة .

ويعتبر تشكيل القطعات من الموهوبين والفنيين تبذيراً لا مبرر له . وعلى العكس ، ان أبسط كتيبة من كتائب المهندسين العاملة في تحكيم وحفر الأرض تحتاج حداً أدنى من الصلابة والتماسك والمزايا . وليس علينا هنا ان نختار بين حلين أساسيين ، فالأمر لا يتطلب جعل الجيش في زمن السلم جيشاً من المخترفين ، كما لا يتطلب تذويبه في كتلة الاحتياطيين الكبيرة . ان الحل الأمثل هو الذي يحقق تأمين التوازان بشكل معقول .

يحصل القائد بعد ممارسة عمله كمنظِّم على عدد كبير من المعارف تفيده عندما يصبح مُستخدِماً ، لأنه سيستخدم بشكل أفضل حتماً الأداة (القطعات) التي يعرف سير حركتها بعمق ، لأنه ركّبها وفكّها ، وأعاد تركيبها . وسيعرف كيف لا يعتمد في تقديراته على الموازين الحسابية البحتة ، التي نجمع بواسطتها أشياء لا تحمل الطبيعة نفسها ، ونقارن أموراً لا تقبل المقارنة . كما سيعرف ان مثل هذه التقديرات الكمية العامة لا تأخذ معناها الصحيح وقيمتها الأكيدة ، إذا لم يُدخل فيها بكل مهارة وزن القيم الكيفية . . . لقد قال نابليون وفكر ان العدد أهم شيء في الحرب ، ولكنه ضمّن كلامه ما يجعلنا نفكر بتعبير عزيز عند علماء الرياضيات هو : « جميع الأشياء المتساوية طبعاً » ، وذلك عندما اكتفي بالمقارنة بين سرية خيالة من القوزاق وسرية خيالة ثقيلة من لابسي الدروع ، وبين كتيبة نمساوية واخرى انكليزية ، وبين فرقة من فرق معركة يينا الرائعة وفرقة مرتجلة من فرق عام ١٨١٤ .

VI - هرم القيادة ونِسبه

« هرم القيادة » ، إن الصورة قديمة جداً ومستخدمة لدرجة البلى ، . ويقدم لنا علماء الآثار المصرية المحدثون صورة اكثر صحة هي « المصطبة » ، وهي هرم بدائي مؤلف من طبقات تصغر بأستمرار ، راسمة سلماً عملاقاً »[١] . ولكن بناء القيادة كهرم أوكمصطبة بحاجة لمعرفة العلاقة الكمية المتناقصة بين الطبقات المتتالية . لقد قال نابليون يوماً « إنني لا أستطيع قيادة أكثر من خمسة مرؤ وسين مباشرين بآن واحد » . ومنذ ذلك الحين سار الناس على هدى كلام سيد الحرب ، وأصبح من المعروف ان عدد الوحدات الصغرى في كل نسق قيادة لا يتجاوز الأربعة ، (عندما خالف البعض هذه القاعدة ، لم تكن النتائج ، على ما أعتقد ، مشجعة) . إن هذا هو الحد الاقصى فما هو إذن الحد الأدنى ؟ يمكن للقائد الذي يستخدم وحدتين أن يعمل بطريقتين .

(١) مثل أهرامات سقارة .

ـ يمكنه ان يستخدمها جنباً الى جنب بآن واحد . فيجرد نفسه بذلك من السلاح ، لأنه يغدوبدون احتياط . علماً بأن جميع القطعات المشتبكة قطعات مستنفَذَة ، والقوات الاحتياطية هي وسيلة العمل الرئيسية لكل قائد .

ـ يمكنه ان يضعهما متتاليتين بغية زجّهما بصورة متعاقبة . ولكنه يقود في هذه الحالة ، وخلال أكبر اجزاء المعركة ، جبهة خاضعة لسلطة أحد مرؤوسيه ، فيؤدي ذلك الى تضارب السلطات ، وهذا أمر غير مرغوب فيه .

وتؤكد التجربة، ان النظام الثنائي يدفع القائد غالباً الى تشكيل مجموعات تكتيكية مؤقتة ، بغية الحصول على احتياط يتصرف به .ولتشكيل هذه المجموعات رغم أهميته وضرورته مساوىء عدة ، منها توتر الروابط العضوية الداخلية في القطعة ، وتشابكها ، مع ان هذه الروابط هي أهم عوامل الصلابة والتلاحم في المعركة . إن على التكتيكي ألا يهمل أسلوب إنشاء المجموعات ، ولكن على المنظِّم أن يوازن الوحدات، بشكل يجعل لجوء التكتيكي الى هذا الأسلوب نادراً .

والعدد ثلاثة ، هو أول عدد يضمن المناورة ، ويعطي القائد حقل عمل يطبق فيه سلطته ، دون ان تتطابق على سلطة مرؤوسيه . ولكن أي التشكيلتين أفضل ، الثلاثية أم الرباعية ؟ اننا لا نستطيع هنا القيام باختيار حاسم ، وعلى المنظِّم أن يزن المحاسن والمساوىء لكل حالة خاصة ، فإن كان في القطعة أربع وحدات (التشكيلة الرباعية) زادت قدرة صمودها تحت النار ، وارتفعت قدرة ومدة صدمتها الهجومية ، واصبح لها في الدفاع عمق كبير . وإذا كان فيها ثلاث وحدات (التشكيلة الثلاثية) غدت أخف حركة ، وأقدر على القيام بعملية سريعة وحيدة . ويتطلب الاختيار النهائي معرفة عميقة لحقائق الحرب ، وهو عمل من صميم مهمات القائد .

* * *

ان تحقيق التوازن الضروري بين تعبيري السلاح والقطعات الكبرى ، وبين سياستي التخصص والدعم ، وبين الكم والكيف ، وانشاء هرم القيادة بناء على نسب معقولة ، هي المشكلات الكبرى المطروحة امام المنظِّم العسكري . وليس من الضروري إجراء تبديل في المصطلحات المذكورة سابقاً ، حتى يجد كل منظم (عسكري أو مدني) مجال وشكل اختصاصاته .

واذكر بالمناسبة ، ان هنري فايول جاءنا مرة الى مدرسة الحرب ليلقي المحاضرة الأولى حول التنظيم الصناعي والعام . وعندما بدأ كلامه ، لاحظ أن المستمعين الهادئين الصامتين يتبادلون الإشارات ، والغمزات ، وعلى شفاههم ابتسامات

شاحبة . وما ان انتهت المحاضرة حتى كشفت له بعض الأحاديث الخاصة مع الضباط سر هذا الأمر ، وهو أننا رأينا في التعابير الغريبة التي استخدمها قواعد نعرفها ونستخدمها بصورة دائمة . وفي المحاضرة التالية أعلن فايول أنه فقد الأمل بأن يجد ما يقوله لنا أو يضيفه لمعلوماتنا ، ولكنه يعتقد أن وقته لم يذهب سدى ، ذلك لأنه اظهر لنا من زاوية جديدة ، وفي وسط مجهول بالنسبة إلينا ، افكاراً عادية لا نجهلها ، معطياً لهذه الأفكار شباباً جديداً ، وتأثيراً أكبر ، وأبعاداً أوسع .

ولقد نجح في ذلك بشكل باهر ، وأظهر لنا الدور العظيم للتنظيم في النشاط الخلّاق ، وجعلنا نشعر بأن أهمية التنظيم لا تقل عن ذلك في مجالنا ، مجال الصراع . . . فالتنظيم ، كلمة تعني الترتيب والتجهيز بنظام معين ، بغية العمل في المستقبل . فإذا عرفنا ان العمل المطلوب في المستقبل هو الحرب ، أي العمل المعرض بطبيعته لأفظع فوضى دموية ، استطعنا تقدير الأهمية الكبيرة للتنظيم . ويتطلب تنظيم القطعات اعداداً للمعركة ، تخيل هذه المعركة ، وتوقع أشكالها وأجوائها ، وتحديد فاعلية الأسلحة ، والقدرة البدنية على المقاومة ، وقوة النفس أمام الموت . ويعني هذا استخدام جميع درجات المعلومات العسكرية ، والقيام بدور القائد ، ولعل في هذا العمل احسن إعداد لدور القائد الحربي في المعركة . وهكذا تسيطر ضرورات المعركة بشكل كبير على قضايا التنظيم ، انها تطرحها وتحدد حلولها ، أما الاعتبارات الأخرى كالمتاعب الإدارية فلا تؤثر في ضرورات المعركة على المستوى نفسه ، ولكنها تقوم مع ذلك بتعديل التدابير التي تفرضها.

وهنا يجب ان نعترف أن دور القائد التنظيمي في العمليات يتزايد في الأنساق العليا . لقد كان جوفر في معركة المارن استراتيجياً كبيراً ، كما كان في زمن ثبات الجبهة منظماً رائعاً . وإذا كان فوش القائد الأعلى لجيوش الحلفاء استراتيجياً لا يبارى في انتصار ١٩١٨ ، فإن بيتان بطل الفردان ، والقائد الأعلى للجيوش الفرنسية في الشمال والشمال الشرقي ، منظم كبير بقدر ما هو تكتيكي واستراتيجي . وفي خلال الحرب العالمية الثانية قام الجنرال « جورج مارشال » رئيس أركان الولايات المتحدة الأميركية وأركان الحلفاء المشتركة ، بنشاط تنظيمي واستراتيجي ، كما فعل ايزنهاور ، القائد العام لقوات الانزال الحليفة ، عندما أعد عملية أوفر لورد (الانزال في النورماندي) خلال سنتين ، ثم نفذها بكل مهارة . فلنقرأ تقارير عمليات هؤلاء جميعاً .

الفصل التاسع

إعداد الذكاء للعمل الحربي

« اعرف لتتوقع ثم تعمل »
(اوغوست كونت)

لا يمكن تعلم العمل ، وخصوصاً العمل الحربي ، إلا بالتجربة ، ومن المؤكد أن التجربة الشخصية هنا بحاجة لأن تكون دقيقة واضحة موجّهة ومدقّقة ومكملة من قبل ذكاء متفتح ، تدعمه شخصية قوية .

يتضمن إعداد الذكاء للعمل الحربي ما يلي :

* التعليم
* التدريب
* التربية .

والتعليم أمر ضروري ، لأن الاشتراك في المعركة بشكل مجدٍ يتطلب الحصول على مجموعة معلومات خاصة ، أي على (علم عسكري) وتفكير اعتاد على معالجة الأفكار ودراستها .

ولا يقل **التدريب** اهمية عن سابقة (الحرب فن بسيط والتنفيذ هو كل شيء) . إن الحرب فن ، لذا فهي تتطلب تدريباً . (وهل نتعلم في دروس القواعد كيف ننظم مقطعاً من ملحمة الالياذة أو تراجيدية من أعمال كورني Corneille)[1] . ولا يكفي أن يعرف المرء جيداً أسلوب رسم المناظر حتى يغدو رساماً ماهراً . لأن المبادىء الرئيسية والقواعد الفنية لا تقدم لنا سوى (المحاور التي تساعد على رسم المنحنيات)[2] ، ولا يمكن الحصول على المهارة الفنية إلا بالتدريب [3] .

(١) يعود النجاح الكبير الذي حققته كلية الحرب في برلين ، والمدرسة العليا في باريس ، قبل العام ١٩١٤ ، إلى أنهما كانتا تحققان في خيرة طلابها توازن التفكير مع الشخصية ، وتلاؤم الانضباط مع الفكر الناقد .

(٢) نابليون .

(٣) قال فيجيس وهو يتحدث عن الفن العسكري « التمارين العملية أمُّ كل الفنون » .

والتربية هي استخدام العادات الشائعة في وسط معين ، والتصرف ضمن إطار معين ، أي انها التعود على الاحساسات الاجتماعية التي تسمح للفرد بتحقيق توازن بعض درجات الحرية الخاصة مع مستلزمات الحياة بصورة عامة . وهي تتمثل فضلاً عن ذلك في العمل الجماعي ، وعليها أن تهتم قبل كل شيء بإعداد أشخاص قادرين على إخضاع انفعالاتهم وأهوائهم وتناقضاتهم الفكرية أمام العقل والصالح العام . فهل هناك تربية أهم من التربية العسكرية ، ما دام كل عمل حربي جماعياً بالضرورة ؟ .

I ـ التعليم

يشمل التعليم عادة نوعين من المواد ، وللنوع الأول فائدة ، لأنه يعطي التلميذ معلومات ضرورية لتنفيذ النشاط الذي قرر ممارسته ، على حين يعطي الثاني معلومات بناءة ذات فائدة غير مباشرة ، لا تأخذ قيمتها مما تعطيه بل مما تدفع إلى التفكير فيه . . . والنوع الأول هام في التعليم الابتدائي والاختصاصي أو العالي ، بينما يلعب الثاني دوراً كبيراً في التعليم الاعدادي الذي كان يعرف تحت اسم « الانسانيات » .

والتعارض شديد بين النوعين في التعليم العسكري ، لأن المعلومات المفيدة متبدلة متحولة غالباً ، ولقد قال نابليون : « يتبدل التكتيك كل عشر سنين » . ثم زادت التطورات الفنية السريعة المتعاقبة منذ ١٥٠ عاماً أبعاد هذه الفكرة ، وغدت جملة المارشال بيتان المشهورة : « فن الحرب هو أكثر الفنون حركة » صحيحة أكثر من أي وقت مضى . وبالأضافة إلى ذلك ، فإن الجيش لا يستعد للحرب بصورة عامة ، بل يُعد لحرب معينة ، أو لصراع أو مجموعة صراعات محتملة ، ذات طبيعة أو أشكال تحددها مجموعة عوامل كالتاريخ والجغرافيا والاقتصاد ، لأن الجيش يسد ثقوب السياسة ويتحمل مشاكلها . ومن الطبيعي أن يقوم العسكري المحترف ، مهما صغرت رتبته ، باعداد نفسه للحرب في وقت يستعد فيه جيشه . وهنا تظهر بوضوح ضرورة تمرين واعداد ذكائه بتدابير مناسبة ، تجعل هذا العسكري قادراً على تحقيق أي تلاؤم ضروري[1] .

وإني لأذكر دراسة تكتيكية أجريناها بعد الالتحاق بكلية سان سير العسكرية بثلاثة أسابيع ، وكان موضوع الدراسة عمل لواء مختلف مؤلف من فوجي مشاة وسرية خيالة ووحدة مدفعية . ولم تكن هذه التعابير بالنسبة إلينا سوى كلمات مبهمة لا تنطبق

---

(١) لذا فإن أية مؤسسة تعليمية عسكرية عالية ، هي بالضرورة ، مؤسسة بحثية الى حد ما .

على أي شيء حقيقي ملموس . ولم يكن للدراسة التي قمنا بها أي فائدة عملية ، سوى العمل البنائي لذاتنا . لقد كانت جهداً ضائعاً كلعبة لا تعتمد على ذكاء ، أو كحديث استراتيجي أجوف على مقاعد المقاهي . ثم جاءت احداث ١٩١٤ بعد عدة شهور ، فلم تلبث ان أبطلت كل ما تعلمناه آنذاك عن الكتيبة والفرقة ، رغم ضآلته ، وحتى لو أننا لم نعش في عصر شاهد حربين عالميتين ، قلبتا جل المفاهيم التكتيكية ، لوجدنا انفسنا بعد عشرين سنة من تخرجنا نحمل رتب الضباط القادة ، ونقف أمام مفاهيم جديدة كل الجدّة ، ولكان الأمر أدهى بعد ثلاثين سنة ونحن على عتبة قيادة قطعات كبرى . وكان كل هذا ناجماً عن خطأ في أسلوب تعليمنا العسكري ، الذي يبالغ ويتوسع بلا مبرر في هذا الفرع من العلوم العسكرية .

ولعل أفضل طريقة للتعليم هي العودة إلى الأنظمة السالفة التي تقول : إن على القائد أن يكون أهلاً لقيادة وحدة معادلة لرتبته ، واستلام وحدة أعلى من رتبته في الميدان . وحبذا لو أعطتنا الكليات العسكرية قادة فصائل قادرين على خوض المعارك على رأس سرايا . وحبذا لو أهّلت دورات الضباط القادة رجالاً يتقنون قيادة الكتائب ، ويستطيعون عند اللزوم قيادة أفواج (ثلاثة كتائب) أو مجموعات تكتيكية تضم بعض المدرعات والمدفعية . وحبذا لو اهتممنا بعد ذلك باصطفاء وصقل قادة فرق المستقبل بعناية ! وحبذا لو لجأنا إلى العقل ، وأهّلنا ضباطنا في بداية كل مرحلة جديدة من مراحل حياتهم العسكرية تأهيلاً يلائم تلك المرحلة فقط ، علماً بأن توجيه دراسة هذه الكادرات توجيهاً يوسع آفاق التفكير، يجعل الدراسة تعطي-رغم بساطتها-تأثيراً بنّاءً كبيراً . ان مناورة الوحدات الصغرى مشابهة لمناورة الوحدات الكبيرة ، ولا تختلف عنها بطبيعتها « وموضوع الانساق أمر لا وجود له » . ويمكن أن تظهر اكبر مبادىء فن الحرب في قيادة سرية او كتيبة ، مثل ظهورها في قيادة فرقة أو جيش ، ولكن تطبيقها على تشكيلات يقودها الضباط ويرونها كل يوم يعطيها شكلاً أكثر وضوحاً . « أما هذا الجزء السامي من الفن ، والذي يتطلب معرفة القلب البشري ، ويتحرك باستمرار حركات سريعة غامضة »[1] ، فهو جزء لا يمكن تعلمه بل يمكن اسيتحاؤه ، ويجد مكانه عند دراسة الوحدات الكبرى ، ولكن دراسة الوحدات الصغرى افضل في هذا الصدد .

ومهما كان برنامج المعلومات العسكرية متواضعاً ، فإنه يتطلب أن ننمي لدى قائد المستقبل القدرة على التعبير كتابة وكلاماً . فالقيادة لا تتطلب تحليل الاوضاع واستنتاج

---

(١) مارمون .

القرارات فحسب ، بل تقتضي اعلام المرؤوسين عن التدابير الناجمة عن هذه القرارات ، وعلى من يملك السلطة أن يكون قادراً على الكتابة بسرعة ووضوح[١] ، والتحدث بطلاقة أمام الآخرين ، لأن عمله يتطلب منه ذلك ، كما يتطلب منه أن يتصرف كمعلّم ومدرب وقائد . وهو لن يعرف التعبير بدقة وإيجاز ووضوح كقائد ، إلا اذا اتقن جيداً بعض التعابير المحددة بدقة ، واعتاد على شرح وضع او قرار حسب مخطط منهجي ملائم . ومن النقاط الأساسية في اعداد قادة المستقبل ، استخدام جميع الفرص لتعليمهم اساليب صياغة اجابات واضحة دقيقة ، وتقديم دراسة منهجية ، واعداد الأوامر حسب مخطط موحد يعرفه الجميع ، لأن وحدة الشكل والأسلوب سبيل إلى تقوية وحدة العقيدة العسكرية ، اللازمة لكل عمل متماسك تقوم به وحدة جماعية[٢] .

إن تلقين العلوم العسكرية عملية تعطي تعليماً خاصاً ، يهدف الى اتقان تطبيق فن معين ، لذا ينبغي ألا يبدأ بمحاضرات تلقى على المستمعين فيفهمونها بسطحية وتدغدغ الكسل الفكري عند معظمهم . ومن الأفضل وضع التلميذ وجهاً لوجه منذ البداية مع حالات واقعية . لأنه سيحاول حلها بأفكاره الخاصة ، وينظر اليها من كل الزوايا ليكتشف صعوبتها ، ويضع بكل جهد حلولاً ذات قيمة محدودة ، ولكنها كبيرة الفائدة ، نظراً لأنها مدفوعة إلى توقع قاعدة سليمة[٣] . « ان على الرجال المدعوين لقيادة القطعات أن يستعدوا لمعالجة حالات متعددة متزايدة باستمرار ، أمام أفق يزداد اتساعاً . واللجوء إلى الدراسة لتطوير مقدرتهم على التحليل والتركيب ـ أي قدرتهم على الاستنتاج بشكل موضوعي تماماً أمام حالة ملموسة ، يعطيهم إمكانية اتخاذ قرار سليم صحيح ، ويؤمن لهم بالاضافة الى ذلك القناعة الكافية لنقل القرار إلى حيز العمل »[٤] . وعندما يصبح التلامذة قادرين على هذا النوع من الاستدلال لاستنباط الحالات الخاصة ، ينهي الأستاذ ويصحح ويرتب أمام أنظارهم استنتاجاتهم الجزئية ، ليعطيها بعد ذلك شكل عقيدة ، دون أن ينسى تقديم التبريرات اللازمة ، والتأكيد على ملاءمة هذه التبريرات للموقف،وشروط اللحظة وعدم ثباتها، نظراً لأن الموقف نفسه

---

(١) لقد اعتبر برانتوم ان القلم « يساعد كثيراً على اعداد القائد » .

(٢) خصوصاً و « ان ملكة الإنشاء عبارة عن مقياس من اصح المقاييس لتحديد ملكة التركيب » وبالتالي استخدام المعلومات للعمل والابداع (الدوس هوكسلي)

(٣) « ان اول قاعدة من قواعد التدريب ، عدم تبسيط التمارين ، حتى يكون الهدف منها معالجة الصعوبات والتغلب عليها » (رينان) وهذه قاعدة ينساها كثير من المعلمين المحدثين .

(٤) فوش « مبادىء الحرب » مقدمة عام ١٩١٨ .

متبدل . وهكذا يقوم الأستاذ بتعليم الحقيقة الحاضرة ، مع إعداد أذهان قادرة على التلاؤم مع حقائق المستقبل .

وإلى جانب المواد العسكرية البحتة ، هنالك مواد أخرى لها أهميتها وفائدتها العملية ، ولكن قيمتها البنائية أكبر من ذلك ، لأنها توسع حقل المدارك ، وتخلق المحاكمة ، وتنمي صفة كشف العلاقات بين الأمور . وانني أعتقد أن هذه المواد لم تحظَ بالاهتمام الكافي، رغم أهميتها، فكان تدريسها بسيطاً بدائياً . ان تعليماً عاماً متزناً عالي المستوى ضروري لتزويد الجيش بعقول نيرة مؤهلة ، تتذوق عادة العمل الفكري ، وتملك قاعدة من المعلومات كافية للقيام بأعمال المستقبل ، بالاضافة إلى مرونة تسمح بالتلاؤم مع ما يفرضه الزمن والأحداث »[1]

في الماضي ما كان أحد ليستغرب لو انني اعتبرت التاريخ أول المواد البنّاءة . أما اليوم فإن مكانة هذه المادة في التدريس العسكري أقل شأواً . وانني لأعترف بعجزي عن فهم كيف تعيق معرفة الماضي ذوي الذكاء العادي عن توقع المستقبل ، مع أن هذا المستقبل ناجم عن الماضي . اما الحمقى فلا فائدة من حمايتهم باخفاء التاريخ عنهم ، لأنهم سيجدون في الحاضر روتيناً كافياً ويبدو لي ان نكران التاريخ عمل خاطىء كنكران التقدم والتطور . واخشى ان يكون بعض قادتنا العسكريين الحاليين قد اندفعوا وراء الكتابات المتناقضة التي تدعو إلى ذلك . أما أنا ، فإنني من مؤيدي اردان دوبيك القائل : « تستطيع دراسة الماضي وحدها إعطاءنا شعوراً بما يمكن تنفيذه » ، وأرى صحة اعتراف نابليون ، الذي قاله أمام مونتولون قبل موته بثمانية عشر يوماً : « أود أن يقرأ ابني التاريخ ويفكر به ملياً ، فهو الفلسفة الوحيدة. وأن يقرأ حروب القادة الكبار ويمعن فيها الفكر ، فهذه أفضل وسيلة لتعلم الحرب » .

وللتاريخ فضيلة لا تقارن ، هي قدرته على تنمية حس ومعرفة الممكن ، والتسلسل الزمني الذي تخضع له الأحداث الكبرى . ولكن حقله واسع ولا يمكن اكتشافه او استخدامه كله ، وعلينا أن نختار بعض الأجزاء التي تقدم لنا أكبر فائدة ، على ألا ننسى ان التاريخ لا يشكل مجرد مجموعة معلومات ، ولكنه قاعدة وأسلوب .

---

١) ان على الأمة المسلحة التي تشمل كافة الطبقات الاجتماعية ان تشترك في تقديم الضباط . ولكن الضباط العاملين هم قادة ضباط الاحتياط ، الذين يضمون بين صفوفهم نخبة المثقفين في البلاد . لذا فإن على معظم الضباط العاملين ان يتمتعوا بثقافة عالية تتناسب وثقافة مرؤوسيهم . وليس في هذا الطلب شيء من المبالغة أو المثالية ، وما هو إلا أمر حيوي لازم ان علينا عند اختيار الضباط العاملين أن نضع نصب أعيننا هدفين هما : إعداد الملازمين عاجلاً ، وخلق الجنرالات آجلاً .

ولكم أود أن يستخدم قادة المستقبل الطريقة التاريخية كأداة عمل لدراستهم الشخصية المقبلة[1] ، وكتمرين عملي لنشاط فكري قريب سيبذله في لحظة من لحظات العمل . ان موقف القائد ، عندما يحلل قبل الاستنتاج مجموعة معطيات ناقصة وغير أكيدة ، مشابه لوضع المؤرخ الذي يكرس جهوده للقيام بنقد داخلي وخارجي للمصادر ، محاولاً استخدام علامات جزئية ، ليعيد تشكيل وضع اختفى وأسباب عفى عليها الزمن . وانني أعتقد بأنه ليس هنالك كالتاريخ طريقة أخرى للدراسة ، قادرة على إعطاء دروس صحيحة ، تتمتع بالطهارة الفكرية لعقول انحرفت عن الطريق بتأكيدات لا تزال فجّة أو مغرضة ، في عصر الدعايات والتعصب ، حيث تسيطر الأفكار العنيفة على الأفكار الحقيقية .

أما دراسة بعض المعارك المختارة من مختلف العصور ، فإنني أرى أن تدخل في الزمن وترتبط به ، بواسطة نظرة عامة للتاريخ العسكري ، تكون صورة عن التطور والأساليب التكتيكية المتعاقبة . يقول اوغوست كونت : « إن معرفة علم ما تتطلب معرفة أصوله » ، ولا شيء يعد المرء لتخيل المستقبل مثل نظرة واسعة نحو الماضي . ان تخيل الماضي مشابه لتخيل المستقبل ، ولكنه يمتاز بخضوعه للضوابط . وعلى العسكريين إن شاؤوا تخيل المستقبل ان يضعوا كثيراً من الماضي في ذاكرتهم .

قبل العام ١٩١٤ ، كانت المدارس العسكرية تدرس الحروب التي نشبت قبل الثورة الفرنسية . وفي الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، وبعد رد فعل قصير ، يعود الفضل فيه للجنرال دوبيني ، الذي ادخل في المناهج بعض معارك القرنين السابع عشر ، والثامن عشر ، اكتفت المدارس بتلقين المعارك النابليونية . أما الآن فلقد ازداد الوضع سوءاً، ولم تعد الدراسة تهتم إلا بحرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ ، التي يستحق تاريخها كتابة جديدة بعد دراسة موضوعية جديدة . ان التعلق بجزء صغير من منحنى التطور التاريخي ، وبنقاط متقاربة جداً أو بنقطة واحدة ، يؤدي إلى جهل خط السير العام ، ورفع القواعد العرضية والوسائل المؤقتة إلى مستوى المبادىء ، وجعل التوسع بشكل صحيح أمراً متعذراً ، ومنع تخيل أشكال الحرب الجديدة بدقة ووضوح . ويؤدي هذا التعلق الى السير على طريق ينتهي بهاوية الخطر التي يدّعون أنهم احتموا منها . وهو

---

(١) « اعتقد ان قيام المرء بدراسات تاريخية مدة ٣٠ أو ٤٠ عاماً ، دون التشبع مسبقاً بأساليب العمل التاريخي ، لا يؤدي إلا إلى ان يطلب المرء من الوثائق إظهار آراء في هذا الأمر أو ذاك ، مبنية على معطيات أخرى » (الجنرال دو بيني . الحرب والرجال) .

يتعارض بشكل واضح مع الطريقة التي نادى بها نابليون ، عندما نصح بقراءة معارك القادة الكبار من الاسكندر الأكبر إلى فريدريك . والمهم في مثل هذه القراءة ، محاولة التوغل في دراسة نفسية قادة الماضي الكبار ، وفهم تصرفهم أمام الأحداث ، وتحديد مخططاتهم وأفعالهم ، دون الضياع في التفاصيل الدقيقة المتعددة لعملياتهم .

إنني لا أنكر هنا أهمية دراسة بعض الحروب والمعارك بدقة ، وفي أدق التفاصيل ، فهذه الدراسة ضرورية ولا شك،لخلق قاعدة بناء عقيدتنا الحربية ، وإظهار مجموعة الأسرار والوسائل المادية والمعنوية والفكرية التي تسبب الهزيمة أو النصر . واعتقد انه يمكن تتويج دراسة التاريخ باجراء دراسة أو إعداد عملي لموضوع تاريخي صغير . وباختصار ان تعلم التاريخ العسكري كما أراه يشتمل على : طريقة وإطار من الأمثلة ، وهو يهدف الى منح قائد المستقبل انضباطاً فكرياً سليماً ، واعطائه قاعدة ضرورية لأعماله النظرية المقبلة ، وتكملة خبرته الشخصية ، وتعليمه كيف يبحث في الماضي « عن دروس لا عن نماذج » (بيتان) .

لقد لاحظ القارىء عند دراسة الحالة الملموسة ، أنني اعطيت الأرض قيمة كبيرة (فهي الوحيدة التي لا تكذب) ، لذا فلا غرو إذا بذلتُ بعض الاهتمام بالجغرافيا . وهنا فإني احدد ايضاً طريقة واطاراً من الأمثلة ، دون أن أحاول بعث الجغرافيا العسكرية المملة المدرّسة قبل ٤٠ عاماً ، والمليئة بتسميات لا تنتهي للأنهار والذرى ، ولا شك في أن تطور علم الأرض والجغرافيا البشرية كما يراها جان برون Brunhes ، سيدفع يوماً إلى إنشاء جغرافيا عسكرية حقيقية . فما هي الجغرافيا البشرية يا ترى ؟ انها دراسة الظواهر الجغرافية من زاوية نظر مختلف نشاطات الانسان . والحرب رغم غرابتها وصفاتها الاستثنائية نشاط من نشاطاته الهامة بعيدة الأثر(١) . ويمكن تكملة هذه الجغرافيا العسكرية المجددة بطبوغرافيا معدّلة ، بعد بث الحياة في عملياتها الحسابية والهندسية ، بدراسات جغرافية وجيولوجية للخرائط ، تشبه دراسة الطلاب في الجامعات ، بشكل يأخذ معه شكل الأرض وبناؤ ها معناهما الحقيقي ، الغني بعدد ثمين لا يحصى من الاستنتاجات العسكرية . وهكذا تنتج لدينا طريقة دراسة تكتيكية لحقل المعركة، ودراسة استراتيجية لحقول العمليات ، تستخدم جميع أقسام معرفة الأرض كالجغرافيا الفيزيائية والطبيعية والسياسية والاقتصادية . . . الخ .

أن الأسلحة والوسائط المادية للقتال تلعب في الحروب المعاصرة دوراً كبيراً ،

---

(١) أفلم يتوقع غوستاف ادولف فكرة مشابهة عندما قال : « تُحتل المناطق بنفس المبادىء التي ادت الى سكناها في البداية » ؟

وهذا ما سيجعل الفكر العسكري يتيه في تعميمات غامضة مغرورة ، إذا لم يحقق احتكاكاً وثيقاً مع هذه الحقائق الفنية ولم يحافظ عليها . ان قائد المستقبل بحاجة لثقافة علمية قوية ، وعلى الجيوش أن تُخلص مدارسها من الدروس البدائية غير المجدية التي يدعونها (العلوم المطبقة على الحرب) ، وأن تُحل محلها دروساً تحافظ على ثقافة الطلاب العلمية المستقاة سابقاً ، وتجددها ، وتكملها ، وترفعها إلى المستوى اللازم في مجال الرياضيات والفيزياء والكيمياء ، مع البقاء في المستوى العلمي البحت ، على ألا يتدخل البحث عن الفائدة العملية من هذه العلوم إلا في تعيين حدود البرنامج وتقديم الأمثلة[1] . أما دروس التشريع ووظائف الأعضاء ، فعليها أن تستقي روحها من القواعد ذاتها .

ولا بأس من إضافة برنامج للدراسات الاجتماعية والسياسية على مخطط التعليم العسكري ، شريطة ان يقوم بعض العسكريين المؤهلين بدراسة هذه المواد من جديد ، وبصورة موضوعية تتعلق بمهنة حمل السلاح . والأمر هنا بحاجة الى تجديد كلي ، وانني أخشى أن تنحرف هذه البرامج في البداية نحو إيديولوجية مقنّعة بكلام منمق يدعي العلمية ، دون ان يكون في جوهره فائدة عملية أو قيمة بنّاءة . ولكن الحياد لا يتطلب أن يبقى هؤلاء القادة وسط جهل مطبق ببناء المجتمع ، وشروط العمل السياسي ، الذي عليهم إطاعته دون فهم .

إن في هذا البحث عن التعليم العسكري نقاطاً عديدة تحتاج الى تكملة وتشذيب ، مع تحديد مقادير ودرجات كل علم من العلوم داخل المناهج . ولكنني أعتقد مع ذلك بصحة قيمته الأساسية الكامنه في :

- معلومات مفيدة عملية ، مختصرة الى الحد الأدنى الضروري للدور الذي سيلعبه التلميذ في المستقبل فور تخرجه .

- معلومات عامة واسعة الآفاق .

- تعليم يسعى الى تنمية المحاكمة وقدرة الفكر على التركيز ، وليس على حشو العقول بالمعلومات[2] .

---

(١) قال باستور : « ليس هنالك علوم تطبيقية بل تطبيقات للعلوم » .

(٢) قال نابليون : « العبقرية هي فن تركيز التفكير مدة طويلة على موضوع معين » . ولاكتساب هذا الفن ، علينا أن نفكر طويلاً وبعمق في عدد صغير من الموضوعات ، بدلاً من أن نلامس بسطحية عدداً كبيراً منها .

وتعتمد هذه القيمة الأساسية على رأيين قديمين جداً هما :

- ان الأساليب التكتيكية متطورة باستمرار ، كما أن عدد الأوضاع الحربية غير محدود ، لذا يجب تعويد الطلبة على التفكير بدلاً من تعليمهم عقيدة جامدة أو وصفات مسبقة .

- على القائد أن يعتاد العمل الفكري ، وان يكتسب منذ البداية حب هذا العمل الضروري . فالحياة العسكرية تدعو إلى الكسل الفكري ، نظراً لأنها تكرر باستمرار نفس الأعمال والحركات مدة طويلة .

II - التدريــــب

مهنة حمل السلاح غريبة حقاً ، « إن ممارسة الحدادة تصنع الحداد » ، ولكن علينا أن نصنع حدادين دون ممارسة الحدادة ، وان نعد مقاتلين يتقنون فن الصراع قبل أن يشتركوا في أي قتال[1] . ان نشاطنا الحربي خطير لدرجة تجعلنا عاجزين عن تعلمه بالاندفاع فيه ، ونحن نتعلمه بتقسيمه كما يفعل الموسيقي الذي يركب النغمات والجمل الموسيقية قبل أن يبدأ عزف مقطوعة كاملة ، ونتدرب عليه في تمارين تنمي فينا المزايا اللازمة له ، تماماً كما يفعل الملاكم عندما يتمرن على القفز بالحبال ، ونحسّن معلوماتنا وتدريبنا بتمثيل الحقيقة كما يفعل جندي المظلات الذي يقفز من برج التدريب . اننا نتدرب على تلقيم الأسلحة والتسديد بها ، ثم نطلق النار في حقل الرمي ، ولكننا نستخدم على ارض المناورات ذخيرة خُلّبية ، تاركين للخيال تصور تأثيرات الرمي على سير المعركة . ان علينا خلال تمارين القتال أن ندعو الخيال باستمرار لتجميع الأجزاء المتفرقة ، وإجراء عملية نقل تشرح للمتدربين سر تصرفاتهم .

ويتم التدريب على القتال بتمارين غالباً ما تكون تحضيرية أو مزيفة ، ولكنها ناقصة دائماً ، لذا فإن الاهتمام بالتفصيلات والبحث عن الاتقان ضرورة حيوية هامة . ان معلم السباحة الذي يقسم الحركات على رمال الشاطىء ، يتطلب من تلميذه اتقاناً لا يطلبه عندما يلقي التلميذ في الماء ، لأنه يعرف أن ردود فعل الماء كفيلة باصلاح الأخطاء بشكل فعال .

من المعروف أن السرعة في الحرب عنصر رئيسي للمفاجأة ، وعلى العسكري أن

---

(١) هذا صحيح بصورة خاصة بالنسبة للقتال القريب ، ولكن أليس التدريس الاساسي لكل عسكري من أي سلاح هو تدريب الرماة الجوالة ؟ أليس التدريس الأساسي لكل ضابط هو قيادة فصيلة مشاة ؟ .

يبحث عنها بكل وسيلة . ولكن السرعة لا تتم مع الاتقان ، وهي تتعارض معه غالباً . ومهما كان نوع النشاط الذي نقوم به ، فإن علينا ان نؤمن الاتقان وتصحيح الاخطاء قبل أي شيء آخر . أما البحث عن السرعة فيتم بعد ذلك بصورة متدرجة .

ويتطلب الحصول على السرعة تكراراً مستمراً ، وللتكرار هنا ضرورة حيوية ، اذ يقع المقاتل في خلال الصراع تحت تأثير أعنف الانفعالات ، وعليه أن يقاوم الخوف والاضطراب الفكري الناجم عنه ، واحسن وسيلة لذلك تحديد عمله الفكري إلى اكبر حد ممكن ، بقلب كل الأمور التي تصادفه إلى ردود فعل ، وتطبيق الحركات الآلية بشكل واسع . ويظن البعض أن حقل عمل الحركات الآلية مقتصر على الانساق الدنيا ، وعلى أكثر الأمثال مادية في العمل . ولكنني أخالف هذا الرأي ، وأعتبر أن هنالك نوعاً من الآلية الفكرية . لقد خدمني الحظ خلال الحرب العالمية الثانية بأن قيض لي هيئة أركان ممتازة ، ذات قدرة نادرة على العمل . وكان من دواعي استغرابي واعجابي ان أرى رئيس أركاني يلتقط قراري في أصعب الظروف وأحلك الساعات ، ويوزع المهمات ، ويعد مخطط الأوامر ، فلا يلبث ضباط الأركان أن يبدأوا بالعمل ، ليقدموا اليّ بعد قليل أوراقاً واضحة كاملة ودقيقة ، وكأنها مجهزة في تمارين الكادرات خلال السلم . . . ولا شك أن آلية الحركات كانت تلعب دورها ، لأن ضابط الأركان الذي أتقن عمله ، لم يكن يبذل جهداً فكرياً كبيراً إلا لما يستحق الجهد ، أما بقية الأمور المتمثلة بالأعمال اليدوية : كتسلسل فقرات الأوامر ، وشكل الجداول أو المخططات ، وصياغة الجمل ، فكانت تتبادر إلى ذهنه بصورة تلقائية . وكان هذا ثمرة ردود فعل فكرية حقيقية تم اكتسابها منذ أمد بعيد .

ان التدريب العسكري هو المكمل الضروري للتعليم النظري ، انه يضع تحت الهيكل النظري جسماً حياً ، ويعيره مادة يعمل بها وعليها ، انه يقلب المعرفة إلى أتقان العمل .

III - التربيـــة

العنصر الأول للتربية العسكرية هو تطبيق انضباط حازم عادل مستمر ، اذ يتطور هذا التطبيق بعد مدة ليصبح في أول الأمر عادة ، ثم ينقلب إلى تذوق . ولكن يفقد هذا الانضباط قيمته ويغدو معيقاً مذلاً ، اذا كانت نتيجته تحطيم ارادة المرؤ وسين واذابة شخصيتهم ، لأننا لا نحارب مع نفوس ضعيفة أو مع عبيد أو آلات ، بل نقاتل مع رجال بكل ما في هذه الكلمة من معانٍ نبيلة . وكلما صعدنا في سلم التسلسل ،

تزايد ضرر وخطر الانضباط الرامي الى قتل كل فكرة مستقلة ، ودفن كل مبادهة .

ولا يمكن ان تجتمع كل هذه القيم السامية المتناقضة ظاهرياً ، إلا في جو من الاحترام المعنوي المتبادل . وقد ينجح القائد اذا كان قلبه قاسياً أو ذكاؤه محدوداً ، ولكنه لا يمكن ان يقود بنفس دنيئة .

ولا يتسلم القائد زمام السلطة إرضاء لمصلحته الشخصية أو تحقيقاً لمتطلباته ورغباته ، إنما يتسلمها لخدمة الدولة . وعليه أن يتصرف بالسلطة بتواضع الراهب الذي تؤهله ترقيته الدينية لممارسة الطقوس المقدسة ، وهنالك أحياناً مخالفات انضباطية عسكرية ، ولكن استخدام القائد للانضباط استخداماً سيئاً ، يعتبر مخالفة للنظام،أكبر من عدم اطاعة المرؤوسين وأشد خطراً .

يجب ان يتوخى كل أمر في شكله ومضمونه، احترام كرامة من يعطيه ومن يتلقاه. وكل قائد ينقل أو يعطي أمراً ، يعلم مسبقاً أن من المتعذر تنفيذه ، عبارة عن إنسان بائس . ويحط القائد من قدر نفسه عندما يطلب الكثير ليحصل على ما يكفي ، لأن ذلك دليل على عدم ثقته بسلطته ، أو رغبته في تغطية نفسه ، وهو يهين بذلك مرؤوسيه ، لأنهم ان لم يكونوا أهلاً لسماع الحقيقة تعذر عليهم ان يكونوا أهلاً للقيادة . ويحقر القائد مرؤوسيه عندما يتجاوز سلطاته ، أو يتجاهل القواعد لفرض هذه السلطات . ومن أهم أسس كرامة الانضباط العسكري عمومية هذا الانضباط ، وخضوعه للقوانين والانظمة . ولا يطيع الانسان في صفوف الجيش رجلاً ، ولكنه يطيع الواجب ، ونداء الخدمة ، وكل من يحاول اللعب بهذه القاعدة ، أو يختطف من السلطة أكثر مما يستحق ، رجل غير شريف ، وقائد سيء لا يمكن ان يطاع جيداً .

وما أن نرتفع عن المستوى المادي البحت ، حيث تسود الطاعة المباشرة السلبية « إلى الأمام . . . سر! » أو « إلى الوقوف . . . قف ! »، حتى يحق للمرؤوس تقديم الاعتراضات المعقولة لرئيسه ، وليس هذا حقاً فحسب ، ولكنه واجب ايضاً . وعلى القائد أن يستمع لهذه الاعتراضات محاولاً فهمها . ولكن ما أن يُؤخذ القرار ، ويصدر الأمر ، ويتصرف القائد آخذاً على عاتقه كل المسؤوليات ، حتى يصبح من واجب المرؤوس آنذاك ان ينفذ بنفس الاندفاع والاخلاص الفكري الأوامر كافة ، سواء كان موافقاً عليها أم معارضاً لها . وانني أعرف أن مثل هذا العمل تضحية كبيرة من العقل ، الذي يعتقد أنه يرى الحقيقة ثم يخضع للخطأ الآمر ، وهنا يلعب الواجب دوراً رئيسياً . ولا يسيء الانضباط المطبق بهذا الشكل للسلطة ، كما انه لا يخونها أو يعمل ضدها . إن ضرورات العمل

الجماعي تتطلب من المنفذ كل التضحيات . ومهما يقل الآخرون ، فإن الانضباط المطبق بهذا الشكل انضباط مشرف غير مخجل ، يزداد نبلاً مع التنفيذ بكرامة ، ويصبح بالنسبة إلى الجميع عامل تحسين معنوي .

ويتعذر ان يكون مثل هذا الانضباط قاعدة،إلا في مناخ تسوده ثقة كاملة ، وسط اخلاص معنوي وفكري متبادل بين المرؤ وسين والزملاء والرؤ ساء ، في جو نبتت فيه زمالة السلاح ، التي كنت أفضل تسميتها أخوة السلاح ، في وسط تسيطر فيه فكرة الواجب ، والشعور بتشكيل مجموعة متلاحمة تعمل لخدمة هدف نبيل واحد .

والحقيقة أنه لا يتم تعلم هذه الأمور بمحاضرات نظرية تلقى في المدرجات ، إنها امور طبيعية تندفع ذاتياً لتحقيق ضرورة حيوية جداً ، وهي تتلاءم مع الظروف الطبيعية لحياة الجندي ، لدرجة أنها تنمو وتتطور في أي مجتمع عسكري صحيح . وان كان هنالك نقاط ضعف من هذه الناحية في جيشنا ، فإنها ناجمة عن العدوى الخارجية وليس من الفساد الداخلي . فإن وضعت قوانين وانظمة تحد من الفردية التي يعتبرها البعض خطيئتنا الأولى ، تعيد الجيش إلى مكانه الصحيح في البناء الوطني ، يصبح من السهل خلق وتنمية الجيش بالانضباط الحازم المرن الكريم الذي يتلاءم مع طبيعتنا ، وتوسيع قاعدة هذه التربية العسكرية التي تحضّر النفوس بشكل خفي ، من أجل تقديم التضحيات الكبرى في الحرب .

* * *

إن اعداد الذكاء للعمل الحربي يتطلب :

- التعليم .
- التدريب .
- التربية .

ولقد ذكرت ذلك في بداية هذا الفصل . ولكنني أحس في نهاية الفصل ، ان هذا الثالوث يتحدد بشكل مباشر من العمل الفكري الذي يتطلبه العمل الحربي . ويتضمن :

- تعليم العقيدة والقواعد العامة للعلم العسكري .
- التدريب على الفن الذي يمكن بفضله تطبيق هذه القواعد على الحالات الخاصة .
- تربية الشخصية والإرادة الضروريتين للانتقال من التفكير الى القرار والعمل .

وإننا نلاحظ بدون جهد ، ان التطور الفني لوسائل القتال زاد من ضرورة هذا الاعداد

وصعوبته . ولتكون الآلة الحربية أداة نصر ، يجب ان تبقى خاضعة للعقل . وعلينا أكثر من أي وقت مضى أن نقدر بدقة امكاناتها الكبيرة الواسعة المتزايدة بلا انقطاع . وتزداد المعلومات المطلوبة مع الايام تخصصاً ، ويتضاعف عددها بلا انقطاع ، بشكل يصبح من الصعب معه تكوين صورة منظرها العام ، أو جمعها والسيطرة عليها ، او تحديد الرئيسي والثانوي منها . وعلى القائد للوصول الى كل هذا أن يسير بحذر بين خطرين : أولهما احتقار المعطيات المادية ، وثانيهما الميل الى المعلومات النظرية الموسوعية . وهو لا يحمي نفسه إلا بمعرفة واسعة ، وملاحظة دائمة وموضوعية للأفعال والأفكار ، بالأضافة الى فكر ناقد وخيال حي . إن الأفعال التي تقوم بها روح متحمسة مدفوعة بالإيمان ، والمهارة الناجمة عن الخبرة لا تكفي ، ومن الضروري وجود رأس جيد الاعداد حسن التفكير . ولا يعني إعداد الذكاء التوصل الى المعرفة الكاملة ، ولكنه تمرين التفكير وصقله . يقول بلوتارك : « ليس الفكر وعاء يملأ ، بل نار توقد » . ولا يتمرن الفكر إلا بدراسة المعارف وتمحيصها ، وهو لا يفعل ذلك إلا ليتأكد من قدرته ، ولا يستطيع الافادة من هذه القدرة إلا إذا كوّن لنفسه نظرة فلسفية للعمل . وعلى القائد الذي يفكر ويعمل بآن واحد ، أن يضع نفسه بحجمه الطبيعي ومكانه الصحيح وسط اللوحة العامة للأحداث ، كما عليه أن يكون قادراً على الصعود عالياً ليرى الأهداف البعيدة ، ويحدد اتجاهات السير ، ثم ينزل الى الأرض ليقود ويراقب التنفيذ .

إنني واثق من ان هذا البرنامج سيثير تردد الكثيرين . وسيتساءل المترددون أمام اتساعه وجرأته : هل يجب ان يكون القائد الحربي رجلاً لا كالرجال أو أحد أنصاف الآلهة الذين امتلأت بهم أحلام طفولتنا؟ كلا ، إن الذاكرة ، وقسطاً كافياً من حيوية الفكر ، وكثيراً من الحس السليم(1) ، وثقافة معقولة ، وقليلاً من الخيال والمهارة ، وصحة طيبة(2) ، وقدرة جبارة على العمل ، وشخصية قوية ، صفات كافية لخلق قائد مقبول ، وقد تخلق قائداً فذاً . بيد ان تطابق هذه الصفات المتواضعة أندر بكثير مما نظن(3) مع أن كثيراً منها يمكن الحصول عليه . وتكشف الفحوص المعلومات اكثر مما تكشف المؤهلات والصفات ،

---

(1) كتب لويس الرابع عشر لتعليم ابنه وولي عهده : « عمل الملوك هو دفع الحس السليم الى العمل » . أفلا يمكننا هنا استبدال تعبير عمل الملوك بتعبير عمل القائد ؟ .

(2) اريد أن يلتف حولي دائماً رجال مندفعون نشطون ؛ شبان من ذوي البشرة النضرة ، الذين ينامون في الليل » (شكسبير ، على لسان يوليوس قيصر) .

(3) في لحظة من لحظات التفكير ، كتب الجنرال إيتيين أبو الدبابات الفرنسية ، وأكبر أدمغة الجيش الفرنسي في فترة ١٩١٤ - ١٩١٨ ، ورئيسي الأسبق ما يلي : « التكتيك فن ، والتكتيك الكامل هو ذلك التكتيك القادر على أن يحرك في الانسان ثالوث صفاته الجسمية والفكرية والمعنوية » .

الدراسة الثانية

القِيَم المعَنوَيّة والحرب

« الرجال وليس الأحجار ، يصنعون سور المدينة »
(افلاطون)



تقديم

لقد شرعت في تقديم واجبات الاحترام الى ما كان يسميه اليونانيون « البولايا » (المستشارة) ، في دراسة وضعتها عن الحرب والذكاء ، في الأيام التالية لهزيمتنا في العام ١٩٤٠ ، وكان الإغريق يرمزون الى « المستشارة » بامرأة ترتدي خوذة وبيدها الرمح . وقد حاولت بذلك كشف وتحديد دور العوامل الفكرية في سير الأعمال الحربية واعدادها .

وكنت أعرف أنني سأتعرض للاتهام بعدم احترام الآلهة الأخرى التي تسيطر على ميادين القتال : الاله العنيف آريس ، والاله المجد هيفايستوس[1] . كما أنني معرض للاتهام بإهمال العوامل المعنوية والمادية في النصر ، وبنسيان جنون الأهواء والمشاعر ، وتجاهل طاقة العدد والأسلحة . ومنذ البدء ، كنت أدافع عن نفسي ، واعتذر عن ذلك بكل خشوع وتواضع . ولكن هل كان ذلك كافياً ؟ ولكن عندما نجرؤ على الكتابة عن الحرب ، عن هذه « المأساة المرعبة والملتهبة »[2] ، التي قال نابليون : « ان المعنويات والأهواء تمثل فيها أكثر من نصف الحقيقة » ، ألا يصبح من المغامرة دفع البعض الى التفكير بأن هذه المعارك الدموية محكومة فقط بالعمليات العقلية وبتوازنات القوى ، حتى لو كان ذلك قد حدث سهواً ؟ كلا ! ولذا شرعت اليوم بهذه الدراسة عن القيم المعنوية والحرب ، ولهذا سأمجد الآن آريس العنيف ، بعد أن مجّدت الحكيمة بالاس ، وسأقدم له قرباني الكبير ، إلا أنني لا أندم أبداً أن يكون قرباني هذا ثاني القرابين . إن علينا أن نحدد بصورة دقيقة ما ينبغي عمله قبل الشروع بهذا العمل بحماسة واندفاع : « فلنبدأ إذن بالتفكير جيداً ، لأن التفكير الجيد هو مبدأ الأخلاق » ، كما قال باسكال .. ففي العمل الحربي ، كما في كل مشروع آخر ، تملك الفكرة العامة أفضلية لا يمكن إنكارها ، ولكن يتعذر منحها الأولوية .. وقد كان الآثينيون يطلقون على بالاس اسم « بروماخوس » ، وهي امرأة تقاتل في النسق الأول .

---

(١) هيفايستوس Héphaistos إله النار والكور عند الاغريق . . . وهو ما يقابل الآله فولكان عند الرومان . (المعرِّب)

(٢) جوميني .

وهناك عدد لا يحصى من المؤلفات التي تبحث القوى المعنوية في الحرب ، وهي تستهدف بناء هذه القوى ، وتقدم وقائع كبيرة ، وتدافع عن جمال التضحية العسكرية ، وتحاول السمو بالنفوس . وإني أحب هذه الكتب التي تعشّقها شبابي ، وأؤ من بفضيلتها التربوية ، إلا أنني لا أنوي أبداً أن أضيف اليها كتاباً جديداً مثلها .

ولا تستهدف الصفحات التالية إثارة الحماسة ، بل تستهدف التوضيح والكشف وإظهار كل العناصر المعنوية للقتال ، من اسمى هذه العناصر الى أقلها نبلاً ، وإبراز عملياتها المتشابكة . إن هذا العمل صعب جداً ، لأن العسكريين بمن فيهم اكثر العسكريين قيمة ومكانة ، لا يحبون ابداً كشف « الزوايا المخجلة الموجودة في الظل » . فهم يتحلون عند حديثهم عن الخوف بحياء الصبية العذراء التي تتكلم عن الحب ، ويحبون الأمور المتعارف عليها ، والتي تدخل في حدود المخططات المعهودة ، كما يحبون الأشياء التقريبية السهلة ، ويأتي التبجح بالبطولات كعامل مساعد لهم في تشويش صورة الحقيقة الواضحة . وأنا أعرف جيداً أن سِير البطولات فعالة في غالب الأحيان . وإذا كان بحارة السفينة Le Vengeur ، لم يُغرقوا شيئاً في ١/٦/ ١٧٩٤ ، وهم يغنون (المارسيلييز) فإن بحارة السفينة الحربية Bouvet ، أغرقوا سفناً معادية في ١٩١٥/٣/١٨ ، وهم يعتقدون بأنهم يقلدونهم . وإني أعرف أن التعبير العنيف للواقع ، يستطيع في مجال الظواهر الخاضعة للاختيار الحر ، احداث انعاكاسات غير مرغوب فيها ، ومن الممكن توليد اليأس بفضح بعض نقاط الضعف والعجز واشهارها . لكن تحريف الوقائع والأحداث لا يفيد دائماً القادة الذين يحتاجون بأستمرار الى رؤ ية واضحة . وكما في بعض الأديان القديمة ، هناك حقيقة عقائدية دينية ضرورية للشعب ، ومعتقدات أولية تُفرض على المبتدئين .

ان الخوف يسيطر على ساحات المعارك ، ولا يمكننا أن نوجد شيئاً مرتباً ومنظماً بصورة عاقلة ، في أي جيش من الجيوش ، إذا لم نكن قادرين على تخيّل سلوك الرجال في القتال ، وتصور سلوك الانسان الحقيقي ، كما هو لا كما ينبغي أن يكون . وإلا فقدنا الشعور الواضح بما يمكن ان يُطلب من القطعة العسكرية ، ومن الأمة نفسها .

هذه هي المهمة التي باشرت بها . لذا فإن الصفحات التالية لا تهم أصحاب الأفكار المائعة ، أو النفوس المترددة . إنها صفحات لا صلة لها بالدعاية ، وسأكون سعيداً اذا تذوق القارىء فيها أحيانا المرارة المغذية لكبار المعلمين الأخلاقيين التقليديين عندنا . حقاً ! إني أعرف جيداً أنني أخاطر بالاصطدام مع حساسياتنا القومية ، ولكنني أعود إلى ما قاله أردان دوبيك ، وهو أكبر معلم من معلمي الأخلاق العسكرية : « ان

الحقيقة دائماً وطنية »[1] . فبالنسبة الى الشعوب والأفراد على حد سواء ، ليس هناك خلاص ممكن دون اعتراف كامل وندم مخلص .

وأنا أعرف جيداً ان الأنظمة والدراسات العسكرية لا تقصر ابداً في بحث القوى المعنوية ، ولكن هذه الأنظمة تعتبر الموضوع منتهياً ، بعد ان تكرس للقوى المعنوية بعض المقاطع البليغة ، وبعد أن تعتبرها الهة قوية وغامضة ،تكفي القرابين لإرضائها . ولكن من الأفضل أن نعرفها جيداً ، لأنه إذا كان الأسلوب الأدبي البنّاء والمضجر الذي نحيطها به ، لا يمثل أي خطر على الذين خاضوا الحرب ، هؤلاء الذين يعرفون رغم كل شيء ، الحقيقة القاسية المخيّبة للآمال . فإن الوضع ليس كذلك بالنسبة إلى الأجيال الصاعدة ، التي يُخشى ان تتأثر بصور برّاقة . وينبغي في بادىء الأمر أن ندرب هذه الأجيال ، ونطلعها على الحقيقة المرة الصحيحة ، مع مساعدة الآخرين على الرؤ ية الواضحة . وليس في هذا أي تدنيس ، فالعوامل المحركة للتضحية لا يمكن ان تكون وضيعة ، لأن التضحية ترفع من شأنـها ، فالنار تطهر وتنقي ، والمدنَّس هو الذي يحاول استخدام ستارة مستعارة لتغطية حقيقة معنوية جميلة في حد ذاتها ، ولا يمكن لهذا التزويق الا أن يسيء إليها ويفقدها جمالها .

إن القيادة العسكرية ترى ، في كل المسائل التي تعالجها ، القيم المعنوية المقدمة أمامها كمعطيات ذات أهمية أولى . وينبغي عليها أثناء المعركة ، أن تهتم بالاضافة الى ذلك برعايتها وإدارتها وتجديدها واحيائها . ان هذه القيم المعنوية هي كالقوى الأخرى ، تضمحل وتذوي وتذبل مع الزمن ومع بذل الجهد ، إلا أن القيادة لا تساهم إلا بصورة جزئية جداً في خلقها طيلة الفترة الزمنية القصيرة التي يقضيها معظم المواطنين تحت قيادتها[2] ، فالفضائل الحربية التي يظهرها رجل من الرجال في المعركة ، هي ثمرة حياة ، وعلى الأسرة والمدرسة ان تولد هذه الفضائل وتنميها . فالمشكلة تتجاوز إذن إطارها العسكري الظاهر ، إنها مشكلة السياسة القومية العليا ، التي يجب ان ينتبه اليها كل من يهتم ببناء المجتمع ، خاصة وأن الفضائل الحربية تعبير عن فضيلة الشهامة

---

(١) في العام ١٩٤٢ ، احسست خلال بحث قضية ريوم Riom، التي كانت تبحث مسؤ وليات هزيمتنا في العام ١٩٤٠، أن التعرض لموضوع القوى المعنوية يجعل الكذب شبه الزامي بالنسبة الى السياسيين الذين يريدون تملق الجماهير ، والى القادة العسكريين الذين يحجمون عن اتهام انفسهم رغم اعترافهم بانهيار قطعاتهم ، وبالنسبة الى بعض المواطنين الشرفاء المشبعين بالكبرياء الوطني اكثر من تشبعهم بالتاريخ الموضوعى. ورأيت في هذا القضية كيف سُترت الفضيحة عن الجميع.

(٢) أي طيلة فترة خدمة العلم . (المعربان)

والرجولة التي لا يمكن لشعب أن يتخلى عنها حتى في أيام السلم . وقد قال رينان : « ينبغي ان نعترف ، بأن الشعوب التي تملك الفضائل العسكرية القوية ، هي الشعوب التي تخلق الأمم الكبيرة » .

الفصل الأوّل

الصدارة الحربيّة للمعنويات

« الحرب هي مجال القوى المعنوية »
(فوش)

ليس هناك قائد كبير ، أو صاحب نظرية من نظريات الحرب ، لم يؤكد في يوم من الأيام ، ان كل شيء في الحرب معنوي ، ولقد قالها نابليون حرفياً وبالنص ، ولم يكن الأمير فريدريك شارل أمير بروسيا (١٨٢٨ ـ ١٨٨٥) يقصد التعبير عن شيء آخر ، عندما قال : « ليست الطرق التكتيكية هي التي تقرر ، وإنما الروح الحربية » . ولا تصيبنا الدهشة ايضاً ، اذا وجدنا أن المارشال دو ساكس ، قد فكر في الشيء نفسه ، عندما قال :« القلب الإنساني هو نقطة انطلاق كل شيء في الحرب » . ولكن ربما كان من المدهش حقاً، وبالتالي من المقنع بصورة أقوى، أن نكتشف تأكيد اهمية المعنويات من قبل ماكيافيلي ، ذلك المستشار الفلورنسي ، الذي يعتبر في نظر الكثيرين ، من اكبر الدعاة الى الكذب والمراوغة ، ومع انه كان صاحب نظرية من اكبر النظريات العسكرية في زمنه . فلقد قال ماكيافيلي : « ان عامة الناس يخدعون أنفسهم ، عندما يؤكدون أن الذهب هو عصب الحرب . فهل تغلب داريوس على الاسكندر؟ وهل اخضع اليونانيون الرومان ؟ ، وهل قهر الدوق شارل السويسريين . . ؟ كلا ! ! لقد برهن كل هؤلاء على ان الذهب ليس عصب الحرب ، وما عصب الحرب إلا قيمة الجندي »[1] .

بعد هذه الشهادة ، غير المنتظرة ، يبدو ان السبب مفهوم . حقاً ، إن الذكاء ينير المأساة التي تدور فوق ساحة المعارك ، إلا أن الغرائز والاهواء والمشاعر والمصالح هي التي تربطها وتحركها . وفن الحرب ، كالسياسة ، هو نتاج علم النفس والفلسفة بصورة خاصة . انه يتطلب بالضرورة معرفة عميقة ، واستخداماً خبيراً بالنفس البشرية . نعم ! تلعب القوى المعنوية في الحرب دوراً أولياً ، ولم يكن من الضروري أن نقف عند هذا التأكيد ، لولا أن معظم الرجال في أيامنا مصابون بانحراف عقلي ، ولولا أن

(١) ماكيافيلي ، مطارحات .

فكرهم الذي شوهته عادات الدعاية والمعارك السياسية ، وأسكرته الشعارات ، قد غدا ميالاً في أغلب الأحيان الى اختصار كل شيء في تأكيدات خالية من التنوع ، وفي اختيارات محسومة ؛ ولو لم يكن هذا الفكر المتصلب المطلق الوحيد الاتجاه ، يعتقد أن عليه أن ينكر نقطةمن النقاط لأنه يؤكد غيرها، وأن يترجم أولويةالمعنويات بسيادة المعنويات سيادة مطلقة ، مع إنكار قيمة العوامل الفكرية والمادية ، بالاضافة إلى الضياع وسط رومانطيقية عسكرية تؤمن بأن الديناميكية قوّة فعّالة إلى أبعد الحدود . . . ولكن هذه التطورات في موضوع الايمان الذي يرفع الجبال ، وهذه المقتطفعات من خطبة دانتون : « مزيداً من الاقدام ، والاقدام ايضاً . . . » . إن كل هذا ليس إلا أدباً ، وفصاحة ودعاية . فليس الهدف هنا هو خلق موجة من **الحماسة** ، بل **الفهم** . أفلم يقل نابليون ، وهو اكثر رجال الحرب اقداماً وجرأة : « يمكننا ان نبدأ كل شيء بالاقدام ، ولكن الاقدام لا يكفي لعمل كل شيء » .

ولكن يبدو أن علينا في بادىء الأمر اكتشاف الدور الخاص بالقيم الفكرية . ولقد قلت ذلك سابقاً ، عندما ذكرت أقوال باسكال ، إلا أنني سأكرر هذه النقطة دون كلل ، فمهما كانت القوة التيتعزوهاللقوى المعنوية ، إلا أنها لا تحدد وحدها اتجاه العمل وطرائقه ، فذلك تابع للذكاء . وقد قال شامفورت : « نحن لا نلعب الشطرنج بقلب طيب » . ولا يحاكم الناس الأشياء بقلبهم أو بأعصابهم ، وإنما يحاكمونها بعقولهم . وعندما يتخلى العقل عن الأعنة ، تستطيع أنبل الفضائل أن تصبح مجنونة ضارة ، فالقوى المعنوية هي محرك لا مقود للتوجيه ، وينبغي على العقل أن يستخدمها لا أن يتنازل أمامها ، وقد تكون هذه القوى في الغالب العوامل المحركة الفعالة الوحيدة للقطعة والمرؤوسين ، إلا أنها لا تستطيع أن تكون العوامل المحركة والفعالة الوحيدة للقائد الذي يقرر[1] . والخلاصة ! بالرغم من أولوية المعنويات ، فإن الصواب لم يجانب هوميروس عندما جعل بالاس تقول لآريس : « يا لك من مجنون ! ألا تحس كم تتفوق قوتي على قوتك ؟ » .

وليس من الحكمة أن نهمل أهمية القيم المادية بتعميم طائش عن أهمية القيم المعنوية . فليس هناك شيء عبثي كمقارنة العتاد والمعنويات ، كما يفعل الكثيرون ببيان وفصاحة . إن ذلك يعني نسيان حاجة القوى المعنوية إلى قاعدة مادية حتى تتجسم وتنتقل الى الواقع ، كما يعني ايضاً نسيان التأثير المتبادل المستمر بين العتاد

(١) « ينبغي ان يكون الفكر دائماً وزير القلب ، وألا يكون عبده أبداً » .

(أوغوست كونت)

والمعنويات . ان قطعة جيدة تستخلص أحسن النتائج من أسلحتها ، كما ان القطعة التي تحس بأنها مجهزة تجهيزاً قوياً ترى معنوياتها ترتفع من جراء ذلك . فليس هناك من تعارض بين المعنويات والعتاد ، كما لا يمكن ان يكون بينهما أي تناقض . وبينهما على العكس زواج ، لأننا لا نقاتل بالرجال ضد العتاد ، بل يتقاتل الخصمان المتصارعان ، بعتاد يخدمه الرجال .

ومع ذلك ، فإني أعترف بأن دور القيم المعنوية في العمل عظيم وواسع . وقد قال المارشال فوش : « ان المسافة كبيرة بين معرفة حقيقة من الحقائق ، وبين استخدام هذه الحقيقة » . وأتمم هذه الكلمة المأثورة ، موضحاً بدقة ما يلي : « حتى ولو كنا نملك الوسائل الضرورية لتطبيقها » . إلا أن القوى المعنوية ، هي القوى الوحيدة التي تسمح باجتياز هذه المسافة ، وهذا كافٍ لمنحها الأولوية في الحرب . لكن هذه الأولوية ليست مطلقة أو غير مشروطة ، ان لها حدودها وأشكالها . وسأبذل جهدي فيما يلي لتثبيت هذه الحدود ، وتوضيح تلك الأشكال .

تأتي حدود أولوية القوى المعنوية من أمرين مسلم بهما : فهي لا تستطيع تعويض تخلف كبير فكري أو مادي ، كما أنها غير قابلة للقياس . انها تحرّك وتدفع معطيات من طبيعة أخرى ، إلاّ أنها لا تحل محلها . فهي ليست قيماً من الممكن جمعها ، ولكنها اعداد مضروبة ، فإذا كانت الأرقام المضروب بها معدومة ، كان بوسعنا زيادة الأرقام المضروبة إلى ما لا نهاية ، لنحصل مع ذلك على صفر . وإذا كانت الأرقام المضروب بها صغيرة جداً ، فإن من غير المجدي أن يكون العدد المضروب كبيراً ، لأن نتيجة العملية تبقى ضعيفة . **فالقوى المعنوية رافعات لا تستطيع عمل أي شيء ، اذا لم تتح لها الوسائل المادية نقطة استناد في الزمان ، واذا لم يقترح الفكر عليها رفع حمولة من الحمولات ولم يعطها الدفع الملائم** . وبالاضافة إلى ذلك ، فإن القائد يعرف أن القوى المعنوية ، قوى لا يمكن قياسها ، كما أن من الصعب تقديرها بواسطة العقل ، لذا فهو لا يستطيع أن يتركها تتدخل في قراره إلا في اللحظة الأخيرة ، بعد أن يستنفد سلسلة الحجج المادية . والفكرية ، التي قد تكون أقل نبلاً من المعنويات ، إلا أن من حسناتها إمكانية قياسها أو اكتشافها بوضوح ؛ وتتيح عدداً مضروباً به محسوباً بصورة عقلانية ، يُطبّق عليه الحس الفني والعبقرية الحربية للقائد عدداً مضروباً معنوياً . وهكذا ندرك أن كل القادة الكبار ، بمن فيهم نابليون ، قد نصحوا بترك العمليات التي تستهدف تحقيق آثار معنوية فقط . فعندما نُعطي لعملية من العمليات هدفاً يتمثل بتحقيق نتيجة معنوية صرفة ، فإننا نحكم على انفسنا بشروط تنفيذ مادية ، من الممكن أن تكون ملائمة جداً . وقد

نحكم على أنفسنا خاصة في اتخاذ قرار استناداً لمعطيات يتعذر حساب أية واحدة منها ، وهذا يعني أننا نطلب من الالهام أكثر من طاقته ، حتى لو كان إلهاماً عبقرياً . ان الأثر المعنوي في الحرب لا يمكن ان يكون هدفاً ، انه نتيجة آثار مادية .

ورغم هذا التحديد ، تبقى أولوية المعنويات شيئاً مسلماً به ، حتى أن هذه الأولوية تبدو ساطعة وبارزة ، عندما نحاول توضيح وتحديد أشكالها وطرائقها .

إن المعرفة العميقة بالخصائص الفنية للأسلحة ، والتطبيق الرصين لانضباط الفكر العسكري ، لا يكفيان لاقامة قواعد عقيدة استراتيجية او تكتيكية ، كما أن كل هذه الأمور غير كافية لاعطاء أوامر العمليات . ففي كل وقت ، ينبغي بالاضافة إلى كل ما سبق ، أن ندخل في الحساب نفسية المقاتلين ، وألا نطلب من أعصابهم أكثر من طاقة تحملها . وقد قال أردان دوبيك هذا الكلام في عدة سطور واضحة وقوية : « إن القتال هو الهدف النهائي للجيوش ، والانسان هو الأداة الأولى للقتال ، فلا يمكن أن يكون هناك شيء منظم بصورة عاقلة في جيش من الجيوش . . . دون معرفة دقيقة بهذه الأداة الأولى ، معرفة بالرجل وبوضعه المعنوي ، في هذه اللحظة النهائية من القتال . ويحدث غالباً ان من يعالجون شؤون الحرب ، يتخذون من السلاح نقطة انطلاق ، فيفترضون دون تردد أن الرجل المدعو لاستخدام هذا السلاح سيستخدمه دوماً كما كان متوقعاً ، وطبقاً لما تأمر به قواعده وتعليماته . ولكن المقاتل الذي نعتبره انساناً عاقلاً ، يتخلى بهذا الشكل عن طبيعته المتحركة المتغيرة ، ليتحول إلى حجر من احجار الشطرنج لا يتألم ، ويقوم بوظيفة وحدة مجردة ضمن اطار تركيبات ساحة المعركة ، ان هذا المقاتل وليد تخيلات مكتبيّة ، ولا يمكن اعتباره ابداً رجل الحقيقة . ان رجل الحقيقة من لحم وعظم ، انه جسم وروح ، ومهما كانت روحه قوية ، فهي عاجزة عن إخضاع الجسم الى الحد الذي لا يثور فيه اللحم ، ولا يضطرب الفكر ، في مواجهة التدمير » .

وليس هناك مقاتل قديم واحد ، لا يستطيع أن يبرز هذه التأكيدات بعشرات الأمثلة . ففي العام ١٩١٨ مثلاً ، استخدم الالمان بندقية مضادة للدبابات علقوا عليها آمالاً كبرى مبنية على حسابات بالستيكية . وكان هذا السلاح يخرق درع دباباتنا المستخدمة آنذاك ، اذا جرى الرمي به ، على اقل من ٢٠٠ متر ، إلا أن تسليح هذه الدبابات كان يعمل بسرعة ودقة من مسافة ٤٠٠ متر ، فمنذ أن تفتح البندقية المضادة للدبابات نيرانها ، تصبح هذه البندقية تحت رحمة رد مباشر محكم . وكانت البندقية المضادة للدبابات أيضاً كبيرة الحكم ، كما كان الرجال الثلاثة الذين يحيطون بها يشكلون

كتلة مرئية إلى حد ما . وكان الخصم المدرع يتقدم بلا هوادة ، وغالبا ما كانت طلقة اولى في الهدف تجعله أكثر تصمياً . وكان هذا الخصم المدرع يبدو وكأنه لا يتأثر بالضربات ، بينما كان الرماة الالمان يشعرون بأن صدورهم عارية تماماً . وقد تبدت اللعبة لهم غير متكافئة ، فرفضوا القيام بها ، وتخلوا عن سلاحهم على ارض المعركة . وقد اعترف لودندورف بذلك قائلاً : « كانت الاسلحة المضادة للدبابات مستخدمة ، ولكننا نفتقر إلى الأعصاب لاستخدامها ». أفلم يطلب لودندورف من هذه الاعصاب اكثر مما ينبغي؟ يبدو لي من المؤكد أنه طلب منها الكثير، لأن الحرب العالمية الثانية، زودتنا بالاختبار ـ المعاكس : « لقد كان للأسلحة الأولى المضادة للدبابات ، من نموذج (بازوكا) مديات مجدية أقل من مديات البنادق المضادة للدبابات ، المستخدمة في الحرب العالمية الأولى ، إلا أن قذيفة واحدة من قذائفها في الهدف ، كانت تكفي لتدميره . وقد استُخدمت هذه الأسلحة المضادة للدبابات بفاعلية . ولكن ، لنأخذ مثلاً آخر: ان قطعة من المشاة مشتبكة تحت نيران البنادق ، لا تستطيع أن تفعل إلا ثلاثة اشياء : الفرار (وهو شيء خطر) ، أو التخندق ،أو التقدم بصورة مستقيمة إلى أمام، فكل تغيير في الاتجاه ممنوع عليها . لماذا ؟ ان العقل لا يستطيع الاجابة على هذا السؤال ، لأن جماعة قتال منتشرة على شكل خلية ، لا يعرضها الرمي الجانبي العام للخطر اكثر من الرمي الجبهي . وربما كان السبب انعكاساً جاءنا من ازمان بعيدة جداً ، حيث كانت الضربات الجانبية ضد الرجال ، (أو ضد رتل من الأرتال ، أو نسق من الأنساق) أكثر فاعلية من الضربات الجبهية . وأخيراً ، فإن مطلع الحرب العالمية الثانية يزودنا بمثال ثالث مخزٍ سوى أنه واسع البعد والمدى .

وفي العام ١٩٣٩ ، وبسبب الاضطرابات الداخلية ، وتأثير سياسة مسالمة طويلة ، وتخفيض مدة الخدمة العسكرية،كانت لدينا مشاة متوسطة القيمة . وكان الجنرال غاملان يعرف ذلك ويصرح به ، واستنتج من ذلك أن من واجبه تجنب معركة تصادمية في مطلع الحرب (ثم عمد اليها فيما بعد ، في مناورة « ديل ») . وفي المعارك الأولى في « هذه الحرب العجيبة » ، قبل ١٠/٥/١٩٤٠،أسر الالمان اكثر من ١٠٠٠ جندي من جنودنا ، بينما لم نأسر منهم سوى ١٥٠ ، وتأكد حكم غاملان المتشائم . وكان هذا الوضع مؤسفاً ، وخطراً ، ويعرضنا لخسارة عدد متزايد من القتلى . ولكن من الممكن ربح معارك وحروب بمشاة متوسطة ، لقد ربح نابليون كثيراً من المعارك في نهاية حكمه بمشاة مماثلة ، وكنا نحتاج مثله ، إلى مطابقة أهدافنا واستراتيجيتنا وتكتيكنا مع قيمة قطعاتنا ، وان نمتنع عن المناورات المعقدة ، وعن أوهام الهجوم الحاسم بصورة

مباشرة ، كما كنا نحتاج إلى تعويد الجيش على الحرب بواسطة أعمال جزئية ، وان نربح الوقت كي نسمح لعملية اعادة تسليحنا وتسليح الانكليز بالتطور ، ونترك المجال لبعض تحالفات القوى كي تظهر وتعلن عن نفسها . واني لا أعرف فيما لو أن مثل هذه الأمور كانت كافية لانتظار نصر محتمل ، إلا أني واثق من انه كان باستطاعتنا ان نقلل من سعة هزيمتنا .

ان الانسان قادر على مواجهة كمية معينة من الرعب ، وهو حساس بصورة خاصة ، لبعض اشكال الخطر ، بانعكاسات موروثة عن الأجداد ، أو انعكاسات حيوانية . وتتأثر مقاومة الانسان العصبية أيضاً بأسباب متعددة مختلفة ومتبدلة ، أفلا تكفي هذه الحقائق البسيطة لنستشف كل اتساع المشكلة النفسية التي يطرحها القتال ؟ ألم أبرز وجود عوامل مؤثرة تعمل في الفرد ؟ وإذا علمنا أن الجماعات هي التي تتصادم في الحرب ، وليس الأفراد ، فإن المشكلة تتسع وتتعقد بكل النتائج التي تجلبها معها السيكولوجيا الجماعية ، وقد ثبتها جوزف دوميستر[1] في كلمة عبقرية إذ قال : « في يوم من الايام ، كنت أوجه هذا السؤال إلى رجل عسكري من الصف الأول تعرفونه جميعاً : قل لي يا سيدي الجنرال ، ما هي المعركة الخاسرة ؟ فأجابني بعد لحظة من السكوت : لا أعرف عنهاشيئاً ». وبعد لحظة صمت أخرى أضاف قائلاً : « انها معركة نعتقد أننا خسرناها ، فلا شيء اكثر صواباً من ذلك » . فالرجل الذي يقاتل رجلاً آخر ، هو رجل مغلوب عندما يُقتل أو يسقط على الأرض ، بينما يبقى الرجل الغالب واقفاً . وليس الأمر هكذا بالنسبة إلى جيشين،فأحد الجيشين لا يمكن أن يُقتل بينما يبقى الجيش الآخر واقفاً على أقدامه . فالقوات تتوازن كما يتوازن القتلى من الطرفين ، ومنذ أن أحدث اختراع البارود مساواة أكبر في وسائل التدمير ، لم يعد من الممكن خسران أية معركة مادياً ، أي لا يمكن القول بأن جيشاً خسر المعركة لأنه تكبد عدداً من القتلى أكثر مما تكبده الطرف الآخر . وقد قال فريدريك الثاني ، الذي يتفق رأيه إلى حد ما مع هذا الرأي : **الانتصار هو التقدم** . ولكن من هو الذي يتقدم ؟ « ان الذي يتقدم هو الذي يجبر عزمه وقوته الآخر على التراجع . تذكر ، يا سيدي الكونت ، الرجل العسكري الشاب الذي تعرفه معرفة خاصة ، ذلك الشاب الذي كان يصور لك ، في يوم من الايام ، في احدى رسائله ، هذه اللحظة المجيدة التي يحس بها جيش بتحركه إلى أمام ، وكأنه يتزحلق على منحدر مائل ، دون أن يعرف لماذا . واني لأتذكر أنك تأثرت بهذه الجملة ، التي تعتبر في الواقع تعبيراً رائعاً عن اللحظة الحاسمة ، سوى ان هذه اللحظة

---

(١) « امسيات سان بطرسبورغ » .

تفلت من التفكير والتأمل . وانتبه بصورة خاصة إلى أن الموضوع لا علاقة له بالعدد في هذه المشكلة على الاطلاق . فهل قام الجندي الذي تزحلق إلى أمام بإحصاء القتلى ؟ » .

ان قيمة القيادة ، وعدد المقاتلين وتدريبهم ، وقوة الاسلحة ووفرتها ، لا تشكل كل شيء في الحرب ، وكل هذه الصفات لا تعد شيئاً إذا لم تبث القيم المعنوية فيها الروح . فالقتال صراع معنوي أساساً . والأسلحة لا حياة فيها إذا لم يستخدمها رجال من لحم ودم ، بقوتهم وضعفهم . ومهما كانت القوى المادية لطرف من الاطراف كبيرة ، فإنها لا تحقق أبداً التدمير الكامل للخصم . فبين من يبقون على قيد الحياة ، تقرر القوى المعنوية نجاح طرف من الاطراف . ولا يُغلب الطرف الذي تكبد خسائر أكبر في الرجال والعتاد ، وانما يُغلب من تحطمت معنوياته قبل الآخر . ان الانتصارات تربح بالباقين ، أو بتعبير أدق ، تربح الانتصارات بما تبقى لهؤلاء الرجال الباقين من شجاعة . وفي الحرب ، كما في كل معركة من المعارك ، لا تشكل القوى المعنوية كل شيء ، إلا أننا في النهاية نخسر ونقهر معنوياً . والشيء الأساسي أن يكون الجنود راغبين في القتال : « ليس هناك من تكتيك في جيش لا ضغط فيه ، وضغط جيش من الجيوش ، هو رغبته في القتال » (الجنرال إيتيين) .

الفصل الثاني

الخوف والشجاعة

« القلب الانساني هو نقطة
انطلاق كل شيء في الحرب »
(المارشال دوساكس)

« كان الاسبارطي المقدام يرهب الخوف . . . فلنصلّ لله بكل قوانا كي يبعد عنا وعن أصدقائنا الخوف الذي أخضعه ، هذا الخوف الذي يستطيع أن يدمر في لحظة واحدة أجمل التدابير العسكرية » (جوزيف دوميستر) . ان الخوف هو الآلهة الباردة المخيفة التي تهيمن فوق ساحات المعركة .. وتضاعف هذه الآلهة ، أمام عيني المقاتل ، هول الآثار المادية ، وتخفي في يدها ، وزناً مزوراً يستطيع تبديل ميزان القوى في كل لحظة . ويمسك الخوف بيده دوماً كاحتياط ، الحجة البيّنة التي تستطيع تدمير أكثر المحاكمات العقلية صواباً ورصانة . إنه الحدث النفسي الأساسي في المعركة ، وهو هام لدرجة لا يمكن التحدث فيها عن الشجاعة دون التعرض للخوف ، كما لا يمكن تحديد الشجاعة إلا بمقابلتها مع الخوف ، أو يكون الخوف متمماً لها : « فالجبن هو الخوف المسلّم به ، أما الشجاعة فهي الخوف المقهور » (لوغوفيه) .. فليس الرجل الشجاع هو ذلك الرجل الجسور الذي لا يخاف ، بل ذلك الذي يعمل كأنه غير خائف ..

والخوف شيء عام جداً ، حتى ان اكثر الأبطال الذين لا يُشك ببطولتهم لم يخشوا من الاعتراف بأنهم أحسوا به . فلنتذكر تورين وقوله : « أنت ترتعش أيها الجسد . . . . » ولنتذكر مقطعاً من خطبة « ني » Ney أشجع الشجعان : « كاذب ثلاث مرات ، من يتبجح بأنه لم يخف أبداً » . ومن الممكن ان يعرف البعض في الحالة الطبيعية الشجاعة الغريزية الموهوبة ، والاقدام الطبيعي . ويبدو ان أردان دوبيك ودوبراك قد قبلا بذلك ، إلا أن هذا النوع من الرجال نادر جداً[1] . فقد زودتهم العوامل الوراثية التي تلقوها من أسلافهم بميزة ثمينة ، إلا أنها ميزة استثنائية

(١) « من بين عدد كبير من الشجعان يوجد قلة من الشجعان المتسمين بالاقدام الطبيعي ؟ هذا صحيح ويا للأسف ! لقد كان جدعون محظوظاً ، لأنه وجد ثلاثمائة من بين ثلاثة آلاف » (أردان دوبيك) .

وشخصية ، لأني لاحظت في القتال بعض القادة الذين يبدون غير متأثرين بالخطر أبداً ، أويبدون وكأنهم يفتشون عن الموت ، ولاحظت ان هؤلاء ليس لهم على قطعاتهم ذلك التأثير المشع الذي كان من المفروض وجوده . لقد كان جنودهم يعجبون بهم، إلا أنهم لا يقلدونهم . فلكي يحاول الانسان تقليد شخص معين ، لا بد أن يكتشف في نفسه نوعاً من التشابه مع من يحاول تقليده ، وأن يحس بأنه مصنوع من العجينة نفسها . إذن فهذه الشجاعة الطبيعية قليلة الأهمية[1] ، ولا اعتقد ان رجلاً من الرجال قد تميز بها في حالتها الصرفة ، وأرى انها تشكل لكل فرد من الأفراد رأسمالاً ذا أهمية متبدلة طبقاً لما تعطيه الطبيعة ، واستناداً الى الولع باللعب والمخاطرة ، والى الغريزة القتالية ، هذه الغريزة القوية لدى الأولاد والمراهقين . أما الشجاعة المتزنة والمكتسبة ، فلها في نظري قيمة أخرى ، وليس ذلك لأنها تستحق احتراماً أكبر (وأنا هنا لا أضع نفسي في موضع الأخلاقي) ، بل لأنها تتعلق بالارادة ، ولأن من الممكن تنشئتها وتربيتها ، ونقلها ، ولأنها قابلة للكمال والعدوى . وبكلمة واحدة ، لأن من الممكن التأثير فيها[2] . . . إن هناك شجاعة مجدية لا يمكن نقلها الى الآخرين وهي تتمثل في الاستهانة بالحياة ، وهناك شجاعة خصبة قابلة للنقل ، وتتمثل في ازدراء الموت . .

وليس الخوف مرضاً أو ضياعاً . إنه التعبير الطبيعي عن غريزة المحافظة على البقاء ، تلك الغريزة الطبيعية في كل كائن حي . ويتضمن الخوف بالطبع انحرافات مرضية ، ولا أتردد عن القول بأن عدم الاحساس الكامل بتأثيراته انحراف مرضي من مستوى الاستسلام للذعر ، وعويل المرأة العصبية التي تفر وهي تصرخ .

وكما قال أردان دوبيك: « ان الكتلة ترتعش لأنه لا يمكن اسقاط الجسد من الحساب . وهذه الرعشة ، حتى ولو أخطأنا تفسيرها ، ينبغي أن تدخل كعنصر رئيسي في كل شيء : تنظيم ، انضباط ، تشكيلات ، حركات ، مناورات ، طرق العمل ، وكل الأمور التي تستهدف نهائياً قهرها وخداعها وتحويلها في ذاتنا ، أو العمل على

(١) وخاصة عندما تكون هذه الشجاعة صفة مميزة لرجال لم يتطوروا تطوراً كبيراً ، أو كان خيالهم ضعيفاً . فهم لا يتأثرون بالألم أو بالخوف ، إلا أنهم مجردون من كل صفات القائد وميزاته . ان شجاعة القادة الحقيقيين هي من طبيعة اخرى ، لأن الشجاعة فيهم تعني السيطرة على الخوف والتحكم فيه ، ومنه ينبع اشعاعهم . انا لا أعرف برهاناً على ذلك اكثر تأثيراً واثارة من البرهان الذي تحمله الكلمات الأخيرة للعقيد جان بيير من مظليي الفرقة الأجنبية الذي قُتل في العام ١٩٥٨ ، اقترب جان بيير من جندي شاب بقي مسمراً على الأرض تحت وابل الرصاص وقال له بهدوء : « انت خائف أيها الشاب ؟ وأنا أيضاً ! ولكن سأريك كيف يقهر هذا الخوف اللعين ويقضى عليه » . ثم وقف منتصباً ، وطلب من الجندي الشاب ان يقف إلى جواره . وهنا تلقى جان بيير رصاصة في جبهته .

(٢) « قليل من الناس يولدون شجعاناً ، ومعظم الناس يصبحون شجعاناً تحت تأثير توجيه حسن » (فيجيس) .

تضخيمها لدى الخصم . ولكن لكي ندخل هذه الرعشة في معرفتنا للقتال ، لا بد من دراسة الخوف وتركيبه الفيزيولوجي . هذه هي المبادىء الأساسية التي أريد استخلاصها بوضوح قدر الامكان في الفصل الحالي ، دون أن أهمل الاشارة الى ما ادين به لنظريات أردان دوبيك التركيبية الكلاسيكية[1] ، وإلى التحليل الفني العميق للطبيبين « لويس هويو » و « بول فوافنل »[2] .

الخوف ككل المشاعر الأخرى يوقظ في الانسان بالتتابع ثلاثة تسجيلات من الانعكاسات :

- الجهاز العصبي للمخ والجهاز السمباتي الكبير الذي يسجل الإحساسات ، ويأمر بالانعكاسات ، ويحرك الخوف الطبيعي ورد الفعل العصبي .

- المخ العضوي المشكل من مجموع المراكز النفسية المحركة ، منابع التقليد والتخيل والانفعال ، التي تشكل عامل تضخيم ، في هذا الاتجاه أو ذاك ، كالمبالغة بالخطر أو انكاره .

- المخ النفسي ، مركز الذكاء والارادة ، وهو جهاز التوازن .

ويعرف منذ زمن بعيد ، وجود مواد تدعى (الوسطاء الكيميائيين) أو (الهرمونات) ، التي يعمل إفرازها ، تحت قيادة الجهاز العصبي ، وعلى بعد منه ، لاحداث تعديلات فيزيولوجية . وهكذا فإن الغدد (فوق الكلوية) التي يأمرها الجهاز العصبي السمباتي الذي يتحرك بواسطة الجهاز المركزي ، تفرز الأدرينالين الذي اكتُشف عمله في كثير من الهيجانات ومن بينها الخوف . إن دفعة قوية من الأدرينالين في الدم تثير انقباض الأوعية الدموية ، وضغطاً في بعض الأعضاء الداخلية (قلب ، مخ ، معدة ، امعاء) ، ومنه ينتج شحوب الوجه واصفراره ، والتعرق ، وتسارع إيقاع القلب ، وتمدد واتساع حدقة العين ، وكل المظاهر الفيزيولوجية للخوف . إلا أن هذه الدفعة ليست أصل الخوف ، ولكنها ناتجة عنه ، فالخوف عقلي أساساً ، ويفرض إحساساً بالخطر الذي يتهدد الفرد . وينبغي أن لا نخلط بين السبب والأثر ، والزرقة المضادة للأدرينالين (الأسيتيلوكولين) التي اكتشفها مؤخراً طبيبان من نيويورك ، ووصفت تجاوزاً بأنها طعم مضاد للخوف ، لا يمكن أن تؤثر إلا على النتائج الفيزيولوجية للخوف التي سببها الأدرينالين .

---

(١) « Etudes sur le combat » colonel Ardant du picq (Berger-Levreault, Paris)

(٢) « Le courage » Louis Huot et Paul Voivenel (Fèlix Alcan, Paris)

ومن جهة اخرى ، فإن الطب النفسي ، عندما حاول إقامة علاقات بين الإثارة والإحساس ، وضع قانوناً بسيطاً ، يشير الى أن الاحساس يتزايد بقوة تعادل لوغاريتم الإثارة . ومن الممكن الطعن بهذه الصيغة الرياضية ، إلا أنه من المؤكد ، أن حدة الاحساس ، وخاصة الخوف ، تزيد بشدة أقل من شدة تزايد الاثارة ، وهذا يعني أن على الاثارة إن شاءت تصعيد الخوف ، ان تتزايد بشكل كبير جداً يتلاءم مع درجة الخوفَ التي ترغب في إحداثها . ومع هذا فإن هنالك حدوداً يتوقف عندها تصاعد الخوف مهما تزايدت الاثارة . وهكذا لاحظ الجنود في ساحات القتال أثر قانون ووندت Wundt . ولقد قدم المارشال مونتغمري في تقرير كتبه عن المدفعية في نهاية العمليات ،الملاحظتين التاليتين :

١ ـ إن عدداً كبيراً جداً من القذائف الصغيرة المرمية خلال فترة معينة ، تؤثر على معنويات الخصم أكثر من قنابل كبيرة العيار ، أقل عدداً ، ولها نفس الوزن الاجمالي ، وتقصف خلال المدة الزمنية ذاتها .

٢ ـ هناك حد لمدة القصف ، تتوقف بعدها معنويات الخصم عن التدني والهبوط .

ينبغي مع ذلك ألا نبالغ بمدى صحة استنتاجات التجارب السيكو ـ فيزيائية ، لأن تغييرات المخ العضوي أو النفسي لم تتعرض لها ، ويكفي للاقتناع بهذا ، أن نلاحظ أن الولد والمرأة يردان بقوة على التجارب ، بينما أمثلة الشجاعة والبطولة ليست نادرة لدى الولد ، الذي يتسم أيضاً بأنه معرّض دوماً للحماسة ، ولحاسة التقليد ، وحب المخاطرة ، كما أن الشجاعة والبطولة غير نادرتين عند المرأة ، التي تتسم بالانفعال ، وتميل بصورة طبيعية الى الاخلاص .

ولا تستطيع فكرة الخطر تضخيم الخوف فقط بعد إثارته ، ولكنها تستطيع توليده بمعزل عن أي إحساس مادي . فقد كان نابليون يكرر دوماً : « إن الخيال هو الذي يخسر المعارك » ، وهو على اتفاق في هذه النقطة مع جوزيف دوميستر . وبما ان الخيال يلعب مثل هذا الدور ، فإننا ندرك التأثير الهائل للمفاجأة في توليد الخوف وتطوره ، ونفهم لِمَ اتخذ التفتيش عن المفاجأة والبحث عن ترياقها (الأمن) مكانهما بين المبادىء الكبرى للحرب . وهنا لا بد لي من أن اذكر قول آ . دوفيني في (موت الذئب) : « **لقد اعتبر نفسه هالكاً لأنه فوجىء** » ، وهذه هي الحركة الأولى لكل كائن حي .

ويمارس الخطر المجهول ، أو الخطر الذي ينبعث في شروط غير متوقعة ، تأثيراً أكثر عنفاً من خطر معروف أو تظاهرة منتظرة . ولهذا فإن ظهور سلاح أو تكتيك

جديدين يحدث أثراً معنوياً كبيراً ، كما يحدث توجيه التهديد إلى المؤخرات أو الأجنحة التأثير نفسه . ان جو الشك الذي يفتش فيه الخيال عن أسباب الخوف ، والعطالة التي يعطيها الفراغ ، والظلام والانعزال ، هذه الأمور كلها تضاعف من الشك والخيال ، وهي كلها ظروف ملائمة لنمو الخوف . ومن المعروف ان الخيانة والفرار والفزع تبدأ من المؤخرات بسبب العمليات التي يمارسها الخيال ، وان خسارة الأرض ذات تأثير ضعيف على معنويات المقاتلين في الأمام ، لأنهم مستغرقون في العمل ، أو على الأقل طيلة الوقت الذي يسود فيه النظام ، ولأنهم عندما يقطعون التماس مع العدو وينسحبون ، يرون الخطر يبتعد عنهم . وعلى العكس،فإن القوى الاحتياطية وعناصر المؤخرة ، وهي بصورة عامة عناصر عاطلة عن العمل ، وغير مطلعة على الوضع بشكلٍ كافٍ ، تحس بالخطر يقترب منها في شروط غامضة تنذر بظروف صعبة[1] . إن التفوقَ في الوسائط والعدد سبب من أسباب ثقة القطعة ، لكن التخيلات المسبقة تحسب الأرباح بصورة واسعة جداً ، فإن جاءت النتائج غير متفقة مع هذه المطامح والآمال ، انقلب الأثر المعنوي فوراً الى عكسه .

والحقيقة ان العقل يتدخل لتصحيح انحرافات الخيال . فنحن نخاف بأعصابنا وخيالنا ، ونثق بأنفسنا بفضل ذكائنا ، ولكن هذا دواء مخفف لا يكفي لإبطال الشعور الطبيعي والتعبير الطبيعي لغريزة المحافظة على البقاء . فلكي نفهم كيف يتحول الخوف المقهور الى شجاعة ، من الضروري الاستعانة بنوع من دراسة تكوّن الجنين ، والتفتيش عن كيفية ميلاد الشجاعة العسكرية تاريخياً : وقد رسم أردان دوبيك بشكل مهيب منحنى هذا التطور ، ومن الصعب معالجة الموضوع دون اتباعه .

ليس الحيوان شجاعاً ، فهو يطيع غريزة المحافظة على البقاء الفردية ، ورد فعله الأول هو الفرار من الخطر . انه يخاف قبل كل شيء ، وهذا صحيح بالنسبة لأقوى الحيوانات وأضعفها . فلدى أول حركة مشبوهة ، يهرب الأسد والنمر ، كما يهرب الأرنب أو الفأر . وإذا لم يهرب الحيوان ، فذلك لأنه بوغت ، ووجد نفسه مضطراً لمواجهة الخطر ، وان المعركة تفرض نفسها باسم غريزة المحافظة على البقاء ، لأن الفرار مستحيل ، أو لأن الجوع يزمجر في الاحشاء ، أو تحت دفع الغريزة الجنسية أو غريزة الأمومة ، هذه الغرائز التي ليست إلا امتدادات لغريزة المحافظة على البقاء .

ان الرجل البدائي ، كالحيوان ، تقوده غريزة المحافظة على البقاء ، هذه الغريزة

---

(١) « يبدأ الفرار من المؤخرة » . (اردان دوبيك) . وعلى العكس فإن الزخم المعنوي في الامام يولد في الصفوف الأولى .

التي تولد الخوف بصورة طبيعية . إن حاجته الى الطعام ، والاضطرار الى المجابهة عندما لا يتمكن من الفرار ، والغريزة الجنسية ، وغريزة الأمومة ، تشكل عنده الحوافز الوحيدة للصراع ، فهو لا يعرف إلا الشجاعة ـ الضرورية . وبما أنه لا يقاتل إلا من أجل بقائه ، فهو مدعو ، غريزياً ومنطقياً ، الى خوض القتال في ظروف تتيح له أقصى ما يمكن من الأمن ، مع تعرض للموت دفاعاً عن حقه في الحياة . وقد وصف دوبيك ، الذي اشترك في معركة الجزائر ، الحرب في تلك الأصقاع كما يلي : « إنها حرب من حروب الكمائن والمكائد ، حرب زمر صغيرة من الرجال ، لا يختار كل واحد منهم عند المفاجأة خصمه فقط ، بل يختار ضحيته ويغتالها ، لأن الأسلحة متشابهة لدى الطرفين . والوسيلة الوحيدة لأي طرف من الأطراف في ان يجعل الحظ حليفه ، هي المفاجأة . فالإنسان المفاجأ يحتاج الى لحظة من اللحظات كي يرى فيها بوضوح ويتخذ موقف الدفاع . وخلال هذه اللحظة ، يموت اذا لم يهرب . فالخصم المفاجأ لا يدافع عن نفسه ، انه يفتش عن الهرب » . ويندر أن نرى قتال الالتحام الرهيب بالأسلحة البدائية (فؤوس وسكاكين) بين خصوم لا يملكون وسائل دفاعية . ولا يمكن أن يحدث مثل هذا القتال إلا بين خصوم يباغتون بعضهم بعضاً ، دون أي احتمال للنجاة لأيهما ، إذ لا احتمال لأي طرف منهما إلا بالنصر . وهناك أيضاً احتمال فرار الطرفين ، وهو احتمال متوقع وارد .

وينبغي ألا تخدعنا الجرأة التي يظهرها الرجل البدائي عند تنفيذ بعض الأعمال الخطرة (اجتياز حاجز أو تيار مائي سريع ، أو مسك أفعى سامة الخ . . .) فهي جرأة خاصة . إن الانسان يؤمن بقوته وبرشاقته وبفطنته ، كما أن العادة تخفف لديه الشعور بالخطر . ومن المعروف ان العادة قادرة على منح الحركات نوعاً من الآلية المولدة لثقة نصف لا شعورية .

إلا أن الرجل حيوان اجتماعي . فهو لا يستطيع أن يعيش ، وأن يحسن بصورة خاصة شروط حياته ، إلا بالاندماج في جماعة . إذن فمن الضروري ان يضحي الفرد بنفسه من اجل الجماعة ، عندما يتعرض وجودها للخطر . وتحل عندئذٍ غريزة حفظ البقاء الجماعية ، (جزئياً) محل غريزة حفظ البقاء الفردية ، ويبدأ هذا التحول منذ أن يبدأ المجتمع في التطور . ويخضع هذا التحول الغريزي ، في بادىء الأمر ، الى إلزام خارجي ، والى ضرورات مادية صرفة ، وإلى العادة والتقليد . لكن الرجل ، مهما كان بدائياً ، يملك روحاً مرهفة . ان حاجته للحياة في المجتمع تتصدر الشروط المادية . إنه متعطش للود ، ولا يستطيع الحصول عليه إلا بالتضحية . وتتطهر حوافز التطور تدريجياً

وتسمو ، ويظهر بعد ذلك الاخلاص للقائد وللرفاق ، والانضباط المقبول بارادة حرة ، والوفاء للجماعة الاجتماعية (القبيلة ثم الأمة) ، والالتزام بنفس المنطلقات المشتركة من المثل والمفاهيم المعنوية أو الدينية . وعندما تعي مجموعة من البشر التشابه فيما بينها ، أو تعي مصيرها المشترك ، فإنها تحاول التمسك بتقديرها المتبادل ، وتعمل من أجل مجد « الشخص المعنوي » الذي تشكله . ويقوم بين هذه المجموعة من البشر قواعد ، لا يستطيع احد الابتعاد عنها دون التعرض لاحتقار الآخرين وازدرائهم . وهكذا يولد الاحساس بالشرف ، كما يتحقق في هذه الكتلة البشرية تطور فكري متوازٍ مع التقدم الاجتماعي ، إذ يبدأ المخ النفسي يلعب دوره الموازن بفاعلية اكبر ، ويتدخل (التفكير) بمنابعه القوية[1] . عندئذٍ نجد غريزةحفظ البقاء الجماعيةوقد نمت وامتدت جذورها القوية ، فتظهر بشكل متزامن مع ظهور الاحساس بالشرف ، منبع الشجاعة العسكرية الحقيقية . ان الحضارة ، اذا لم تكن قد فسدت أو تعفنت ، لا تثير الانسان أو تضعفه أو تحط من مكانته ، ولكنها ترفع شأنه وتؤكد وجوده وتجعله اكثر اصالة وشرفاً وقدرة على بذل التضحيات ، وتخلق منه فرداً كريماً قادراً على البذل بشكل لا يصدق . واذا كان الشرف يسمح بالقتل ويأمر به إبان القتال ، فإنه لا يمنع احترام الخصم ، ويمنع الاغتيال دون مخاطرة ، وقتل الجرحى ، وتعذيب الأسرى ، ونقض العهد والتخلي عن قضية يائسة ، كما يمنع الانسان من أن يبيع نفسه لمن يدفع أكثر . ان الشرف يأمر أيضاً بمساعدة العدو في مصائبه وجراحاته ، وبهذا الشكل يساهم الشرف في إعطاء المعركة طابعاً إنسانياً . وليست الشجاعة العسكرية ، كما يفكر البعض ، تابعة لغريزة قتالية بدائية ورثناها من قرون طويلة ، بل هي على العكس من ذلك ، تُكتسب اجتماعياً ، وهي تقدم فكري بقدر ما هي تقدم أخلاقي . انها فضيلة اجتماعية في روحها ، لأنها القدرة على التضحية بالذات من أجل الجماعة . انها قدرة تكمن في آلية مكتسبة بواسطة تلاؤم مع واجب محدد واضح ، طويل الأمد ، فهي قدرة تعلمها الوجدان في بادىء الأمر ، بواسطة ضغوط مادية ، وعقوبات معتدلة ، وبإقناع على المستوى العقلي أو العاطفي ، قبل أن تنزل وتندمج في اللاشعور ، لتولد فيه الاحساس بالشرف .

والآن وبعد ان عرفنـــا الأهمية الأساسية للخيال ، أمام الخطر ، كما فعلنا في

---

(١) « كانت قطعاتنا المشكلة من جنود شمالي افريقيين جسورة في الهجوم ومواجهة الأخطار المعروفة ، ولكنها كانت أقل صلابة من القطعات الفرنسية في الدفاع ، نظراً لتأثرها البالغ بالقصف الكثيف وعامل المفاجأة . ولقد أدت هجمات طائرات الشتوكا المنقضة عام ١٩٤٠ الى اصابتها بالشلل وفقدان المعنويات » .

« Avant - postes de cavalerie légére » general de Brack, Berger - Le vrault, Paris.

السطور السابقة ، وأبرزنا الأصل الاجتماعي للشجاعة العسكرية ، أصبح من السهل إظهار مجموع العوامل التابعة ، التي تعمل في الفرد كدواء مخفف ومسكن للخوف ، هذه العوامل التي تسمح بنقل الفعل الغريزي للمحافظة على بقاء الجماعة . إن بعض هذه العوامل شخصية ، إلا أن العوامل الاجتماعية أهمها وأكثرها فاعلية .

في مطلع كل نزاع مسلح ، يندفع بعض الناس بنوع من الحماسة الطبيعية والطاقة الداخلية ، وبدفق من القوة والحياة ، ناجم عن حب المخاطرة والميل إلى المغامرة ، التي يؤججها ويحركها الخيال . ان هذه الاستعدادات كثيرة بصورة خاصة لدى الشباب الصغار المشبعين بالحيوية ، وهي نتائج غريزة اللعب التي كانت تحرك طفولتهم التي ما زالت قريبة ، وتعطي مثل هذه الحالة الفكرية ، بتحالفها مع تجاهل الخطر وإنكاره ، قطعات شديدة وعنيفة ، تحافظ إلى حد ما على زخمها تبعاً لنتائج اشتباكاتها الأولى . إلا أن عدم الشعور واللامبالاة لا يدلان على الشجاعة الحقيقية . وإذا كانت الحماسة تدفع إلى مواجهة الخوف وقهره ، إلا أنها لا تقتله . وهناك أيضاً تطور يطرأ حالاً . « فالحرب البهيجة لا تدوم طويلاً »[1] . وتذبل الزهور في البندقية بسرعة[2] .

ثم يتولد مع الزمن الاعتياد المادي على الخطر في بادىء الأمر : فلا يرتعش الانسان لدى سماع الانفجارات ، ولا يرد على الرصاص إلا بفاعلية . ثم يأتي التعود الانفعالي : ويفقد الخيال جزءاً من قدرته الخطيرة على التضخيم والمبالغة ، لأن حدة الانفعال تضعف بالاستخدام ، وفي النهاية يتم التعود الفكري ، إذ تسمح التجربة للعقل بتقدير الخطر بدقة ، وبتصميم طرق المجابهة الملائمة ، لكنها في أغلب الأحيان طرق غير كاملة ، كما تسمح التجربة بآن للعقل بأن يواجه ويتحدى الأخطار التي لا يمكن تجنبها . وكان أفلاطون يعرِّف الخطر بأنه : « جهل ما ينبغي الخوف منه وما لا ينبغي الخوف منه » . وكان نابليون يقول ، ينبغي في الحرب : « أن نطلب الحياة ونعرف كيف نموت » .

وليس الجندي المجرب ، هو من يحتقر الموت ، إنما هو الذي اكتسب التعقل واللامبالاة ، بآن معاً ، ودخل في حالة القدرية الايجابية ، وهي في النتيجة سيكولوجية

---

(١) فلنتذكر هنا نداء جان مارك برنارد في قصيدته « من اعماق الخندق » : « آه . . . اعيدوا الينا الحماسة » ولقد نصح فيجيس قبل ذلك بعدم الاعتماد على التظاهرات التي يقوم بها المجندون الجدد للتعبير عن استعدادهم للحرب .

(٢) يشير المؤلف هنا الى عادة قديمة عند الأوروبيين ، تتمثل بوضع الزهور في فوهات بنادق الجنود الذاهبين الى ساحات القتال ، تعبيراً عن تشجيعهم وتكريمهم والتضامن معهم .

(المعربان)

لا تختلف كثيراً عن سيكولوجية ابن السبعين عاماً ، الذي يعيش في هدوء تام ، بينما تشير لوائح زملائه الموتى إلى أن الموت يستطيع أن يختطفه في كل لحظة . ولا يمكن الشك بقوة التعود على الخطر ، عندما نتذكر نقاط ضعف بعض قطعاتنا في معركة الحدود ، في أغسطس (آب) ١٩١٤ ، والنهوض الرائع الذي تلاها ، والعناد الذي لا يلين الذي تبعها . كما أنه لا يمكن إنكار أن احد العوامل الحاسمة في (الحرب - الخاطفة) التي قادها الألمان في العام ١٩٤٠ ، كانت في منعنا من هذا التعود . وحتى لو لم يتوصل هذا التعود إلى توليد الشجاعة ، فله على الأقل ميزة تهذيب الخوف الذي لا يمكن اعتباره أحمق دائماً . وبمواجهة خطر جديد وغير متوقع ، يمكن أن ينطلق الخوف كزعب ، ويسبب انعكاسات لا جدوى منها ، وقد تكون خطرة ، إلا أنه يصبح مع العادة أكثر ذكاء وفطنة .

لقد رأيت في العام ١٩١٤ كثيراً من مناظر الفزع ، رأيت رجالاً قد تكدسوا كقطعان الغنم وهم يفرون . ومنذ العام ١٩١٥ ، اختفت مناظر العام ١٩١٤ ، ولم يحدث هذا الشيء في جيشنا على الأقل . فتحت تأثير الخوف ، كان الرجال ينتشرون ويتحصنون في الأرض ، وقد علمتهم التجربة أن تجمعهم في كتل متراصة ، يقدم للخصم أهدافاً رائعة ، وأن من الخطر الهروب أمام الرصاص الذي يسفّ الأرض لمسافة بعيدة ، وأمام القنابل التي يمكن أن تنفجر على مسافة بعيدة أيضاً . ثم شاهدت في العام ١٩١٨ ، أزمات الفزع في قطعات أميركية ، تعمل لأول مرة تحت النار . كان خوف هذه القطعات غير متماسك قبالة خطر غير معروف جيداً . ورأيت في العام ١٩٤٠ ، الجندي القديم لحرب ١٩١٤ - ١٩١٨ ، بطل العشرين انقضاضاً ، رأيت مثل هذا الجندي ، وهو يفقد عقله عندما كانت تنقض عليه طائرات الانقضاض (الشتوكا) . ونلاحظ هنا فوراً العمل المشؤوم للمفاجأة ، الذي لا يسبب الخوف فقط ، بل يسبب خوفاً غبياً ، ورعباً يدفع الجنود إلى التعرض للطلقات .

ويضاف إلى العوامل الفردية ، في شل الخوف ، وزن الضغط الاجتماعي ، الذي يمارس دوره في كل الميادين المادية والمعنوية والفكرية . فهناك في بادىء الأمر الانضباط الحازم ، مع حاشيته من الجزاءات الايجابية أو السلبية : مكافآت أو عقوبات (ومنها الحكم بالموت الذي يستخدم غريزة المحافظة على البقاء بتقديمه الموت المحتم ضد الموت غير المؤكد)[1] . وأخيراً يأتي في الترتيب العاطفي ، الاخلاص للقادة والتعلق

(١) « ان الهدف من الانضباط ، هو إظهار بشاعة الرعب من الموت برعب أكبر ، هو الفزع من العقوبة والعار » . (آردان دوبيك) .

بالرفاق ، والوطنية الغريزية . وهناك أخيراً ، في الترتيب الفكري : الوطنية الواعية ، والاخلاص لمثل أعلى فلسفي أو معنوي ، والايمان الديني[1] . وفي النهاية ، فإن مختلف هذه العوامل ذات فعالية غير متساوية ، فساحة القتال وشدة العناصر الانفعالية تتغلب عليها . ومن النادر ان يوافق رجل على المخاطرة بحياته بواسطة الإكراه ، أو بسبب المصلحة ، فقواعد الانضباط ، وطعم المكافآت ، بما فيها على الأقل من شيء مادي صرف ، ليست إلا دواء مقوياً ، ولا تستطيع ان تكون إلا كذلك . أما بالنسبة الى من يكون سبب التضحية لديهم فكرياً ، فإنهم نادرون ، ويصنفون في مرتبة عليا في سلم القيم الانسانية . إنهم ينتمون الى صفوة من القادة ، أو انهم جديرون بمثل هذه المكانة. « ان الصور الباهتة الناجمة عن التفكير ، تملك نادراً قوة دفع الرجل إلى العمل »[2] ، أو بتعبير أدق ، ان الذين تستطيع هذه الصور الباهتة أن تدفعهم إلى العمل نادرون . أما بالنسبة إلى البشر الآخرين ، فإن هذه الصور الباهتة تخلق لديهم ، في احسن الحالات ، شعوراً بالالتزام ، ينبغي أن ترتفع حرارته وأن يتلون عند مروره عبر منشور الأهواء ، ولا يصبح محركاً إلا تحت دفع الاحساس بالشرف ، لأن هذا الاحساس ، هو الاحساس الوحيد الذي يملك من القوة ما يجعل الطاقة النفسية الضرورية تتفتح لدى معظم الرجال ، عند المرور من مرحلة استلام الواجب إلى مرحلة إنجازه .

إن الشرف عامل مثير وقوي جداً ، حتى ان كثيراً من الجرحى في حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ ، كانوا يبذلون ما في وسعهم فور شفائهم التقريبي ليلتحقوا بأفواجهم . وقد كانوا يعرفون أنهم سيتألمون ويخاطرون ويخافون ، وان من المؤلم ، في غالب الأحيان ، قهر الخوف . ومع ذلك كانوا يريدون العودة إلى قطعاتهم في أقرب وقت ، إذ كان الشرف يطالبهم بذلك ، هذا الشرف الذي كانوا يحاسبون به رؤساءهم ، وزملاءهم في القتال ، وأقرباءهم ، وأصدقاءهم . ولا أدري من ذا الذي ألغى الكتابة التي كانت موجودة على أعلامنا وراياتنا : (شرف ووطن) ، فقد كان واضع هذه الكلمات طبيباً نفسياً ، لأنه قدّم الشرف على الوطن .

فالمبدأ الحاسم ، الذي يحرك في الواقع معظم المقاتلين في المعركة ، هو الشرف[3] . ان الشرف هو الذي يجعل من المقاتلين حماة للقيم المعنوية والمادية

---

(١) من الملاحظ ان الروح الدينية تتجسد في مطلع كل حرب .

(٢) شارل مورّا.

(٣) هناك مجموعات بشرية لا تمتلك قانوناً معنوياً سوى الشرف ، واحترام القاعدة العامة . في مثل هذه المجموعات يطلق على من يلتزم بالشرف والقاعدة العامة صفة « الانسان النظامي » ، وهناك من يموتون للحصول على هذه الصفة . ان هذه =

والفكرية ، المتنوعة كثيراً تبعاً للظروف ، ولكنها في الخلاصة ليست إلا الحشوة المتفجرة التي يشكل الشرف طُعمها ، فهي أسباب وسيطة ، والشرف هو الباعث والمحرض المباشر . وقد أشار مارمون بقوة إلى دور الشرف في كتابه : « روح المؤسسات العسكرية » . والحقيقة أنه يستخدم في كتابه كلمة الكبرياء بدل كلمة الشرف ، لكنه يقصد المعنى نفسه : « تؤدي الكبرياء الى نتائج حسنة وأخرى سيئة ، وتخلق في مهنة الجندية قوة كبيرة ، لأنها تمثل الحياة في هذه المهنة . إن جيشاً يضم رجالاً بدون كبرياء لا يساوي شيئاً ، والفرنسيون جنود جيدون لأنهم يتسمون بالكبرياء » . لقد كانوا كذلك في ذلك العهد على الأقل .

إنه لمن الصعب حقاً أن نقتصر ، في سطور بسيطة ، على شرح التعقيد اللامتناهي لردود الفعل البشرية . ولكن ، إذا قبل القارىء تعاريفي ، فإني لا أخون الحقيقة عندما أقول : إن العوامل الفاعلة المباشرة في تحويل الخوف ونقله إلى شجاعة عسكرية ، هي : الحماسة ، والتعوّد على الخطر ، والشرف . ولا يلعب الانضباط الحازم إلا دوراً ثانوياً ،أما بالنسبة إلى العوامل المحركة العاطفية أو الفكرية ، مهما كانت أهميتها كبيرة ، فهي لا تعمل إلا بصورة غير مباشرة ، وليست فعالة إلا ضمن المدى الذي تثير فيه الحماسة والاحساس بالشرف .

واني أعرف أن بعض الايديولوجيين المضرين المبسِّطين ، اعتقدوا انهم يعجلون بمجيء مملكة السلام ، بمجرد أن يحاولوا التشنيع بالحرب وتحقير الفضائل الحربية ، والحط من شأن الشجاعة بصورة خاصة . وقد رأوا ، أو أرادوا أن يروا في الشجاعة استمراراً لعهود عف عليها الزمن ، ورأوا فيها فضيلة من الفضائل البدائية . وقد فتشوا لها عن دوافع كالحقد أو القسوة . كل هذا خطأ . لقد مارست الحرب مدة طويلة ، ولم أصادف فيها إلا نادراً مظاهر الحقد أو القسوة ، هذه الصفات التي تلازم الجبن أكثر من

= الظاهرة تؤكد ان الشرف محرك مباشر للتضحية ، ويفسر بصورة خاصة كيف يستطيع جندي مرتزق أن يتجاوز ، في مجال الشجاعة ، جندياً وطنياً يمتلك أسباباً أقوى للقتال . ولقد كان نابليون يعتقد أن بالامكان إنشاء قوات جيدة « بغض النظر عن القضية التي تقاتل من أجلها » .

تعقيب المعربين : قد يكون ذلك صحيحاً في العصور السابقة لتبلور القوميات ، وتنامي الحس الوطني ، عندما كانت الحرب تدور في أوروبا بين جيشين محترفين معزولين عن شعبيهما . وقد يظهر بعض الجنود المرتزقة ، الذين يقاتلون بدافع الانضباط والشرف ، شجاعة تفوق شجاعة الجنود الوطنيين . ولكن ارتقاء الحس القومي أو الوطني في عصرنا إلى مستوى عالٍ ، وتزايد أهمية التعبئة الايديولوجية ، وخصوصاً في حروب التحرير العادلة ، يجعلان القضية محركاً مباشراً وفعالاً للشجاعة ، لا يقل اهمية عن المحرّك المتمثل بالشرف .

(المعربان)

ملازمتها للشجاعة . ألم يكتب مونتيني Montaigne : « غالباً ما كنت أسمع أن الجبن أصل القسوة » . ونحن نغفر بصعوبة الخوف الذي نحس به رغم إرادتنا . وفي نهاية كل حروبنا الكبرى ، لم تلاحظ قوى الأمن أبداً ، ان المجرمين والقتلة كانوا من بين ابطال الأمس . والحقد ، فوق ساحة المعركة ، شعور عارض . ان المحرك العاطفي الحقيقي هو الغضب[1] . ولا يقاتل الجندي عادة لأنه يكره عدوه الذي لم يختره ، ولكنه يقاتله لأنه مفروض عليه كخصم . وقد يثور الجندي في حمى المعركة ويغضب ، إلا أنه لا يحقد ، ولا يحس برغبة في القسوة على خصمه الذي يحس في ابهام وغموض ، انه يقوم بواجبه مثله ، وبمهمة مماثلة لمهمته . كلا ! ان اسس الشجاعة العسكرية هي الأسس التي تحدثت عنها ولا شيء غير ذلك .

ان الشعور الأصلي الذي يحس به البدائي هو الخوف ، أما الشجاعة فهي مكسب ، وتقدم انساني ، وفضيلة اجتماعية . وعندما ننكر الشجاعة ، لا يمكن أن نفهم ابداً عملية القوى المعنوية في الحرب . اننا بذلك نفقد احد المفاتيح التي تسمح لنا باكتشاف سر عظمة الأمم وانحطاطها .

(١) يختلف المؤلف هنا مع كلاوزفيتز الذي يضع الحقد في الحرب على مستوى الغضب ، ويرى ان الحرب « عبارة عن ثالوث عجيب مؤلف من : العنف الأساسي في عنصرها ، ويتمثل بالحقد والغضب اللذين يمكن اعتبارهما دفعة طبيعية عمياء ، ومن لعبة الاحتمالات والصدفة التي تجعل منها عملاً حراً من أعمال الروح ، ومن طبيعتها كتابع وأداة من أدوات السياسة التي تجعلها مرتبطة بالعقل المجرد » ، كتاب في الحرب ، الصفحة ٦٩ من النص الفرنسي الكامل .
(المعربان)

الفصل الثالث

الرجل في مواجهة الخطر والجهد

« إن الشجاعة يومية »

(نابليون)

عندما أباشر ببحث الرجل في مواجهة الخطر والجهد المضني ، ينبغي أن يكون مفهوماً أني أتكلم عن الرجل الكامل بغرائزه ، وجميع احساساته ، وكل الأفكار التي اشبعه بها الجو الاجتماعي الذي لا ينفك عن التعامل معه . ومن المستحيل أن يكون الوضع على غير هذه الشاكلة ، فليس هناك في الواقع فرد قادر على الاستغناء عن المجتمع ليحقق الفردية في حالتها الصرفة الخالصة ، كما انه لا يوجد مجتمع بدون افراد . ولا يمكن ان نفصل في الكائن الحي النقاط الفردية عن النواحي الاجتماعية . فالانسان ، فردي والاجتماعي بآن معاً . واذا كنت ، في هذا الفصل ، حريصاً بصورة خاصة على اظهار ردود فعل الفرد ، فسيبدو هذا الفرد خلال ردود فعله غنياً وملوناً بكل ما يدين به للمجتمع ، هذا المجتمع الذي سيتضح دوره في الفصول التالية المخصصة للقطعة وللأمة .

ومن الطبيعي أن أبقى وفياً للدرس الكبير الذي أعطاه دوبيك : سأحترس « من الرياضيات ومن الديناميكية المادية المطبقين على مسائل القتال » . وسأتجنب « أوهام حقول الرمي والمناورة ، حيث تجري التجارب مع الجندي الهادىء الرزين المستريح الشبعان المطيع المنتبه ، أي مع الرجل كأداة ذكية ووديعة » . فليست الغاية هنا بحث مثل هذا الرجل ، بل بحث « هذا الكائن العصبي ، المتعرض للانفعال والتأثر ، القلق ، المضطرب ، المذهول ، الساخط ، الذي يهرب من نفسه ، هذا الكائن هو المقاتل ، من القائد الى الجندي (يستثنى من ذلك الأقوياء وهم نادرون) » .

ومع ذلك، فهناك سؤال يطرح نفسه : هل من الممكن بحث ردود فعل الانسان ، الكائن الفرد ؟ وهل هناك بين الأفراد أرضية مشتركة كافية ؟ حقاً ! هناك فروق عديدة تلعب دورها،كالعرق ، والعمر ، والوسط الاجتماعي . وهذا أمر طبيعي ،

ولكن إذا ما رأينا تحت النار قطعات افريقية ، وقطعات محترفة ، وقطعات من المجندين تجنيداً الزامياً ، ووحدات من الاحتياطيين ومن العناصر العاملة ، وفرنسيين ، وألمان ، وانكليز،وأميركيين ، وإيطاليين ، وبولونيين ، وروس ، اذا رأينا مثل هؤلاء كما رأيت بنفسي ، تأكدنا دون شك أن بينهم قاسماً مشتركاً ، يتفوق بكثير على العوامل الخاصة . وستتاح لي الفرصة خلال البحث للاشارة الى بعض الاختلافات الناجمة عن أصل عرقي أو اجتماعي . اما فيما يتعلق بالاختلافات الناتجة عن اختلاف الأعمار[1] ؛ فمن السهل تلخيصها . كان أرسطو يقول في بيانه « ان الشباب الفتيان أكثر شجاعة من أصحاب أي سن آخر ، لأنهم لم يتعرضوا لتثبيط الهمم في الحياة العملية ، ولم يتعرضوا لاختبار الحاجة . . . فهم يتصرفون تبعاً لطبعهم المعنوي لا تبعاً للحساب » . وهذا الكلام صحيح اذا اخذت كلمة الشجاع بمعناها الضيق ، حيث تعني الفرد الذي يتمتع بالاقدام الطبيعي . فالشاب هو في الواقع مندفع ، مشبع بالنشاط البدني ، سريع التحمس ، ومن السهل أن يكون مثالياً ، لذا فهو أقرب الى الإقدام ، الطبيعي . وغالباً ما يتحلى بالشجاعة الاندفاعية ، إلا أنه أقل صلابة وعناداً من جندي اكبر منه سناً ، وأكثر هدوءاً ، وأقل حدة وعنفاً في ردود فعله ، واكثر ايجابية . لأن مثل هذا الجندي يحاكم ويحسب ، وتتحكم فيه الشجاعة المكتسبة ، شجأعة الخضوع والانقياد[2] .

I ـ الحالة النفسية للجندي في الميدان

يجد الجندي نفسه ، في مواجهة الخطر كما رأينا ، مدفوعاً بنوعين من الدوافع :

ـ دوافع ايجابية (كالحماسة ، والتعود على الخطر ، والاحساس بالشرف) . وتشكل قوته المعنوية ، والطاقة النفسية التي تدفعه للتغلب على أسباب الانهيار التي تولدها الحرب (حرمان ، تعب ، آلام معنوية وبدنية ، مناظر رهيبة ، اخطار) . كما تساعده على قبول التضحية الكبرى ، وتوحي له بإرادة الانتصار .

ـ دوافع سلبية ، تصعد من أعماقه ، منبعثة من غريزة المحافظة على البقاء .

فما هي الدوافع التي ستحركه في النتيجة ؟ ان ذلك مرتبط بالظروف الخارجية ،

---

(١) اننا نقصد هنا العمر الفيزيولوجي ، وليس العمر الحسابي . فهناك شاب في الخمسين من عمره ، بينما هناك رجال شاخوا وهم في الأربعين ، ولا شيء أكذب من شهادة الميلاد .

(٢) قام نابليون بهذا التمييز ، بين شجاعة الخضوع والانقياد وشجاعة العمل التي يسميها براك شجاعة الاندفاع أو شجاعة الوثوب . وفي الحرب المعاصرة ، التي تتبدى في الغالب كمعركة ضد القدرية ، اكثر من كونها معركة ضد الرجال ، نرى ان شجاعة الخضوع تتعاظم أهميتها .

وبالحالة النفسية للمقاتل .

إلا أن هذه الحالة النفسية تتأثر بالحالة البدنية ، فليس الرجل ملاكاً أو حيواناً ، انه جسد وفكر بآن واحد ، ولا ينفك الاثنان عن التأثير المتبادل الواحد في الآخر . وليس ذلك لأن هناك علاقة مباشرة بين قوة الفرد البدنية وشجاعته ، فهناك رجال يتمتعون بأجسام رياضية رائعة بينما هم في منتهى الجبن . ويعرف الفرسان بالتجربة ان الخيول النقية الصافية لا تتحمل الألم كالخيول الأخرى ، ولكنها تبذل مجهوداً اكبر (الحصان الأصيل وحصان الحرث) . ولا يتقابل المقاتلون في الحرب الحديثة في مبارزات فردية ، وهم يملكون اسلحة وصلت حد الكمال ، لذا فنحن نعير صلابتهم المعنوية اهتماماً اكبر مما نعيره لقوتهم العضلية . كما نهتم بقدرتهم على مقاومة التعب وقوة الاحتمال ، ذلك لأننا إذا كنا لا نقاتل كل يوم ، فنحن نتعرض للمشاق يومياً . وتستطيع قوة احتمال الرجل مهما كانت ضعيفة ان تسير به بعيداً إذا كانت إرادته صلبة لا تلين ، وحين يضرب المثل أمامه . وهذا ما يدعونا إلى تفضيل التربية البدنية المتوازنة على الألعاب الرياضية التنافسية ، وعلى التفتيش عن الأرقام القياسية .

وتؤثر تبدلات حالة المقاتل البدنية على نفسيته اكثر من حالته البدنية العامة نفسها . ومن المعروف أن هذه التبدلات مستمرة ، بسبب شروط حياة الجندي في الميدان ، التي تتكون قاعدتها الطبيعية من شظف العيش ، وتتخللها فترات من الأرهاق والحرمان . وللجندي الشبعان ردود فعل عصبية أقل عنفاً من جندي صائم[1] . وتعطي الكحول ضربة سوط ، يتبعها حتماً مرحلة من الحبوط والخمول . فالانسان المتعب ميال للاستسلام إلى قدرية لا مبالية . كما أن الرجل الشجاع ذا البداهة يجد شجاعته وبداهته تتضاءلان عندما ينخفض ضغطه الدموي ، وتقوم الغدة الدرقية بإفراز غير طبيعي يجعل المزاج هادئاً تارة وعنيفاً تارة أخرى الخ . . .

والشروط المعنوية للحياة في الميدان سبب من أسباب عدم الاستقرار . إذ يخضع المقاتل في الميدان ، إلى انضباط شديد من بعض الجهات ، وضعيف بالتأكيد من بعض النواحي الأخرى . وللجندي هموم عائلية وعاطفية . وهو يعيش في جو من التهديد ، يولد توتراً عصبياً دائماً ، وصدمات عاطفية متكررة . إن قيمة القادة ونفوذهم ، والشعور بضعف أو قوة العصبة التي ينتمي إليها ، وذكرى الانتصارات أو الهزائم السابقة، تتدخل دون انقطاع لتؤثر على أمله وعلى ثقته بالنصر .

(١) كان المؤلفون العسكريون القدماء يوصون باطعام القطعات ، ويدعونها الى اشباع حاجاتها الطبيعية قبل الهجوم .

ان هذا الأمل وتلك الثقة عاملان أساسيان ، قادران على ترجيح الكفة في نفس الجندي . لأن القتال بالنسبة إليه ، لعبة هو رأسمالها (ان حياتي مقابل حياتك) ، هذا ما يفكر فيه المقاتل بغموض . ولكي تكون اللعبة ممكنة بالنسبة إليه ، ينبغي أن تقدم له احتمالات معقولة للنجاح ، والا فإنه يفلت من قادته ، ويفتش عن تجنب القتال[١] . وقد قال مارمون : « لا يذهب الناس إلى الحرب ليموتوا . انهم يذهبون دوماً ليقهروا الخصم ، واذا كانوا يعرّضون انفسهم للموت ، فذلك شريطة ان تكون التضحية بحياتهم مجدية »[٢] . وقد أكد أردان دوبيك ، هذا الكلام في الجملة التالية تقريباً : « لا يذهب الرجل الى القتال من اجل المعركة ، بل من أجل النصر . فهو يفعل كل ما يتعلق به ليلغي المعركة وليؤمن الانتصار » . وقد أشار المارشال دوساكس الى الدور الأساسي للأمل عندما قال : « ان الأمل يجعل الرجال يشرعون بكل شيء ، فاذا انتزعتم منهم هذا الأمل ، او جعلتموه بعيد المنال ، فإنكم تنتزعون منهم نفوسهم » . وقد قال نابليون عن هذا الأمر : « ان الشجاعة كالحب ، تريد الأمل غذاء » . وكل رجال الحرب متفقون على التفكير بأن الأمل يولد العمل ، وإن من المتعذر استقطاب نفس المقاتل ، وتوجيهه نحو أرادة الانتصار بدون أمل[٣] . وينبغي أن نولد هذا الأمل ، وأن نحتفظ به حياً في قلوب الرجال الذين تكون حالتهم النفسية غير مستقرة بصورة خاصة (بسبب شروط الحياة في الميدان) ، وتصبح هذه الحالة اكثر اضطراباً ايضاً في اللحظة التي تنفتح فيها أزمة القتال .

أنا أعرف ان هناك كثيراً من البشر القادرين على التضحية بأنفسهم بعد فقدانهم الأمل . انهم أبطال ، لأن البطولة هي استمرار الشجاعة رغم كل الظروف غير الملائمة ، انها قمة عالية جداً ، صعبة المرتقى ، لا يستطيع ان يتسلقها إلا القـلة . ولكنني اكرر بأنني لا أفتش عن الحالات النموذجية ، ولا اكتب مؤلفاً تربوياً . اني افكر في الرجال المساكين الذين ترتجف اجسادهم،والذين ينبغي مع ذلك ان نجعل منهم مقاتلين حقيقيين ، ومنتصرين إذا امكن .

---

(١) « لقد تحدث الجنرال ايفان بانفيلوف قائلاً : « ان الجندي ينطلق الى القتال لا لكي يموت بل لكي يعيش » الكسندر بيك ، طريق فولوكولامسك ، ص ٤٩ .

(المعربان)

(٢) يجب ان تكون مهمات التضحية (الفدائية) نادرة جداً ، وفي حالات الضرورة الملحة . على ان يتم تنفيذها بقطعات مختارة بلغ فيها المستوى المعنوي ذروته . او عندما تدفع وحشية العدو القطعات الى الموت باعتباره المخرج الأخير .

(٣) من الممكن سرد أقوال كثيرة لقادة الحرب ، تتعلق بأهمية الأمل . « انها تمطر ايضاً لدى العدو » ، هكذا كان يقول مونلوك . أما نابليون فكان اكثر وضوحاً عندما قال : « يرى الانسان في الحرب سوءاته ، ولا يرى سوءات العدو . ينبغي ان نبدو واثقين » .

II ـ محنة القتال

عندما يحس الجندي بأن القتال وشيك الوقوع ، يقوم بالتركيز من كل جوارحه ، ويضع طاقته النفسية في وضع التفجر . ويظهر هذا بالضيق (انطباع عضوي) ، وبالقلق (انطباع نفسي) . فيصمت الجنود او يتذكرون ماضيهم . وتصبح حركاتهم آلية ومتقطعة . وقد وصف الكتّاب الذين شاركوا في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ مناخ خندق الانطلاق في اللحظات التي تسبق الانقضاض . ولقد عشت هذه اللحظات أكثر من مرة ، إلا أنني اتذكر بصورة خاصة ليلة من ليالي آب ، ١٩١٤ ، فقد كنت في مخزن للغلال في قرية من قرى منطقة الموز ، وكنت احاول جمع شتات نفسي استعداداً لليوم التالي ، حيث سيجري تعميدي تحت النار . وعرفت يومئذٍ ان هذه اللحظات مضنية رهيبة ، وغبطت كل من كانوا منهمكين في تلك اللحظات بمشاغل تتعلق بالخدمة ، أو بأي عمل بدني أو فكري يحولهم عن هذه الفكرة التي تحاصرهم ولو جزئياً على الأقل . . . ومن الممكن ان يصبح التوتر شيئاً لا يمكن تحمله ، لدرجة تجعل القطعة تتمنى القتال المباشر ، وتهدد بافلات القطعة من قادتها ، لأن الانتظار اكثر إنهاكاً من الانقضاض نفسه . وكان يوليوس قيصر يفكر فيما مضى : « ان الخطر الذي لا نجده أمام أعيننا بصورة عامة أكثر الاخطار مدعاة للاضطراب » (حرب الغول) .

وفي خلال القتال ، تظهر كل الطاقة النفسية المتجمعة داخل الرجل . انه يكون في بادىء الأمر خائفاً ، ولكنه مطيع ، وعيناه مثبتتان على قائده ، ويحس بثقة تتزايد عندما يتغلب على الأخطار الأولى أو يتجنبها . ويستيقظ في داخله شعور بالارتياح . ولدى الجندي المأخوذ بالعمل ، يميل الخوف إلى الخمود حتى عندما يتعاظم الخطر ، على مقربة من ذروة المأساة (يلعب هنا قانون ووندت) . والحقيقة ان الخطر البعيد أكثر إرهاباً ، وعندما نتغلب على خوفنا منه ، تأخذ مشاعرنا وإحساساتنا قيمة كبيرة ، فالشعور البسيط بالحياة ، والشعور بالتنفس يصبح لذة . ويظهر عندئذٍ،على الأقل لدى الأفراد المتطورين ، وضوح فكري استثنائي[1] ، وشعور واضح بازدواج الأنا . ويرى الانسان نفسه يعمل من خلال نشوة المعركة ، وهذا الشعور هو من أجمل وأقوى الاحساسات التي يمكن للحرب أن تتيحها[2] . ولكن الطاقة المعنوية هي من أصل

(١) اشار بلزاك ، الذي يتميز بمثل هذه النظرات السيكولوجية الخارقة ، في كتابه « عظمة وانحطاط بسيزار بيروتو » الى إثارة هذه الخصائص بالخوف المقهور ، قال بلزاك ما يلي : « الخوف شعور . . . يضغط بعنف كبير على الآلة البشرية ، التي تنتقل قدراتها سواء الى أعلى درجة من درجات قوتها أو الى ادنى درجة من درجات انحدارها » .

(٢) « يتمتع الانسان بنفسه جيداً في معمعان الخطر » (نابليون) .

عصبي ، وهي ليست قدرة ثابتة ومكتسبة بصورة نهائية . انها كمية يخف وزنها ويتلاشى بتتابع الانفعالات ، وتأتي لحظة تظهر فيها لدى المقاتل تعبيرات عن التعب العصبي ، وأزمات الغضب ، أو فترات من الضعف والانحطاط ، وحالة من النعاس نصف الواضح ، والحالة القريبة من حالة السائر في نومه . ومن المعروف أن الجنود الذين استهلكوا أعصابهم ، وفقدوا معنوياتهم ، وغدوا غير قادرين على القيام بحركات قوية ومبادرات جريئة ، هم جنود ينتظر منهم القيام بتصرفات التوتر وعمليات القسوة أو التصرف على العكس بشكل يدل على الهلع أو البلادة . . . ويستولي على المقاتل بعد قصف عنيف طويل نعاس لا يقاوم . ان هذه واقعة معروفة جيداً ، ولكن كان عليّ أن أعيشها بنفسي لألاحظ « ان النوم تحت القذائف » الذي كنت معجباً به في شبابي ، لم يكن بطولياً كما كنت أظن .

وتمر غالباً أثناء القتال فترات انقطاع وهدوء نسبي ، الا انها ليست أقل الفترات حساسية بالنسبة للقوى المعنوية ، لأن تبدلات حدة الاثارة ، هي أكثر تأثيراً من القيمة المطلقة لهذه الاثارة . وتؤكد تجربة كل الحروب ، أن أصعب شجاعة هي الشجاعة التي تتضمن السكون تحت النار ، او تحت تهديد بالخطر ، لأن عاملين في القلق يضافان عندئذٍ هما : المجهول والعطالة عن العمل . وكان ضباط نابليون يعون ذلك جيداً ، ويأمرون جنودهم باستخدام السلاح تحت القذائف . وكان براك الواقعي ينصح ضباطه قائلاً : « دخنوا واجعلوا قناصتكم يدخنون » ! » .

ويدخل الرجل بعد القتال مرحلة من الانهيار ، لأنه منهك بدنياً بسبب التعب ، ومنهك عصبياً بسلسلة من الصدمات العاطفية التي تعرض لها . فيكون نومه مضطرباً ، ويتعرض مزاجه لكثير من التعديلات الهامة : القابلية للغضب ، فقدان الثقة ، مضاعفة الاحساسات . وهناك بصورة خاصة العطالة والسلبية التي تتمركز في نفسه . ان التخدير الذي يستفيد منه الجرحى المرهقون ، واللامبالاة التي لا تصدق ، والقدرية الحيوانية للقطعات المنهكة ، كلها تعبيرات مؤثرة ومعروفة جيداً . ان التعب العصبي هو أكثر انواع التعب ضرراً في هذه الحالة ، ومثال (السأم) دليل على ذلك . ويظهر هذا الوضع لدى القطعات التي عسكرت مدة طويلة في قطاعات هادئة نسبياً ، وتعرضت فيها مع الوقت لارهاق عاطفي ، ناجم عن سلسلة من الصدمات الغضبية الصغيرة ، المتجددة باستمرار . فمثل هذه القطعات تكون متعبة ومنهكة كما لو أنها قامت بانقضاض ، ولو انها لم تبذل إلا جهوداً متواضعة ، وبقي مظهرها البدني الخارجي ممتازاً . ولكن اذا كانت الطاقة المعنوية تفنى وتتبدد ، فانها تستطيع ، لحسن الحظ ، ان

تتكون مرة ثانية ، وأن تستعيد ذاتها بسرعة أقل في الحقيقة من سرعة استعادة الطاقة البدنية[1] .

وبعد مرحلة الانهيار ، تأتي مرحلة استعادة الزمام ، التي تستطيع قيادة حاذقة تسريع ايقاعها بتغذية صحية وفيرة ، وراحة جسمية وعاطفية بصورة خاصة ، واجازات واستراحات تحول الأفكار عن هاجس الخطر . وتجد عملية استعادة الزمام حليفاً طبيعياً في الزمن ، الذي يقوم بإبطال الانطباعات المتعبة تلقائياً ، كما يساعد هذه العملية ظاهرة نسبية مدة القتال . والواقع ، ان الزمن يبدو أثناء القتال وكأنه ينقضي بسرعة كبيرة ، وتزداد سرعته كلما ازدادت حدة العمل[2] ، ولكنه يطول فيما بعد في الذاكرة بمقدار اكبر كلما ازدحم بالذكريات . وينتج عن ذلك ان الانطباعات المؤلمة تبدو متباعدة عن بعضها أكثر ، وبذلك لا تعطي أبداً الاحساس المتعب لصدمات متضاعفة ومستمرة .

واذا كانت شروط الحياة في الميدان ، كما أبرزت فيما سبق ، تجعل من الجندي انساناً ذا نفسية غير مستقرة بصورة خاصة ، فإن أسباب عدم الاستقرار تتضاعف هنا أيضاً بسبب أزمة القتال ، ومع ذلك ، ينبغي أن نضع باستمرار هذا الانسان المتقلب منذ الأزل ، وسط جو من الشعور اللاواعي بقوته ، لأن هذا الشعور يعطيه الثقة والأمل بالنصر . ويكفي أن نتذكر بعض الخصائص المميزة لمعركة اليوم ، حتى نقدّر ضرورة هذا الأمر وأهميته .

ان مراحل القتال والأزمات في الحروب المعاصرة أكثر عدداً وأشد حدة وأطول مدة من مثيلاتها في الحروب القديمة . كما أن تحسين الاسلحة ووصولها إلى مرتبة الكمال ، الذي يسمح بالحصول على نتائج مادية هائلة ، في برهة قصيرة من الزمن ، قد ضاعف عدد وعنف الصدمات العاطفية التي يتعرض لها المقاتل . وهذا ما صاغه أردان دوبيك ، في زمنه ، بقانون مشهور : « ان العمل المعنوي للتدمير ينمو تبعاً للقوة وسرعتها » . وفي معركة اليوم ، بتشكيلاتها المنتشرة ، يفلت الرجل كثيراً من أنظار قائده ورفاقه ، ويجد نفسه في موقف مماثل لموقف المقاتل أثناء الأعمال الليلية ، ولقد قال بايار فيما مضى « ان الليل لا يُخجل » .

---

(١) انني أدين كثيراً في رسم هذه اللوحة السيكولوجية لمحنة القتال ، للدراسة العميقة التي وضعها الطبيبان « هويو » و « فوافنل » .

(٢) ان نظرية بيرغسون ، التي تقول بأن الزمن يبدو اطول من حقيقته ، بسبب عدد الانفعالات وحدّتها ، تجد البرهان القاطع عليها في الحرب .

والشجاعة شعور اجتماعي بشكل يحتاج فيه الجندي إلى شهود على أفعاله . وهناك عدد من الأسلحة الحديثة لها أثر معنوي كبير (أقصد هنا ، أثر معنوي لا يتناسب مع الآثار المادية) ، نظراً للطريقة التي تقدم بها الخطر . فللقناع المخيف الذي كان يلبسه المحاربون اليابانيون دوره اليوم ايضاً . . . بعد ان تحسن ، وتمارس دبابة القتال أثراً معنوياً كبيراً ، بسبب عدم حساسيتها للاصابات ظاهرياً ، وتلعب القنبلة كبيرة العيار هذا الدور نفسه ، بسب انفجارها العنيف ، والزلزال العصبي الذي تثيره . ولعل أكثر الأمثلة وضوحاً ، هو التأثير المعنوي الذي حققته قنابل الطائرات الألمانية المنقضة (شتوكا) في العام ١٩٤٠ ، تلك القنابل التي كانت تقتل نسبياً عدداً ضئيلاً من الجنود ، ولكنها تصفر بصورة رهيبة . وأخيراً ، ربما كان السبب الرئيسي الذي زاد من دور القوى المعنوية ، هو ان المعركة الحالية ، بأسلحتها الميكانيكية ، المتطورة ، بعيدة المدى ، تبدو وكأنها كفاح ضد القدرية ، بعد ان كانت في الماضي صراعاً ضد الرجال . ان القوة والمعرفة ، ومهارة المقاتل المعاصر ، هي مركبات القوة الجماعية ، إلا أنها لا تحمي الفرد شخصياً ، أو أنها تحميه إلى حد ضعيف وغير مباشر . وتتناقص استفادته من ثقته بقيمته الخاصة ومن النشوة في المعركة ، وهما عاملان مهمان لدعم الرجل البدائي . لقد تحدث فيجيس فيما مضى عن « المعرفة العسكرية التي تغذي إقدام الجندي ، لأنه لا يوجد من يخشى تنفيذ ما هو واثق من معرفته بشكل عميق » . ، ولكن هذه الكلمة فقدت اليوم جزءاً من معناها ، وهذا لا يعني القول بأن أهمية التدريب قد تضاءلت .

* * *

بعد أن نقلنا المشرط الى نفس المقاتل ، وبعد ان نقبنا « هذا الكائن العصبي ، المنفعل ، القلق ، المضطرب ، المذهول ، الساخط ، المتحرك » ، الذي عصفت به رياح المعركة ، والذي يترصده ، خوف مخادع متعدد الأشكال ، نستطيع أن نفهم بصورة أعمق كلمة نابليون : « إن الشجاعة يومية » . ونحن ميالون لأن نصرخ بأعلى صوتنا : « لا يمكن ان تكون الشجاعة إلا يومية . . . وأكثر من ذلك ! لا يمكن ان تكون إلا ضرورية ، وخاضعة للتجربة في كل ساعة » ، وسأضيف أنها : « متعددة الأشكال ومتخصصة »[1] .

إنه لدرس كبير وصعب ، وينبغي على القائد ان يحفظه دائماً ، وقد يكون درساً

(١) يتحدث بليز سندرار ، في كتاب « اليد المقطوعة » عن ضباط صف من وحدات الإطفاء في باريس ، ألحقوا بالقوات المسلحة لتأطير متطوعين أجانب إبان الحرب . فلقد كانت شجاعة معظمهم مؤكدة لا يصل اليها الشك ، ولكنها كانت « شجاعة الحريق » ، أما في القتال فكانوا أقل تألقاً .

يدعو الى اليأس ، إذا لم تكن القوة المعنوية لجيش من الجيوش ، إلّا جمعاً للقوى المعنوية الفردية ، وهو جمع متغير في حاصله دون انقطاع . ولكن ليس الأمر كذلك ، لحسن الحظ ، لأن الفرد يعمل بتماس مع زملائه ، ويؤثر فيهم كما يؤثرون عليه لخلق روح جديدة تركيبية وجماعية ، وهي الروح التي تجابه وابل النيران في المعركة .

الفصل الرابع

من الجندي الى القطعة

« يقاتل الجنود من أجل قادتهم ،
ويقاتل القادة من أجل النصر »
(ثوسيديد)

أبرز غوستاف لوبون في كتاب مشهور(١) تأثير الأفراد بعضهم على البعض الآخر ، ضمن إطار جماعة من الجماعات ، بشكل تكتسب معه هذه الجماعة أشكالاً في الإحساس والتفكير خاصة بها ، تختلف عن أشكال الاحساس والتفكير الفردية ، حتى انه يتم التوصل ـ في ظل بعض الشروط ـ إلى خلق روح مشتركة « جماعية » ، ليست محصلة النفوس الفردية ، ولكنها تخضع لسيكولوجية خاصة . ولكي نرى كيف يجري الانتقال من السيكولوجية الفردية الى السيكولوجية الجماعية ، أراني مضطراً إلى تلخيص استنتاجاته ، وأن أضيف اليها بعض نظرات « غابرييل دوتارد » عن التقليد . وبعد قبول هذه الأسس ، يصبح من السهل استنتاج القوانين الخاصة بهذه الجماعة الصغيرة المتمثلة بالقطعة .

I ـ من الفرد الى الجماعة

من الملائم ، في بادىء الأمر ، تعريف ما نعني بكلمة جماعة سيكولوجية . إن مجموعة من الأفراد المجتمعين في مكان واحد ، لا تشكل بالالزام جماعة سيكولوجية ، إذ ينبغي وجود فعل بعض عوامل الاثارة العقلية ، وبصورة خاصة العاطفية ، كي تنبعث روح جماعية .

إن الأسباب التي تسمح بميلاد مثل هذه الروح هي :

ـ يأخذ الفرد الغارق في الجماعة مفهوم مشاركة قوة كبرى ، ويفقد الشعور بمسؤوليته الخاصة .

---

(١) La psychologie des foules (Felix Alcan éditeur, Paris).

- بفضل اتصالات فكرية ، وبفضل مغناطيسية جماعية ليست معروفة جيداً حتى الآن ، تنمي ظاهرة التقليد عدوى عقلية حقيقية ، تكون أكثر قوة كلما ازدادت قوة الملقنين ، وكلما تجاوبت الأعمال الموصى بها مع أهواء الملقَّنين .
، وكلما تجاوبت الأعمال الموصى بها مع أهواء ال

- إن الفرد كعضو في جماعة من الجماعات ، ميال الى تحويل الافكار التي أوحيت اليه إلى أعمال فورية ، حتى لو كان معتاداً في حياته العادية على استخدام حاسة النقد . والخلاصة ، فإن الفرد يتقهقر بضع درجات في سلم الحضارة ، وينفعل كما كان يفعل اجداده القدامى . ويتم هذا التقهقر في كل الميادين ، العاطفية والمعنوية والفكرية .

من السهل ان نستنتج ما يقدمه هذا السلوك من ايجابي وسلبي في خلال القتال . فالعدوى تؤثر على تدابير الافراد ، كعملية الضرب ، كما يؤثر الخيال على المستوى نفسه . وبالاضافة الى ذلك ، فإن عدوى التقليد تقدم نوعاً من الاسمنت يربط الجماعة كلها في كتلة واحدة متينة . وعندئذٍ لا يكون أمامنا كتلة من الرمال مهددة بالانهيار ، ولا نهتم بردود الفعل المتعددة والمتشعبة للأفراد ، بعد أن تماسكت واستقطبت في اتجاه واحد . . . ولكن في أي اتجاه ؟ أهو اتجاه الاندفاع أم اتجاه الفرار ؟ وهل يرتفع الجبناء ، إلى مستوى الأبطال ، أم ينجرف الابطال بموجة الهلع ؟ وهل ستحدث عدوى الشجاعة أم عدوى الخوف ؟ إن كل ذلك مرتبط بالظروف ، وينبغي ألا نعتمد كثيراً على الزعماء (القياديين) لفرض توجيه في الاتجاه السليم ، لأننا نعلم أن منطقة عملهم محدودة جداً . انهم قادرون على دفع الجماعة إلى أمام في موقعة قتالية قصيرة متوسطة الأهمية ، كالأستيلاء على الباستيل ، إلا أنهم قادة سيئون في هجوم عصري كبير .

II - من الجماعة الى القطعة

هناك جماعات من مختلف الأنواع . بعضها غير متجانس ومؤقت (غير ثابت) ، كجمهرة كبيرة من الناس اجتمعت بمحض الصدفة ، في لحظة معينة ، وفي مكان معين ، والبعض الآخر متجانس وثابت . وللأفراد الذين يؤلفون الجماعات بصورة مشتركة ، وحدة ايمان ديني أو سياسي ، ونوع من التشابه في الوظيفة ، وطراز المعيشة (طبقة بورجوازية ، عمالية ، فلاحية ، جمعية سياسية أو مهنية الخ . . .) .

أما القطعة فهي جماعة متجانسة وثابتة . وهي تملك ، بدلاً من الزعماء (القياديين) قادة معينين بالنظر لكفاءتهم ، لهم حقوق وواجبات محددة ، وهيبة تعتمد على رتبتهم ، ويملكون وسائل شرعية لضبط قطعتهم . وعندما تكون الدولة صحية ، فإنها تحاول كسب المواطن مسبقاً ، والتأثير عليه لأنه جندي المستقبل ، ولأن عليه خدمة الواجب العسكري المقدس . ويرهن هذا المواطن شرفه الشخصي ، بشكل يخلق ميلاً خفياً لإتمام هذا الواجب . وكل قطعة تتمفصل وتتدرب وتتجهز ، تبعاً للدور الذي يقع على عاتقها في المعركة . وقبل ان يعرف أفراد القطعة الآلام والأخطار المشتركة ، فإنهم يكونون قد تكيفوا على الحياة المشتركة ، فهم « يأكلون الحساء معاً » كما قال نابليون ، ويعرفون روابط الزمالة التي تنسج الجهد الجماعي .

وتجد القطعة نفسها مزودة بالعقل والذاكرة والارادة بوجود القائد على رأسها ، وتزود بكل القدرات التي لا تلعب أي دور في قيادة جماعة غير منتظمة . فللقطعة رأس ، أليس هذا هو المعنى الأصلي لكلمة رئيس (من ناحية أصل الكلمة) ؟ ويلعب القائد ، إزاء قطعته الدور الذي يلعبه المخ النفسي في الفرد ، وهو دور معدِّل الخيال ودليله .

ويمكن بالاضافة الى ذلك ، قيادة القطعة بشكل أفضل من قيادة جماعة غير منظمة ،. ويرجع ذلك إلى تجانس القطعة وانضباطها ، وتربيتها ، وتمفصلها ، وباندماج بناء قيادي في كتلتها ، ووجود شبكة لنقل الأوامر والمعلومات . فالأثر المعنوي فيها « سريع ومباشر ، ويطير كهربائياً من السبب الى الانطباع (من المنبهات الى الاستجابات) » .[1] فالتقليد الاجتماعي ، يتقدم في القطعة وينمو ويوجه إلى أقصى ما يمكن . وتتألف الكتلة البشرية من كائنات ضعيفة ، تتكيف بصورة رائعة ، ويقع « اللافعّالون » (الذين عناهم ريبو في دراسته) ، تحت تأثير « أقوياء الشخصية » وأنصار العمل . وكل قطعة مرتبة بشكل يكون معه « أقوياء الشخصية » قادة مكلفين بضرب المثل الرائع . ويقول ثوسيديد : « يقاتل الجنود من أجل القادة ويقاتل القادة من أجل النصر » . ومحاكاة المثل الذي يعطيه القائد وتقليده ، يُدعم ويُكمل إذا دعت الضرورة بواسطة الزام الانضباط الصريح ، هذا الانضباط الذي قال دوبيك « ان دوره في الغالب ، هو اجبار الناس على القتال رغماً عنهم » . ان الشخصيات الفردية القادرة على التضحية بذواتها في سبيل مثل أعلى،واضح هم القادة أو الرجال الجديرون بأن يكونوا قادة . إن هؤلاء الأفراد خميرة العجينة ، انهم نادرون جداً ، ولكنهم يصنعون

---

(١) دوبراك .

قيمة هذه العجينة . ان مَثَلَهُم الذي يدعو إلى المحاكاة والتقليد ، يرفع الأفراد المتوسطين المقيدين بحزام الانضباط ، ولا يحرك قيمتهم المعنوية فحسب ، بل يحرك أيضاً قوتهم البدنية[1] . وقد كانت الأهداف السياسية للتنظيمات وللتربية العسكرية في كل الأزمان ، مساعدة هذا الاستقطاب نحو أفضل الرجال وأقواهم .

لا يتمتع الجندي في القتال المعاصر ، بنفس الفاعلية والحماية المباشرة اللتين كان يتمتع بهما في العهود الماضية . انه لم يعد فعالاً ومحمياً بقوته الجسمية وتفوق أسلحته ومهارته في استخدامها ، ولكنه يجد عزاء قوياً في وجوده مندمجاً ضمن اطار جماعةٍ مقادة بصورة جيدة ، جماعة متماسكة ومدربة ومسلحة تسليحاً قوياً ، ويتمتع باليقين بأنه وقادته ورفاقه يعرفون دورهم الخاص ، وأنهم مصممون على القيام به ، ويمتلكون وسائل تنفيذه . ان كل هذا يوحي للجندي المعاصر بالثقة في الحماية الجماعية التي تضمن حياته ، وتعينه إلى حد كبير على التحكم بانفعالات الخوف .

وقد أكدت في الفصول السابقة ، على الأهمية الرئيسية للشعور بالشرف في تنمية الشجاعة العسكرية وتطويرها . لكن القطعة بيت دافىء لزراعة هذا النبات الثمين ، وعندما تعي القطعة ، بواسطة روح القطعة ، خصوصيتها الجماعية ، يصبح الفرار والتخاذل والضعف أموراً مشينة ، ويطالب كل فرد من أفراد القطعة بامكانية الاعتماد على اخلاص الجميع ، ويتطلع إلى ثقة الآخرين وتقديرهم ، وتقوم بين أفراد القطعة قواعدلا يستطيع أي فرد الابتعاد عنها ، دون ان يتعرض للازدراء . وبما ان الحياة في القطعة مشتركة ، فإن الاحساس بالشرف ينمو بسرعة ، لأن كل واحد يجد في الجماعة في كل لحظة : مثلاً ، ودعماً ، وتشجيعاً ، ومراقبة ، وجزاءات . لقد قال رونوفييه : « الرجل الشريف ، هو الرجل الذي يتطابق مع القطعة ، ويشكل جزءاً متمماً لها . . إنه الرجل الذي قيد مصلحته الخاصة بقانون القطعة . . . إنه ينظر إلى نفسه ـ اذا جاز القول ـ كصاحب مصلحة ضد نفسه ، ويحمل اعتباراً لا يعود اليه كفرد من الأفراد . . . انه يغار على القطعة ، ويراقب روح القطعة لدى الآخرين . فالقطعة مستودع مقدس ، أُودع من قبل الجميع بحراسة كل فرد ، ويحترمه ويقدره كل فرد كأنه للجميع ، ويعتني به كأنه لكل فرد » . فالشرف قد يولد اذن من روح القطعة .

---

(١) إننا نعرف القصة المعبرة ، التي تتحدث عن الانقضاض على قلعة سان ـ فيليب ، في بورت ـ ماهون ، من قبل قطعات المارشال دو ريشيليو . وكان ذلك الانقضاض يتطلب تسلق سور صخري . وكانت السلالم قصيرة . ومع ذلك ، تسلق بعض الجنود على اكتاف البعض الآخر ، وتوصلوا الى الهدف . وبعد عدة ايام أراد المارشال تكرار هذه العملية بعيداً عن المعركة ، إلا ان الجنود الذين نفذوها تحت نار العدو لم ينجحوا في تنفيذها .

وللقطعات العسكرية قوة هائلة على الامتصاص ، فهي تحتوي وتتمثّل بسرعة السمات الفردية للشبان ، وتشذب نفوسهم بسرعة،حتى انها تبدل مظهرهم البدني .

وهكذا فإن قطعة متماسكة ومعتادة على الحرب ، تستطيع في الميدان دون أن تتأثر ميزاتها تأثراً واضحاً ، امتصاص نسبة كبيرة من المجندين ، المدربين تدريباً عادياً ، أو امتصاص عناصر ذات قيمة معنوية ضعيفة . ان روح القطعة ، إذا كانت عنيفة وقوية ، تملك قوة مغنطة وتمثّل ، تستطيع أن تضم وتهضم كل شيء تقريباً(١) . ولكي نخلق روح القطعة ونطورها ، وبخاصة في زمن السلم ، نحتاج إلى كادرات جيدة ، وتنظيم رصين ، ووقت ، واجتهاد ، وكثير من الانضباط والتدريب . إلا أن قدرة القطعة المتينة على امتصاص عناصر متوسطة ، دون أن يسيء ذلك إليها ، يجب ألاّ تدفعنا إلى ارتجال وانشاء قطعة من عناصر مجمعة من هنا وهناك .

ومهما يكن من أمر ، فإن قائد قطعة من القطعات ، جدير بهذا الاسم ، يستخدم مادة مطيعة أكثر من الجماعة ، ويملك رافعات أقوى وأضمن مما يملكه الزعيم . ان قوة عدوى التقليد بين يديه مضاعفة ومحمية ضد الانحرافات ، وروح القطعة ، المولدة للشعور بالشرف ، تسمح بخلق ثقة ، تختلف عن الثقة الهشة السائدة في الجماعات ، بأنها ثقة ثابتة لا تتبدد في الصدمات الأولى للعمل . وتستطيع القطعة عند اللزوم أن تسعى الى تحقيق الأهداف البعيدة الصعبة المليئة بالمخاطر ، وهذا عمل لا تقدر عليه الجماعة . والقطعة بالنسبة إلى الجماعة ، كالشجاع بالنسبة إلى الجبان . ولكن القطعة في النهاية مجموعة بشرية ، وهي قابلة للفناء والزوال ككل ما هو بشري ، فاذا هزل عمل القيادة ، رأت القطعة فضائلها تنحدر وتهبط ، حتى تصبح وكأنها جماعة ، إلا اذا ظهر من بين صفوفها في تلك اللحظة قائد موهوب .

* * *

لقد قلت في فصل سابق ، ان ما يجابه وابل النيران في المعركة هي روح القطعة ، لا روح المقاتل المتبدلة المتحركة القابلة للانفعال. ولكن هل تتكون روح القطعة من معدن أصلب ؟ نعم ! بالتأكيد . فالروح الفردية باندماجها في روح الجماعة تفقد كثيراً من فضائلها ، ولكنها تربح قوة ، ثم تكتسب جدارة فكرية ومعنوية غالباً ما تكون أعلى

---

(١) لاحظ الجنرال جورج مارشال في تقريره عن نهاية العمليات ، ان فرقة جديدة تحتاج الى اكثر من عام لتتشكل تشكيلاً جديداً . وعندما تشتبك بالقتال ، يمكن اتمامها وتعبئة ملاكاتها بمجندين مدربين في مدة ١٧ اسبوعاً ، دون ان يخفض ذلك من قيمتها بصورة كبيرة .

من جدارتها الخاصة ، منذ أن تنقلب الجماعة الى قطعة عسكرية . وفي إطار هذه القطعة ، تتضاعف عدوى السيكولوجية الجماعية ، والعمل الاستقطابي للقائد ، والاستقرار في القوى الروحية للفرد . وتثبت هذا الاستقرار وتوجهه ، والقطعة التي تحافظ على كيانها كقطعة ، أكثر شجاعة ، واحد ذكاء،وأشد ثباتاً ، من مجموع الأفراد الذين تتشكل منهم .

فكيف يتحول معدن الرصاص التافه الى ذهب خالص ؟ إنه يتحول بتدخل السلطة ، التي تقلب الجماعة الى قطعة عسكرية . وقبل ان ندرس سلوك روح القطعة في ميدان القتال ، من المناسب ان ننتبه إلى أصل هذه السلطة وعملها .

الفصل الخامس

ميلاد السلطة واستخدامها

« هذا الفن ، فن معرفة الرجال . . . يتعلمه المـرء بنفسـه ، دون أن يُـدرّس لـه » .
(لويس الرابع عشر)

لكي تعمل جماعة من الجماعات ، ينبغي ان يكون فرد من الأفراد قد قرر مسبقاً اتجاه العمل وطرقه ، ثم فرض هذا القرار . وهذا الفرد هو (تبعاًللحالة)زعيم أو قائد . وكل تعاون ، يضمر ضمناً سلطة ما . فالعمال لا يتعاونون بشكل مجرد ، إنما يتعاونون في عمل مشترك ، يفترض وجود معلم .

وليّست السلطة ضرورية في أي مكان كالحرب . ويحس المقاتل بذلك ، وربما كان احساسه مشوشاً أو مرتبكاً ، إلا أن احساسه بضرورة السلطة قوي لا ريب فيه . ونحن نعرف القصة المؤثرة لحرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ، عندما فقدت جماعة من المشاة ، متمركزة في حفر القنابل ، ضابطها أثناء الانقضاض . فرفع أحدهم صوته قائلاً بشيء من التردد ، انه سيستلم قيادة الجماعة ، فارتفعت همهمة عنيفة على بضعة امتار : « دعنا وشأننا استلم القيادة ! » . وبعبارات أنبل ، كان دوفينيي de Vigny قد عبر عن هذا التعطش للسلطة الذي تفرضه المعركة بقوله : « إن أفضل مساعد يستطيع ان يجده الانضباط ، هو الخطر . فعندما يتعرض الجميع للخطر ، يسكت كل فرد ، ويتعلق الكل بأول رجل يعطي أمراً أو يقدم مثلاً مفيداً » .

إن الأخطار التي تتعرض لها القطعة العسكرية في القتال ، وقسوة واجبها الذي يصل الى مستوى التجرد الكامل ، وتعدد وقوة أسباب التفتت المعنوي الذي ينبغي عليها مواجهته ، كل هذا يتطلب سلطة قوية جداً ، تفرض قواعد محدودة قاسية ثابتة . إن الزعيم المنتقى من قبل أتباعه ، لا يستطيع ان يقوم بمثل هذه الأعمال . فنحن نعلم ان سلطته هشة ، مشروطة ، مؤقتة ، وهو لا يفعل سوى دفع الجماعة في الاتجاه الذي ينبغي أن تتجه اليه ، وهذا المكان في الحرب هو مدخل الموت ، الذي تنفر غريزة

المحافظة على البقاء منه ، وتقاومه بعنف . وتحتاج القطعة لقائد يقودها اليه ، إلى قائد حقيقي ، يتمتع بسلطة أصلها مستقل .

ولكن ، عندما يعين هذا القائد من سلطة عليا ، ما هي الوسائل التي يتلقاها ليمارس وظيفته ؟ انها الوسائل الوحيدة التي تقدمها أنظمة الانضباط العسكري ، الذي يعتبر فن دعم الشجاعة بالاكراه ، ويكفي أن نلقي نظرة على الجدول الذي يقدمه الانضباط لنلاحظ عدم كفايته ، بل وسخفه أيضاً . فكيف ذلك ! ها هي جماعات من عدة مئات أو آلاف من الرجال المسلحين ، لديهم إمكانية معارضة أي قرار قد يؤدي الى موتهم ، ولكنهم ينحنون أمام إرادة قبضة من الأفراد ، زينت ثيابهم بالرتب والنجوم . فلا شك ان حصول هؤلاء القادة على مثل هذه النتيجة ناجم عن أنهم صادفوا في نفس القطعة نوعاً من المشاركة الضمنية . وهم يجدون هذه المشاركة ، في الواقع ، بفضل العوامل المعنوية والفكرية التي تحرك لدى المرؤوسين شعوراً إلزامياً خفياً .

إن السلطة الحقيقية ، هي السلطة التي تؤثر على روح القطعة ، لتثير فيها طاعة فعالة ، لكن هذه السلطة لا تفرض من قبل الرؤساء ، كالقدرة على إلزام الوحدات ، إنها سلطة تؤخذ . والقائد الحقيقي ، لا يفرض من الأعلى فرضاً ، وانما يفرض نفسه بنفسه . ان تعيينه لا يفعل سوى أن يضعه في وضع أفضل ، كي يكتسب السلطة الحقيقية ، وقطعته وحدها تعيد اليه السلطة ، عندما تمنحه ثقتها المضمرة والكاملة ، منحنية أمام حقه في الرؤية ، والتفكير ، والتقرير ، نيابة عن الجميع . ولا تستطيع القطعة تعيين القائد لكنها تكرّسه .

ينبغي ألا نعتقد أن بإمكان القائد أن يكرّس نفسه بفضل المساعدات والوعود ، أو بفضل مجموعة من الخدع « الديماغوجية » التي يتقنها المرشحون للانتخابات . لأن مثل هذه الحيل لا تنطلي على الجنود ، فهم يحسون إحساساً غامضاً ، بأن الموضوع أخطر بكثير من مجرد تعيين ممثل أو مفوض بالسلطة . ان الموضوع يتعلق بحياتهم ، وهم يكوّنون حكمهم عليه على هذا الأساس . وقد يكون هذا الحكم مُضمراً ، إلا أنه رصين وقاسٍ . وقد قال براك ما يلي : « لا ينبغي ان يترك القائد الجندي يتحدث عنه بأنه ولد طيب ، لأن مثل هذه الكلمة تضمر الضعف ، ولكن ينبغي ان يجعله يقول عنه : انه عادل ، انه انساني ، انه أب الجندي ، ولكن ينبغي أن لا نقصّر بحقه ، لأنه لا يقصر بحق أحد » . والسلطة الحقيقية بعيدة جداً عن الديماغوجية ، كما هي بعيدة جداً عن التحيّز . ولا يغزو القائد قلب قطعته غزواً كاملاً ، الا عندما تحس هذه القطعة

بأنه يعمل لصالحها ، ولصالح قضية تتجاوزهما معاً ، ولا يعرف العدد الأكبر من أفراد القطعة ، بصورة واضحة جداً ، لماذا يعمل ، كما لا يعرفون المثل الأعلى الذي يحرك القادة ، ولا يميزونه بوضوح إلا مجسماً فيهم .

كان نابليون يقول : « إن أساس السلطة كامن في مصلحة الفرد الذي يطيع » . وتدرك القطعة هذه المصلحة بوضوح ، عندما يكون القائد ماهراً في فنه ،وصائباً في قراراته . ويكون ادراك القطعة أقوى وأسرع ، عندما يمزج القائد عمله بشيء من الحب ، وعندما يعرف كيف يحنو على رجاله ، ويتقرب منهم ، ويهتم بمطالبهم الخاصة ، بما فيها أبسط المطالب المادية[1] ، وعندما يعرف القائد تنظيم اقتران الدوافع الأنانية ، والمطامح المجردة ، بالعمل على تهيئة الراحة المادية للمرؤوسين ، بغية الحصول على مساندتهم لغاية سامية جداً . وكان نابليون يؤنب بقسوة جنرالاته الذين ينسون ذلك قائلاً : « ان الرجل الذي لا يقيم اعتباراً لحاجات الجندي ، لا ينبغي أبداً أن يقوده . . . . إن اهمال الادارة واحتقارها هما في الغالب احتقار الرجال وازدراؤهم » . وكان حسه النفسي الذي لا يقارن ، قد كشف له أن قسوة الانضباط نفسها تجعل :« الجندي ، من بين كل الرجال ، اكثر حساسية تجاه المعاملة الحسنة » . ولكي يكون القائد معبوداً من الجندي ، يكفي أن يكون عادلاً معه ، وان يحبه دون أن يُغرق في العاطفة المفرطة . ان السلطة الحقيقية سلطة حازمة ، تكافىء بكرم وتعاقب بشدة ، والسلطة التي تقتر بالمديح والتأنيب سلطة فاشلة . وتبقى الصلاحيات والعدالة والحب الشروط الأولية للممارسة الفعالة والرصينة للسلطة القوية .

ينبغي أن تكون سلطة القائد العسكري واسعة ، وأكثر اتساعاً وعمقاً من سلطة أي قائد آخر ، لأن على القائد العسكري قيادة الرجال الى الموت ، رغم مراوغات ومقاومة غريزة المحافظة على البقاء . ولكن السلطة لا تكون على هذه الشاكلة ، إلا اذا بدا بوضوح ان القائد يمارسها ، لا لفائدة ومجد شخصيين ، بل إخلاصاً لقضية تتجاوزه هو ايضاً . حقاً ! هناك أخطار انحراف وشعوذة ، وقد يتعرض القائد الذي لا يتمتع بروح قوية ومستقيمة ، للاغراء بتحويل السلطة الى خدمة طموحه الشخصي ، وللحصول على نتائج لا تتطلبها المصلحة العامة ، بل تحكمها رغبة في النجاح واكتساب

---

(١) « الجيش كتاب جيد لا بد من فتحه من أجل معرفة الانسانية ، ففيه يتعلم المرء ان يفعل كل شيء ، من أدنى الأشياء الى أكثرها سمواً . وفيه يضطر أغنى الناس وأكثرهم رقة الى رؤية حياة الفقر عن كثب ، بل والتعايش معها » (أ . دوفيني : متاعب الحياة العسكرية وعظمتها) .

سمعة شخصية . ومع ذلك فإن مثل هذه الأخطار أقل جسامة مما يمكن أن نتصور . فهناك نوعان من الطموح : الأول متوسط لا يصعد إلى القمم إلا نادراً ، وينتمي إليه في الحقيقة عدد كبير من الناس ، الذين يفتشون عما يكسبون من السلطة من مميزات وأمجاد . والثاني طموح أكثر ندرة من الأول ، وأكثر قوة وأشد نبلاً ، فهو خاص بالأفراد الراغبين في السلطة للتأثير على الأحداث ، ولخلق عمل عظيم يضعون به بصماتهم على المستقبل . وهذا الطموح حاجة ، إذا ما لُبيِّت لأولئك الذين يملكون روح القائد الحقيقية ، أدت إلى تمتع مستقل عن المكاسب الناتجة عن العمل والابتكار . فالنجاح الذي يجري وراءه الفرد ذو الطموح العادي ، نجاح فردي أناني ، ليس له أية صلة بالمصلحة العامة . وعلى العكس ، بما أن العمل العظيم هو عمل جماعي ، بالضرورة ، فإن على الطموح المتفوق الذي يستهدف تحقيق هذا العمل ، أن يحيط نفسه بمجموعة من الأفراد . ولا يستطيع المحافظة بصورة دائمة على هذه الحزمة من الارادات والذكاء ، دون أن يقدم لها هدفاً يتجاوز الأفراد . ولهذا السبب ، يميل الطموح المتفوق ، لحد ما إرادياً وشعورياً ، نحو المصلحة العامة ، وينتهي العمل العظيم بأن يلحق به صانعه .

ولا أنكر ، ان السلطة قد تخطىء في بعض الأحيان ، كما لا أنكر ابداً أن الانحناء أمام خطأ القائد ، رغم ثقتنا المطلقة بصحة رأينا ، أمر شاق جداً . ومع ذلك فإن هذا الخضوع واجب وحكمة . ان رفض الخضوع يعني إعاقة العمل الجماعي وشلّه . وبما أن الخضوع في الحرب مفروض بشكل حتمي ، فمن الأفضل للفرد القبول بالخطأ مع الآخرين ، بدلاً من العناد منفرداً ، والسقوط وسط العطالة والعجز . ان ضرورة العمل الجماعي هي التبرير الأعلى ، والتبرير المناسب للانضباط . ولكن عندما لا يُمجِّدُ الانضباط بشرف الخدمة ، يصبح هذا الانضباط مجرد زهو زائف كامن ، مؤهل دوماً لرفع رؤوس متمردة .

وإذا كانت السلطة ، في كل لحظة ، خاضعة للانحرافات أو ارتكاب الأخطاء ، فإنها معرضة أيضاً للتقادم والشيخوخة ، وعلى كل قائد أن يأخذ حذره من ذلك كلما تقدم به السن . وقد تميل السلطة إلى التكلس نتيجة ممارسة طويلة ، ويفكر صاحبها بالمحافظة عليها بأقل التكاليف ، وهو الذي حصل عليها في الماضي نتيجة جهده المتوتر . ولكن هذا الجهد الذي بذله في الماضي للحصول على السلطة يبدو له احتراماً واجباً لشخصه ، ويبدو له مركزه ضمانة كافية لعصمته وبراءته من كل خطأ . ان التبجح والكسل ، هاتين الصفتين الخاصتين بمعظم الرجال ، تقنعانه بذلك . إلا أن المحافظة

على السلطة تتم بنفس الوسائل التي استخدمت للحصول عليها . وعلى القائد ان يلتحم مع قطعته ، سواء أراد ذلك أم لا . فهو لا يستطيع الانعزال في برج عاجي ، دون التعرض للأخطار . كما ان الزهد ، وصفاء الذهن ، وهدوء الأعصاب ؛ لا تشكل لوحدها علامات القائد . فلكي نقود جيداً ، ينبغي أن تكون روحنا فتية وشابة .

ولا يمكن لفرد من الأفراد ان يكون قائداً حقيقياً ، إلا اذا كان عميق الجذور في شعبه وفي قطعته ، ويعيش بصورة كاملة أحداثها المصيرية ، حتى في احلك اللحظات المؤلمة من المعركة . انه لا يمكن ان يكون قائداً حقيقياً ، إلا اذا أحسسنا في قلبه كل نبضات قطعته ، التي لا ينعزل عنها ، ولا ينكفىء على ذاته إلا للحظة قصيرة ، هي اللحظة التي يتخذ فيها قراره . ان هذا التلاحم بين القطعة والقائد شيء لا غنى عنه ، لأن على القائد أن يبقى شفيع قطعته بلا انقطاع . ان القطعة التي لم تزل فيها بعض صفات الجماعة ، عبارة عن قطعة قليلة الحساسية للغة العقل ، فهي لا تسمع جيداً إلا لغة الأهواء والاحساسات ، ولغة المصلحة بصورة ثانوية . ولكن الواجب يدعو الى قيادتها نحو اهداف معينة ، وهذا ما يتطلب منا أن نجعل الذكاء يتركب مع قوى غريبة عنه . ان الصعوبة الرئيسية التي تلاقيها القيادة ، هي قيادة جماعة لا تسمع جيداً إلا الأصوات العاطفية ، على طرق رسمها عقل هذه القيادة . فهناك اذن مشكلة دائمة أمامها ، تتمثل بترجمة مشاعرها ، وهي تتعرض أيضاً إلى الإغراء ، لأن اضطرار القيادة للتحدث بنغمة الهوى والتحيز ، والبساطة ، والمبالغة التي تتطلبها ، يجب ألّا يسمح لها بأن تفكر بنفس هذا المستوى . ان الهجوم مثلاً هو أفضل المواقف لمعنويات القطعة . وما ان يقرر هذا الهجوم حتى يغدو من الضروري الاستمرار فيه بإصرار وحزم حتى النهاية ، مهما كانت حدته ، سواء كانت أهدافه محدودة أم واسعة حاسمة . ولكن من الحماقة بالنسبة إلى القائد (ولقد حصل هذا فعلاً) ، ان يستنتج من ذلك ضرورة الهجوم في كل مكان دائماً ودون حدود .

ولكي ندفع جماعة من الجنود إلى العمل ، لا تكفي المحاكمة المنطقية والرؤية الواضحة للأمور فحسب ، بل ينبغي تحريك المشاعر والأهواء ، لكي نؤكد فكرة، أو لحماية حقيقة من الحقائق . ونحن لا نستطيع التأثير في جماعة من الجماعات إلا بالمبالغة والتبسيط ، علماً بأن الوضع قد يفرض العودة إلى الوراء ، وتبديلات في الاتجاه ، وحلولاً وسطاً . وهكذا فإن على القائد أن يرسم بعدد محدد من الألوان . أشكالاً وصوراً متنوعة ومتباينة . ولا يستطيع التوصل إلى ذلك إلا باحساس صحيح وعميق

لردود الفعل عند الجندي والقطعة ، ومهارة بالغة في تحريكهما . وبكلمة واحدة ، ينبغي على القائد ان يتحلى « بهذا القسط السامي من الفن ، الذي يفترض معرفة القلب الانساني ، المتسم بحركات سريعة وعجيبة » (مارمون) .

فاذا ما تشبع الفكر بالأفكار ، تغذى لا شعور القطعة بصور متعددة ، والصور هي التي تدفع إلى العمل . ويتخذ القائد قراره بدوافع عقلانية ، ولكن ينبغي عليه أن يبتكر ، وأن ينتقي الأساطير التي سيوحي بها الى قطعته . ولن يتوصل إلى ذلك إلا إذا كان زعيماً إلى حد ما ، أي إذا كان يعرف كيف يفتن ويغوي ليقود ، ويعرف كيف يوفق بين المخاطرة والأمل.، ويتقن استخدام انحدار الأرض ، وان يقنع قطعته بأنها تريد الواجب ، وان ينظم عند الحاجة توافق هذا الواجب مع دوافع القطعة . وهذا ما كان يعبر عنه ليوتي بقوله : « اني لا افهم القيادة إلا تحت الشكل الشخصي والمباشر للوجود في مكان العمل ، والبدء بالتنفيذ بالخطب ، وبالسحر الشخصي ، وبالاتصال البصري والسمعي ، وبالايمان ، وبالحماسة » . ولقد شرح نابليون ذلك بصورة موجزة قائلاً : « ينبغي على القائد أن يكون دجالاً ، وعلى الزعيم أن يكون بائع أماني » . وليست الدعاية ، وهي الاسم الحالي لتجارة الآمال والأماني ، إلا عدداً مضروباً فيه ، ولهذا العدد حدود . فإذا كانت الحقيقة دنيئة أومعدومة ، فإن الحاصل لا يمكن ان يكون كبيراً ، ويصبح من الأجرام وقلة الشرف محاولة اقناع القطعة بها . ولكن اضطرار السلطة الى استخدام الوهم يعرضها الى أكبر الأخطار المعنوية ، لأنه ما ان يتوقف فكر القائد عن الوضوح والحزم ، حتى يدفعه اغراء السهولة في تياره ، ويصبح الالتباس سهلاً بين وسائل التأثير على القطعة والهدف الذي يعينه الواجب والعقل .

وهكذا تتبدى ، في الضوء ضرورة وجود بنية معنوية قوية للقائد . كما تتبدى بشكل خاص ضرورة تحليه بشرف وأمانة مطلقين . وتفترض مثل هذه الصفات الفكرية ان تتعايش مع ذكاء واسع ، مستقيم وواضح . ولقد قال مولتكه : « ان صفات الشخصية تؤثر بثقلها ، في الحرب ، اكثر من ثقل الذكاء » . ان كلمة « تؤثر بثقلها اكثر » لا ترضيني رضىً كاملاً ، فهي موجزة ووحيدة الجانب ، وأفضل عليها كلمة نابليون الذي كان يريد قادة « مربعين » لهم (من قوة الشخصية بقدر ما لهم من فكر) . وأُفضل على كلمة نابليون ، الصيغة العذبة للشيخ الحكيم لانو : « ان كوني جندياً امر عظيم ، ولكنه يصبح أكثر عظمة ، اذا ما ضممت الى هذه الصفة صفة الحكمة » . اذ كان يعني بهذه الكلمة توازناًفكرياًومزاجياً صحيحاً . ان ضرورة هذا التوازن إلزامية ، لأن الرجل الذي يستلم منصباً يتجاوز مستواه ، لا يلبث ان ينحني

وتنهار بنيته المعنوية . ومثله كمثل رجل يقود لواءً بشكل مشرف ، ثم يتصرف بدون جرأة عند استلام قيادة جيش ، ويضعف تحت ثقل مهمة أكبر من طاقته[١] ، حتى يصل به الحال الى اعطاء ونقل أوامر غير قابلة للتنفيذ ، وهو بذلك عليم ، مرتكباً بذلك أجبن عمل يمكن أن يقدم عليه قائد ، لأنه يغطي نفسه بأجساد مرؤوسيه ، ويفرض عليهم الكذب . ولقد قال نابليون : « ان أسوأ عمل لا أخلاقي يرتكبه فرد من الافراد ، هو القيام بمهنة لا يتقنها » . وهنالك أعمال لا أخلاقية اخرى تنتج عن ذلك ، تقع مسؤوليتها دون جدال على الشخص غير القادر وغير الكفء ، لأن من غير الممكن أبداً الوصول الى المناصب الكبرى ، دون السعي الى ذلك ولو جزئياً .

ومن بين الفضائل الضرورية للقائد ، تتقدم الشجاعة بالطبع الى المرتبة الأولى . والشجاعة البدنية في بادىء الأمر ، لأنها الوحيدة التي لها الحق بالقيادة ، وتعرف كيف تضرب المثل . وليس هناك طريقتان لتعليم الآخرين كيف يموتون ، جيداً ، انها طريقة واحدة ، وهي التعرض للموت معهم . ولكن ربما كان من غير الضروري أن ألح على فضيلة اعطاء المثل بعد العرض الطويل الذي قدمته فيما سبق ، عن قوة العدوى في القطعة وسط ميدان القتال . ومن الممكن أن ندرك ما هي هذه القوة ، وخاصة في أوقات الأزمات ، حيث تنتقل العيون لتتركز على القائد . ونستطيع ان ندرك التأثير الذي تمارسه هيبة القائد ، بفضل هدوئه ومظهره الدال على السيطرة على نفسه[٢] .

بيد أن الشجاعة البدنية لا تكفي ، فهناك شجاعة أخرى أصعب ، تتزايد أهميتها مع ارتفاع الرتبة ، حتى تصبح أساسية : إنها الشجاعة المعنوية ، شجاعة اتخاذ القرارات الحاسمة ، وتنكب المسؤوليات . وتفترض هذه الشجاعة اتساع الحكم وقوته وسداده ، مع التحلي بقوة النفس . ووجود مثل هذه الشجاعة أصعب وأندر من وجود الشجاعة البدنية ، وعلى كل حال ، فهي شجاعة مستقلة استقلالاً كاملاً عن الشجاعة البدنية . ولقد لاحظ ستاندال : « ان الجنرالات الذين يفتقرون الى الطاقة في مهنتهم ، والذين يرتعدون خوفاً من المخاطرة بسمعتهم عن طريق دفع كتيبة إلى الأمام ، يعتقدون أن بإمكانهم التعويض ، عما يفتقرون إليه ، باندفاع شخصي متهور » .

وتتطلب الشجاعة المعنوية استقامة فكرية كاملة ، لأن القائد قد يجد نفسه مدفوعاً إلى اتخاذ قرارات قادرة على تأمين بعض النتائج الفورية الناجحة ظاهرياً ،

(١) « انه يلمع في الصف الثاني ، ولا يظهر في الصف الأول » (فولتير : لاهنرياد) .

(٢) ليوناردو دافينشي .

وتحقيق نجاحه الشخصي وسمعته ، مع علمه بأنها سيئة التأثير على مجموع النتائج في المستقبل . فأية قوة نفسية يحتاجها في هذه اللحظات ؟ وعلى كل حال ، ينبغي عليه أن يرسم لنفسه قاعدة سلوكية معروفة منذ زمن طويل ، وتتمثل في أن يفضل المستقبل على الحاضر ، وان يختار في ضباب الشك أصعب الواجبات وأكثرها خطراً ، وأن يفكر مع غوته : « ان الله لا يدفع الأجر كل اسبوع » . وينبغي أن تكون الشجاعة المعنوية للقائد موجودة في اللحظات كلها ، انها « شجاعة الساعة الثانية صباحاً » (نابليون) . وهي نادرة جداً ، لأنها « شجاعة اللحظات المفاجئة ، التي تؤمن للمرء حرية الحكم والقرار الكاملين ، رغم كل الأحداث غير المنتظرة » .

ان تعداد كل الصفات الضرورية للقائد أمر غير مجدٍ ، فهي تظهر بصورة عامة بفضل متضادتين وبعض الأمور المتممة . . انها فضائل التوازن . فعلى القائد أن يكون كالنابض مرناً وقوياً بآن معاً . وينبغي عليه أن يكون جريئاً وعاقلاً في الوقت نفسه ، لأن التعقل هو ضمانته أمام الوضع المريب ، وتجاه حالات التعب واللامبالاة والكسل ، التي تعانيها قطعته العسكرية . وعليه أن يكون قادراً على إعطاء أوامر تقود جنوداً الى الموت ، وألّا يتأثر أمام أشنع المناظر[1] . ومع ذلك ، ينبغي عليه ان يتجنب تعريض جنوده للموت ، اذا لم تكن هناك ضرورات عسكرية لذلك [2] .

وعلى القائد أن يطلب الى جنوده بذل حياتهم دون تردد ، ولكن بكل تعقل ، وان يحبهم بقلب كريم ، وأن يأمرهم ككائنات تتألم وتفكر ، وألا يعاملهم كآلات أو ككائنات بلا شخصية اشترى جهودها ومخاطرها . وعليه ان يسيطر دون أن يهين أو يذل ، (فالمرؤوسون كالأطفال لا يفهمون السخرية) ، ومن واجبه ان يحدث مرؤوسيه كما يحدث الرجال ، وأن يساعدهم في مشاكلهم وآلامهم ، وان يجعلهم يشاركون في العمل الذي شرع فيه ، وان يراعي حساسيتهم ، التي قد تنكمش وتتقوقع عندما لا يحسون بالاهتمام الملائم بهم ، هذا الاهتمام الذي يعتقدون انه حق من حقوقهم ، أوعندما لا يستشارون مع اعتقادهم بقدرتهم على تقديم المشورة . كما ينبغي ان يفتح أمامهم كل إمكانات الترفيع والصعود التي تسمح بها مواهبهم . ان عليه ان

---

(١) « ان الذي لا ينظر الى ساحة المعركة بقلب قاسٍ ، يقتل جنوده دون جدوى »

(نابليون)

(٢) « القانون الأول في الحرب ، هو عدم تعريض الجندي للخطر ، عندما لايكون ذلك ضرورياً ، بغية تعريضه للخطر دون تحفظ عندما تتطلب الضرورة ذلك » .

(جيبير)

يكون حازماً ، قادراً على صدم وإقلاق بعض الأفراد والضرب على يدهم بشدة ، شريطة ان يعرف كيف يصفح عند اللزوم . وعليه ان يكون عادلاً في المكافأة والعقاب ، ولكن عليه ايضاً أن يفكر في المثل الذي يعمل كالخميرة في القطعة . وهكذا نرى القائد مضطراً ، في بعض الظروف الحرجة ، إلى إصدار العقوبة أو المكافأة بشكل عادل ، حتى عندما تكون معلوماته غير كافية .

ويحتاج القائد إلى الايمان بنفسه ، والحكم عليها بآن معاً[1] ، وان يكون فعالاً وقدرياً ، وواثقاً بغيره (لأنه لا يمكن للقائد ان يقود دون ان يثق بغيره بصفة مسبقة) ، وان يكون متحدياً (لأن الانسان يبقى إنساناً ، والأبطال قلة نادرة) ، وأن يكون متفائلاً بنتائج العمل ؛ ومتشائماً فيما يتعلق بظروف هذا العمل . وينبغي عليه ان يحكم على اداته بوضوح وكرم ، وان يعرف ان العجينة التي بيده عجينة خائفة وشجاعة في الوقت نفسه ، وغير مستقرة في ارادتها الحسنة القلقة ، وشجاعتها المتواترة . وهناك طرق تدفع القطعة لاقتحام الخطر كما يقتحم الحصان الخائف الحاجز ، ولا نستطيع ان نجد هذه الطرق إلا اذا كان لدينا حس دقيق عنيف بحالة القطعة النفسية ، وعرفنا كيف نكون كرماء وأبويين ، وكيف نتمتع في الوقت نفسه بقسوة وبعد نظر .

عندما نعرف مجموع هذه الصفات المتناقضة ، التي ينبغي على القائد الحقيقي ان يؤمن تركيبها ويوازنها في داخله ، نستطيع ان نفهم لماذا ترددت كلمة « الحكمة » غالباً في كتابات مؤلفينا القدماء الذين كتبوا عن القيادة. لقد كان شيشيرون يعرّف الخطيب بأنه: « الرجل الحكيم ، الماهر في الحديث » ، وإني لا أرى تعريفاً للقائد أفضل من التعريف التالي : « انه الرجل العاقل الذي يعرف كيف يقود » . انه الرجل الذي يتمتع بأخلاق شريفة وقلب مستقيم ، انه الرجل القوي في مشروعاته ، والحازم في الخطر ، والماهر في فنه ، انه صافي السريرة ، ومحب لمسؤولياته ، ويتمتع برؤية واضحة للصعوبات مع الارادة والتجرد اللذين لا بد منهما للتغلب عليها . انه سيد وعبد ، حصرته مسؤولية مزدوجة بين القيادة والطاعة . ان حالة هذا الرجل العاقل ، كحالة رجل باسكال ، فهو عظيم جداً وغارق في البؤس بآن معاً . انه يتمتع بسلطة مطلقة لا حدود لها على جنوده ، ولكن رجالاً آخرين يتمتعون بالسلطة ذاتها عليه . ويخضع القائد عبر رؤسائه لضرورة تتجاوز كل الأفراد ، ولكنه يتساوى أمام الخطر مع أصغر رجاله ، وهذا ما يجعل قسوته أخوية طيبة .

---

(١) الايمان بالنفس يخلق المعجزات ككل ايمان ، إلا ان كل إيمان ينبغي ان يكون مراقباً .

هل يمكن أن نقول ان هذا القائد انسان استثنائي ونادر ؟ نعم ، انه نادر اذا وصل الى مستوى الكمال . ولكن لا وجود عادة لقائد واحد ، فالقطعة مليئة بشبكة قيادة كاملة . انها مؤطرة بأسلوب تسلسلي ، وبقادة يعتمد بعضهم على البعض الآخر . ويعوض توازن هذا البناء الى حد ما السلبية الناجمة عن عدم كمال بعض أفراده . . . واخيراً . . . هناك المعونة الالهية . . . ان المسؤولية تحتل نفس القائد ، بمنعه عن التفكير بشيء من الاشياء فيما عدا مهمته ، وتعيد اليه الشجاعة بصورة أسهل من الجندي . ووسط اهتمامات القيادة ومشاغلها ، يقهر القائد الخوف ، ويصل الى وضوح الفكر وصفاء النفس ، هاتين الصفتين اللتين يجلبهما الانتصار الداخلي .

ومن أهم واجبات القائد ، انتقاء مرؤوسيه من القادة . وهو يبذل في هذا الواجب كل وجدانه وشرفه الفكري ، لأن عمله هذا هو انتقاء أحجار متينة لزوايا البناء الذي هو مهندسه وصاحبه . يقول نابليون : « كن الأعلى لمرؤوسيك ولا تكن منافساً لهم » . ويرجع قوله هذا الى انه كان يحس أن التكبر والحسد قد يؤديان في كثير من الأحيان إلى انحراف الموازين . ومن الدلائل الأكيدة على عظمة القائد اختياره معاونين كباراً . إلا أن اختيار هؤلاء المعاونين عمل شاق ، لأن كشف الشخصيات الضعيفة أمر من أصعب الأمور ، ولأن بعض الرجال المتوسطين ، الذين تتجه مهارتهم وموهبتهم المتواضعة نحو أهداف صغيرة وأنانية ، يعرفون كيف يتقدمون في عملية البحث عن المناصب ، ويسبقون من هم أفضل منهم بكثير . ان التفوق لا يعرف كيف يطرح نفسه ، وعلى القائد أن يكتشفه بجهده .

وقبل انتقاء القادة ، ينبغي إعدادهم . فالفرد لا يولد قائداً ، بل يولد مع استعدادات للقيادة ، و« فن معْرفة الرجال » ، هذا الفن الضروري للقيادة ، « يتعلمه المرء بنفسه ، دون ان يدرّس له »[1] . فبالطرّق يصبح المرء حداداً ، وبالقيادة يصبح قائداً . وعلى القدماء في المهنة أن يوجهوا الشباب ، ويستكملوا تدريبهم على فن القيادة ، الذيْ تعلموا أولياته في المدارس[2] . لقد تحدث الكثيرون ، في العامين التاليين لهزيمة ١٩٤٠ حول هذا الموضوع وكان حديثهم نوعاً من الهذيان . ورأينا في كل مكان ميلاد مدارس للضباط ، كانت تعلن بطموح أنها ترمي الى إعداد القادة . ولكن قادة ماذا ؟ قادة جماعات أم جيوش ؟ قادة محطات أم عيادات طبية ؟ ان القائد عاجز عن

---

(١) لويس الرابع عشر .

(٢) في المدارس ، يحاول التدريب تنمية الذاكرة ، والعضلات ، ونادراً ما يحاول تنمية الحكم ومقاومة التعب (مع أهمية هذه المقاومة في الحرب) . فمن يهتم اذن بالاستقرار العصبي ، وبالاحساس السيكولوجي وبالشجاعة المعنوية ؟ .

فعل كل شيء، والسلطة لا تولد وتنمو وتتطور إلا في مجال واقعي متخصص . وينبغي ، في بادىء الأمر ، أن يكون الفرد ماهراً في فنه ، حتى يأمل بأن يصبح قائداً[1] . ولا نرى صورة القائد ترتسم في الحالة الصرفة ، ولا تظهر حقيقة الصفات المجردة التي تتيح السلطة، إلا عندما نقترب من أعلى مستويات التسلسل، حيث تتضاءل الأهمية النسبية للتقنية .

* * *

والواقع ، ان السلطة هي التي تحول كتلة الجماعة التي لا شكل لها الى قطعة نظامية ، وهي التي تجعل من المخلوق البدائي (سواء أكان هلامياً أو أميبياً) كائناً أعلى ، وتزوده بدماغ ، وبجهاز عصبي يعطيه العقل ، ويقود خياله ويوجهه ، ويتيح له الاحساسات ، ويقلل من احتمالات تراجعه أمام الخوف ، ويضخم وثباته الجريئة . ان القطعة جماعة متجانسة وثابتة ومنظمة ومدربة ومسلحة ، ولكنها تتصف قبل كل شيء بأنها مجموعة مُقادة . ولا أهمية للقائد دون مساعدة قطعته ، ولكن ليس هناك قطعات بدون قادة . والسلطة هي الذكاء والارادة والثبات ، وبدونها لا تكون القطعة سوى مجموعة . ولهذا كان من الضروري أن نقف طويلاً أمامها ، وأن ندرس بدقة أصولها وحركتها ، قبل أن ننظر إلى القطعة في مواجهة الخطر والإجهاد .

---

(١) « ان ما يوحي للجندي بالثقة ، هو الكفاءة اكثر من الفضيلة » (مونتي كوكولي) .

الفصل السادس

القطعة في مواجهة الخطر والجهد

« ان المنتصر ، هو من يستطيع القتال
ويريده ، عندما لا يستطيع خصمه
ذلك أو لا يريده »
(الجنرال إيتيين)

عندما نظرنا إلى روح المقاتل وهو يصارع الخطر والاجهاد ، تأثرنا بصورة خاصة من عدم استقرار هذا المقاتل ، ثم رأينا العمل المشترك للسيكولوجية الجماعية ولسلطة القائد ، وكيف كانت تخلق التماسك بين الانعكاسات الفردية ، وتحرك قوتها الانفعالية والعاطفية وتوجهها نحو غايات عقلانية . ان القطعة أداة أقوى من الفرد ، ويمكن التعامل معها بشكل أسهل . وتتميز القطعة بإمكانية تسجيل الظواهر المتعلقة بها في قوانين قد تتخذ بعض الأحيان شكلاً عددياً ، لأن بحث عدد كبير من الحالات يخلصنا من الأحكام الخاطئة للحالات المنفردة . ان المصائر الفردية (بالنسبة الى ذكائنا) متروكة للصدفة ، بينما يرتسم مصير الجماعات في إحصائيات ، تسمح إلى حد ما بالتنبؤ . فالاحصاء لا يستطيع ان يحدد من سينتحر أو من سيصاب بمرض الحصبة ، في جماعة تضم عدداً كبيراً من الأفراد . ولكنه يستطيع التنبؤ بالعدد التقريبي لحالات الانتحار أو الحصبة التي ستصاب بها الجماعة في مدة معينة من الزمن . ولا يستطيع أحد أن يقول ، من سيقتل في هجوم من الهجمات ، ولكن من الممكن ، ان نحسب ، مسبقاً وعلى وجه التقريب ، النسبة المئوية للخسائر التي سيسببها الهجوم . وليس من الممكن أن نحدد الجنود الذين سيصابون بالخوف ، ولكن بوسعنا ان نشعر بصورة صحيحة تقريباً ، كيف سيكون سلوك قطعة معينة في بعض الظروف .

إن كل هيئات الأركان تقبل ، استناداً الى الاحصائيات ، ان قطعة عسكرية تتابع القتال بعد إصابتها بـ ٢٥٪ من الخسائر ، هي قطعة ممتازة . واذا تابعت القتال بعد إصابتها بخسائر أعلى من هذه النسبة ، فهي قطعة بطولية . وتكون هذه القطعة ضعيفة

إذا انحنت وانهارت بعد ان تكبدت خسائر تعادل ٥ ـ ١٠٪ من تعدادها[١] . وفضلاً عن ذلك ، فقد امكن حساب قيمة القيادة والاشعاع المعنوي للقائد : فالقطعات الفرنسية تحملت ٤ , ٢١٪ من الخسائر في ايلو ، و١٨٪ في بورودينو ، و٣٣٪ في واترلو عندما كان الامبراطور موجوداً ، بينما انهارت بعد اصابتها بخسائر ١٤٪ في تالافيرا ، و١٠٪ في فيتوريا ، عندما كان الامبراطور غائباً . وتدخل درجة التعليم والتدريب ايضاً في هذه الأرقام : ففي مطلع حرب ١٨٧٠ ، تحملت القطعات الفرنسية الامبراطورية خسائر من ١٥ إلى ١٦٪ ، بينما انهارت التشكيلات المرتجلة لحكومة الدفاع الوطني بعد عدة أشهر في كوستوزا ، بعد ان منيت بخسائر نسبتها من ٥ إلى ٦٪ . وفي العام ١٨٤٨ خضع جنود البيمونت عندما بلغت خسائرهم ٢ , ١٪ ، ولكنهم صمدوا في المكان نفسه بعد ١٨ عاماً ، رغم ارتفاع خسارتهم إلى ٦٪ ، وذلك بفضل إصلاحات عسكرية ، ونجاحات جزئية حققوها في العام ١٨٥٩ .

لقد سمحت الاحصاءات ، بإقامة هذا القانون ، وهو ان النسبة المئوية للخسائر في المعارك لا تنفَكُّ عن الهبوط منذ القرن الثامن عشر ، علماً بأن الخسائر زادت من ناحية قيمتها المطلقة أثناء الصدامات الحديثة ، نظراً للازدياد الهائل في أعداد القوات المشتبكة في المعارك . ففي عهد فريدريك ، كان متوسط الخسائر ١٧٪ ثم انخفضت هذه النسبة . ونحن نلاحظ في قرنين اثنين استثناءً وحيداً ، ربما كان أقوى تفسير له هو شروط المناخ ، لا حدة المعارك وشراستها . وهذا الاستثناء هو معارك منشوريا التي بلغت خسائرها ٢٧٪ (سمحت هذه الخسائر بالتنبؤ بنسبة استثنائية من القتلى في المعارك الألمانية في روسيا خلال الحرب العالمية الثانية) . ولقد لوحظ إبان حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ، هبوط ثابت في الخسائر : اذ كلف تقدم الجيش الألماني حتى المارن في العام ١٩١٤ خسارة تعادل ٦٨٠ ألف جندي ، بينما لم تكلفه معركة فردان (المشهورة بأنها معركة دامية) التي دامت ستة اشهر ، من ٢/٢١ حتى ١٩١٦/٩/٣ ، سوى ٣١٠ آلاف وكلفه هجومه في العام ١٩١٨ زهاء ٢٤٠ ألفاً . وهكذا ، وبرغم تقدم التسليح وازدياد القوة النارية ، فإن النسبة المئوية للخسائر استمرت في الهبوط . وهناك أسباب فنية لهذه الظاهرة . فتعميم تحصينات الميدان ، واستخدام التشكيلات المفتوحة ، والاستخدام المنهجي للمساتر والملاجىء ، والاستعانة القياسية بالمناورات على الأجنحة

(١) اذا كانت الشجاعة العسكرية هي القدرة على كبح زمام الخوف من الموت ، فإن قياسها هو الاحتمال الحسابي للموت الذي يستطيع الجندي مواجهته دون ان يسعى الى التخلص من القتال ، بالفرار أو بالتحصن في الأرض . ان المقاتل يقرر مصيره تبعاً لحكم موجز ، يبالغ فيه الانفعال بصورة عامة ، ولكن النسبة المئوية الحقيقية للخسائر لا تشكل اساس قراره .

التي فرضها ازدياد كثافة الرمي ، كانت من جملة الأسباب . وهناك بخاصة دخول الدبابات في المعركة ، هذه الدبابات التي كان أثرها واضحاً خلال حرب عام ١٩١٤ - ١٩١٨ : فخلال هجمات ١٩١٦ و ١٩١٧ ، قبل استخدام الدبابات بشكل واسع ، كان احتلال الكيلومتر المربع يكلف الانكلو- فرنسيين خسارة ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ رجل ، ما بين قتيل وجريح . أما في معركة اميان ، التي جرت في آب ١٩١٨ ، وكانت معركة دبابات أساساً ، فإن احتلال الكيلومتر المربع لم يكلف اكثر من ١٠٠٠ رجل ما بين قتيل وجريح . وعند الهجوم النهائي ، بلغت تكاليف احتلال الكيلومتر الواحد ٣٢ شخصاً . ونحن لا نملك معطيات بنفس الدقة والتأكيد ، للمعارك الخاطفة التي جرت في مطلع الحرب العالمية الثانية ، ولكن مما لا شك فيه ، انها كانت قليلة التكاليف ، نسبياً ، وتستطيع ترسيخ وتأكيد تعاليم ودروس العام ١٩١٨ فيما يتعلق بتأثير الآليات المدرعة .

ولا يمكن تفسير الشذوذ الظاهر عن القياس ، والذي يتمثل في هبوط النسب المئوية للخسائر ، إلا بإدخال العوامل المعنوية ، وتقدم الأرقام المذكورة أعلاه برهاناً على الفرضيتين التكميليتين لأردان دوبيك وهما :

١) « ان الانسان قادر على امتصاص كمية معينة من الهلع ، فإن زادت فر من القتال » .

٢) « ان العمل المعنوي للتدمير يزداد تبعاً لقوة الرمي وسرعته » .

فليس مجموع الخسائر التي نتحملها فقط ، هو الذي يؤثر على قدرة القطعة ، بل يدخل في التأثير المدة التي يستغرقها وقوع هذه الخسائر . وبما أن الأسلحة الحديثة قادرة على إحداث آثار سريعة جداً ، فإنها قادرة على تحطيم معنويات الخصم ، قبل أن يكون لديه الوقت لتحمل مجموع عالٍ من الخسائر . وقد ميز شارنهورست هذه الظاهرة قبل أردان دوبيك . وجسدها في كتابه « التكتيك » بقوله : « ان عشرة رجال يسقطون معاً في ميدان المعركة يجبرون فوجاً على التراجع ، بصورة مؤكدة ، أكثر من خمسين رجلاً ، يسقطون تدريجياً في أماكن مختلفة » . ويلاحظ هنا ان المؤلف الألماني يدخل مفهوم توزيع الخسائر في المكان .

ولا يكفي مجموع الخسائر ، والمدة التي استغرقتها لتفسير كل الآثار المعنوية التي تحس بها القطعة . فهناك أيضاً الشروط التي تقع ضمنها هذه الخسائر . فتركيزها على مساحة صغيرة ، ووقوعها بشكل مفاجىء بالزمان أو المكان أو الكيفية ، يضاعفان من

فاعليتها المعنوية .ومن الطبيعي ايضاً أن الخسائر نفسها لا تعطي ، عندما تصيب قطعة محاربة مجربة ، نفس التأثير الذي تعطيه عند إصابة قطعة تعمل تحت النيران للمرة الأولى . ونحن نعرف منذ زمن بعيد ، أهمية القتال الأول بالنسبة إلى وحدة عسكرية . وقد ذكر براك ذلك في تعبيرات جميلة جداً ، وبصورة لا تخلو من الصور والاستعارات : « تتعلق نجاحات قطعة من القطعات ، طيلة معركة من المعارك ، بالطريقة التي دخلت فيها هذه القطعة المعركة الأولى . فاذا جعلها القائد تُغلبُ في البدء ، فإن اتفاقية الثقة بين القائد وجنوده تُخرق ، ويُدمّر السحر الذي يمارسه القائد ، وتحتاج القطعة عندئذٍ إلى مناسبات غير متوقعة ، وسعيدة جداً ، لاستعادة التوازن والدفع . واذا اشتبكت القطعة ، بمهارة ، وهاجمت خصمها من الأقوى إلى الأضعف ، ونهشته دون أن ينهشها ، فهي لا تخشى بعد ذلك شيئاً ، ويمكنك أن تزجها في أكثر الحملات صعوبة ، لأنها ستنجو منها بمجدٍ وفخار »[1] .

وللوضعية الهجومية ، أو الدفاعية ، تأثير رئيسي على نسبة الخسائر التي تستطيع القطعة تحملها . فمن النادر جداً أن تحتفظ قطعة من القطعات بحيويتها الهجومية بعد ان تتحمل ٢٥٪ من الخسائر ، بينما نرى انها عندما تتعلق بالأرض ، وتدافع عن نفسها في موقع منظم ، فإنها تستطيع ان « تتحمل » نسبة مئوية أعلى . ولا تكون القيادة عاقلة أو حكيمة ، اذا طلبت من وحداتها البقاء في الخطوط حتى الانهاك الكامل ، لأن العوامل الانفعالية في التضخيم والمبالغة تتدخل هنا ايضاً . ولا شيء أكثر خطأ من المحاكمات الرياضية : فعند تجاوز نسبة مئوية معينة من الخسائر ، تهبط القيمة المعنوية للقطعة بسرعة هائلة ، ولا يمكن استعادتها بعد ذلك إلا ببطء شديد . ففي معركة من معارك الانهاك ، كمعركة فردان ، توصلت القيادة الفرنسية إلى أن بالامكان تحمل خسائر تعادل ٣٣٪ (على ما اعتقد) ؛ فاذا تجاوزت الخسارة هذه النسبة ؛ لم يعد من المفيد إبقاء الفرقة في الخطوط ؛ لأن المهل الضرورية لإعادة بناء طاقتها النفسية تصبح عندئذٍ طويلة ؛ خاصة إذا بقيت الفرقة مدة طويلة بدون تبديل . وفي نهاية حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ ، كانوا يعرفون ، قبل كل هجوم ، النسب المئوية للقتلى والمصابين بجروح خطيرة أو خفيفة من أصل مجموع الخسائر ، والنسب التي ينبغي اعتبارها ضعيفة أو متوسطة أو كبيرة . وتسمح المشاهدات التجريبية المماثلة ، بتحديد وتسجيل

(١) اعطى كلاوزفيتز في كتابه « في الحرب » إيضاحاً لهذه الفكرة ، عندما أكد بأن الجيش المهزوم لا يستطيع خوض معركة حاسمة إثر هزيمته ، إلا بعد سلسلة من العمليات الجزئية الناجحة والظافرة ، التي تؤمن رفع المعنويات ، واستعادة الثقة بالذات ، والثقة بالقادة ، واستعادة الفضيلة الحربية بالتدريج . (المعربان) .

عدد من المعطيات الرقمية ، التي تذكر (بصورةتقريبية) إمكانات القتال لمختلف الوحدات ، وذلك بصورة دورية ، للتسجيل في الأنظمة أو المذكرات : جبهات عادية للهجوم أو الدفاع ، إبعاد الترتيب الدفاعى الخ . . .

وتهبط الطاقة النفسية للقطعة ، تبعاً للشروط التي وقعت فيها خسائرها . ويتم الهبوط بطريقتين : الطريقة الأولى ، طريقة بطيئة بإنهاك معنوي ناتج عن تراكم التعب ، والحرمان ، والخسائر الضعيفة المتكررة ، والثانية طريقة شبه فورية ومؤقتة ، ناجمة عن خرق معنوي ، بعد ضربة مفاجئة وعنيفة في نقطة أو لحظة حرجة .

واذا كانت هناك عوامل معنوية متعددة ، كما رأينا ، تعمل في القطعة لتخلق فيها التماسك والالتحام ، ولتعطيها استقراراً مجهولاً من قبل كل الأفراد ، فإن هناك أيضاً ، مادة تشارك في تحقيق النتيجة نفسها ، هي : التسليح . إذ يهب التسليح قوته للقطعة ، ويتلقى منها روحا ، ويزودها بالبنية . فالجندي يحس بأنه مرتبط بسلاحه ، وبالأداة التي أوكلت اليه ، والتي يُذَكّره وجودها دوماً بضرورة استخدامها . وقد قيل إن التحصين يسجل المهمة على الأرض ، في حين يُجسِّد السلاح الواجب . ويزداد تأثير السلاح عندما يكون جماعياً ، تخدمه جماعة من الجنود بدلاً من أن يكون فردياً ، لأن الجهد المشترك يوحد الأفراد بصورة قوية . لذا فإن سدنة الطائرة أو الدبابة ، وسدنة زمرة من زمر المدفعية ، وسدنة رشاش أو هاون أو سلاح مضاد للدبابات ، يلتحمون إلى حد ما بمطالب الأداة التي يخدمونها . ويتناثر التسليح الجماعي بهذا الشكل فوق ساحة المعركة ، مشكلاً زمراً صغيرة لا يمكن تحطيمها . وفي المشاة بصورة خاصة[1] ، حلت قوة الجذب هذه محل تأثير الانضباط في الصف ، الذي اختفى منذ تطبيق التشكيلات المفتوحة . وفي الحربين العالميتين ، استخدمت الأسلحة الجماعية بصورة واسعة أكثر من الأسلحة الفردية .

ان هذا الموضوع الأخير الهام يقودنا إلى طرح مشكلة أوسع ، وأصعب ، وأكثر اثارة ، تردد أمامها كثير من القادة وأصحاب النظريات : ما هي نسبة جنود المشاة الذين يستخدمون فعلاً أسلحتهم الفردية في القتال ؟ ما هو عدد المقاتلين الفعّالين ؟ وقد حاول اردان دوبيك أن يجيب عن هذه الأسئلة ، لولا ان قنبلة المانية قطعت تحليلاته الواضحة في ١٥/ ٨/ ١٨٧٠ . وقد قدم الجنرال فولر انطباعاً مستنداً إلى تجربة الترانسفال والحربين العالميتين ، إذ قال : « يمسك الخوف بتلابيب نصف الرجال الذين يتقدمون ،

(١) يتطلب القتال القريب وجود غريزة الصراع ، اكثر من انواع القتال الآخرى .

أثناء الهجوم ، ويشل النصف الثاني » . كما بحث العميد « س . ل . أ . مارشال » الموضوع بصورة أعمق في كتابه « الرجال والأسلحة » عندما قال : « لم تستخدم وحدات المشاة الاميركية قوة نيرانها بصورة كافية إبان الحرب العالمية الثانية ، لأن معظم جنود المشاة لم يكونوا يستعملون أسلحتهم . ان اكثر من نصف الجنود لم يطلقوا طلقة واحدة من بنادقهم » . وقد بيّن بالاضافة الى ذلك ، ان المقاتلين الفعّالين كانوا دوماً المقاتلين ذاتهم . ولم يكونوا بالالزام جنوداً ممتازين ، بل كانوا في الكثير من الحالات رجالاً تبدو على ملامحهم البلادة واللامبالاة ، أو جنوداً غير انضباطيين . وأعطى العميد مارشال مثلاً مدعماً بالأرقام : « في ٦ حزيران ١٩٤٤ ، أثناء التقدم من شاطىء أوماها (سان لوران سورمير) نحو الخط الأول من القرى ، اشتبكت خمس سرايا فعلياً في القتال ، استخدام ٢٠٪ من افرادها فقط أسلحتهم . والحقيقة ، انه لم يكن هناك سوى أهداف قليلة مرئية » . وفي المجلة العسكرية السويدية (Befal) قام النقيب السويدي آ . ثورد ، بتفسير كتاب الجنرال مارشال ، وأضاف إليه أشياء متممة ثمينة . وفي كوريا ، زاد عدد المشاة الأميركيين الذين استخدموا أسلحتهم بنسبة ٥٠٪ ؛ وأضحت النسبة إذن ٣٥٪ ، ويرجع ذلك إلى التعود على النار ، والتدريب الأفضل ، وكانت نسبة المشاة الفعالين في الجيش الألماني ، على الجبهة الشرقية ، كبيرة نسبياً ، وتعادل من ٦٠٪ إلى ٨٠٪ ويبدو أن ١٠٪ من الجنود كانوا سلبيين تماماً . ولكن من العدل أن نبين أن التكتيك الروسي ، الذي يستخدم الكتل الكبيرة ، قد أتاح للمشاة الألمان أهدافاً رائعة سمحت لهم بأستخدام أسلحتهم . وهنا أيضاً ، تلعب تجربة القتال ، ونوعية التدريب دورهما . وبالإضافة إلى ذلك ، هناك الاخلاص للقضية التي ندافع عنها ، فلقد لاحظ الفنلنديون مثلاً أن عدد مقاتليهم الفعالين ، كبير فوق الأرض الوطنية ، إلا أن هذا العدد يتضاءل عندما يتجاوزون حدود بلادهم .

ان روح القطعة أكثر ثباتاً من الروح الفردية ، ولكنها تتعرض مثلها للتقلبات والذبذبات ، وتعرف مثلها مراحل الحماسة ومراحل الانهيار . والقائد الحقيقي هو الذي يعرف جيداً ، كيف يميز بين روح القطعة وحالته النفسية الراهنة . ولكنه يعرف أيضاً كيف يؤثر على حالته النفسية ، وكيف يعتني بقطعته بدنياً ، وكيف يعيد لها ثقتها وأملها . ولا يتحقق ذلك بالبلاغة ، أو بالبلاغة التقليدية على الأقل ، لأن للقطعة رصانة وحياء لا تعرفهما الجماعة أبداً . ان الجماعة تنتشي بسهولة بجهاز الفصاحة المهيب وبالبيان ، بينما نجد ان الناس البسطاء الذين يؤلفون هذه الجماعة ، وقد استولى عليهم الاضطراب . والضيق نتيجة الاثارة الخطابية للعواطف الكبرى ، حتى

لو كانوا يحسون بها بعمق . فالفلاح لا يعرف كيف يصرح عن حرارة حبه لموعودته بعبارات منمّقة ، وهو ان عرف احجم عن ذلك لخجله وشعوره بسخف موقفه[1] . إن للقطعة رصانة وحياء الناس البسطاء . فالخطب الكبرى لا تؤثر فيها ، بل على العكس ، تدهشها وتزعجها . ان اشارة قصيرة ، في لحظة من اللحظات المختارة ، عندما يكون الجنود في وضع التقبل والانفعال الذي يخلقه احتفال عسكري جميل ، والحماسة لنتيجة حصلت عليها القطعة بصورة مشتركة ، والمثل الذي يعطيه القائد ، و«اشارة أو لفتة من قائد محبوب » ، كل هذا يعطي نتيجة افضل بكثير من نتيجة أجمل الخطب .

ولكن ينبغي على القائد ، في بادىء الأمر ، ان يسهر على الحالة النفسية لقطعته ، في داخل ذاته ، لأن الخوف الجماعي ليس محصلة لخوف الأفراد ، ولكنه انعكاس لخوف القائد . وإني أعرف جيداً ان القائد ، بحكم وضعه المتميّز كقائد ، أقل تعرضاً من مرؤوسيه للخوف ، وبصورة خاصة ، للخوف الطبيعي . إلا أن الرأي والخيال هما من القوة في الحرب ، بحيث يمكن ان يدفعا الخوف الفكري أو المعنوي ليمسك بتلابيبه ، وهذا النوع من الخوف الطبيعي « ينزل في أكثر القلوب شدة وبأساً ، فيبرده ويقنعه بأنه مغلوب » (جوزيف دوميستر)[2] .

ويعبر خوف القائد عن نفسه ، بعصبية قيادته ، وبالأوامر المتعددة المتناقضة ، وبالأوامر ـ المعاكسة ، وبتحول انفعالاته الى انفعالات عاطفية متزايدة ، على حين تتناقص انفعالاته العقلانية . ويتوقف تدريجياً عن القيام بدوره كدماغ نفسي لقطعته . وهذا الوضع خطير جداً ، لأننا لا نربح المعارك أو الحرب إلا إذا عشنا (ربع الساعة الأخير) الذي تحدث عنه نوجي Nogi بقواتٍ احتياطية تقودها قيادة حاذقة . إن الفشل المحلي والتراجع ، جرح سطحي لا نموت منه ، فنحن لا نموت إلا من الجروح

---

(١) « انهم جميعاً (الجنود) يتقون بصعوبة العبارات لأحاديثهم عن المآثر . . . فليس يسيراً على المرء التحدث عن مآثره ، وان هذا لأصعب على البعض من المأثرة نفسها » ميدنيكوف ، دفتر برلين ص ٢٥ .

(المعربان)

(١) « ان الرأي هو الذي يخسر المعارك ، والرأي هو الذي يربحها . فالرأي هو من القوة في الحرب ، بحيث يتعلق به تبديل طبيعة الحادث نفسه ، واعطاؤه اسمين مختلفين ، حسب رأيه الخاص . يتمركز جنرال بين قطعتين معاديتين ويكتب الى بلاط الملك : «لقد قطعته ، لقد انتهى» ويكتب الجنرال المعادي الى بلاط مليكه : « لقد وضع نفسه بين نارين ، لقد انتهى » فأي القائدين مخطىء ؟ ان المخطىء هو الذي يترك الآلهة الباردة تمسك به . فاذا افترضنا ان ظروف الخصمين متساوية ، وبخاصة ظروف العدد والقوة ، فإن الفرق بين القائدين يبقى معنوياً . . إن الرأي هو الذي يخسر المعارك »

(جوزيف دوميستر)

العميقة ، الجروح التي تحدث الاضطراب في الوظائف الكبرى ، في الوظائف العقلية بصورة خاصة . وعندما يفقد القائد عقله ، تتعرض القطعة لفقدان قلبها.

ذا كانت ادارة القطعة قبالة الخطر وفي مواجهته ، تسهل الى حد كبير ، نظراً لأنه من الممكن في هذا المجال إقامة بعض القواعد الايجابية وبعض القواعد العددية ايضاً ، فإن هذا الموضوع أكثر صحة ايضاً ، فيما يتعلق بسلوك القطعة قبالة الجهد والمعاناة . واذا كانت الأرقام القياسية التي يتميز بها الفرد ، أرقاماً مختلفة ، واذا كان من غير الممكن التنبؤ بالضعف البدني ، فإننا نعرف ، بصورة محددة ، الجهد الذي يمكن انتظاره من القطعة . ان كل الأنظمة والمذكرات ، تعلن ان المشاة تنتقل على الأقدام بسرعة ٤,٥ كم في الساعة ، وأن مرحلة طولها ٢٥ كم ، تشكل بالنسبة اليها مرحلة عادية وطبيعية . وحركية المدرعات ، والأرتال الآلية ، الخ . . . معروفة ومحددة بدقة . ان تقارير التفتيش الصحي ، وعدد عمليات الاخلاء ، وعدد الجنود غير الجاهزين للقتال ، ونتائج الوزن الدوري ، تقدم للقائد في كل لحظة صورة عن الوضع البدني لقطعته ، وتطلعه بالتالي على الجهود التي يستطيع ان يطلبها منها . ونعرف ايضاً منذ قرون عديدة ، اننا عندما نريد الحصول على نتيجة استثنائية من مجموعة بشرية ، فليس من الملائم زيادة إيقاع جهدها ، وإنما اطالة مدة هذا الجهد . وليست المسيرات الاجبارية مسيرات نمشي فيها بسرعة اكبر ، وإنما هي مسيرات نقطع فيها مسافات أطول[1] ، فنحن عندما نريد الإسراع بإنهاء عمل من الأعمال العاجلة ، لا نطالب بزيادة حركات العمال ، وإنما عددهم أو ساعات عملهم .

* * *

القطعة أداة يمكن معرفة إمكاناتها البدنية ، ولدينا عن امكاناتها المعنوية بعض المعطيات الواقعية ، وحالتها النفسية ، اكثر ثباتاً من الحالة النفسية للجندي المنعزل . ومن الممكن أن ندرك الآن بوضوح أكبر معنى قولنا في مطلع هذا الفصل بأن التعامل مع القطعة أسهل من التعامل مع الفرد . ولكن علينا ألا نستنتج من ذلك ان قيادة القطعة لا تحتاج إلا الى معطيات عقلانية . فلقد دلت الدراسة ايضاً ان القطعة تعرف تموجات وذبذبات نفسية ، وان حالتها الروحية تمر بمراحل من الانهيار ، وان معنوياتها انعكاس

(١) يتعلق هذا القول بكافة انواع تحركات مختلف القطعات . سواء تم تحركها سيراً على الاقدام ـ حالة خاصة ـ أوبالسيارات ووسائل النقل الأخرى .

(المعربان)

لمعنويات القائد الى حد كبير ، هذا القائد الذي لا يعدو كونه انساناً ، رغم الإلهام الإلهي .

ان على القائد أن يتحلى بمواهب فكرية متينة ، وبنية معنوية قوية ، بالاضافة الى نوع من الحس الفني الذي يسمح له بالاحساس بكل ما يمكن ان تعطيه وحدته ، وما يمكن ان يحصل عليه منها . ان الامكانات العظمى لقطعة من القطعات لا ترتبط فقط بالظروف الخاصة والمؤقتة التي ذكرتها ، بل ترتبط أيضاً بدمها .

ان الفضائل الحربية بنات الأمة . ومن الممكن ان يستخدم الجيش الانضباط ، وروح القطعة ، والهيبة ، والمثل الذي يضربه القادة، ليحول رجالاً ذوي ارادة طيبة ، الى محاربين أشداء ، على أن تزود الأمة القائد بمثل هؤلاء المحاربين . لأن القيادة «تُنسّق ضمن كتلة الجيش بين الطاقات المتفرقة . . . إلا أنها لا تخلقها » (الجنرال إيتيين) .



الفصل السابع

القيمة الخلقية للحرب

« تحرك الرذيلة الحرب ،
أما الفضيلة فتقاتل »
(فوفينارغ)

الحرب مأساة شنيعة ، تدمر حياة أناس كثيرين ، وتقضي على الممتلكات ، وتجلب التعب والجهد والآلام والموت . ومنذ أقدم الأزمان ، والعاقل يخشاها والأمهات تكرهها . فالحرب شر مستطير ، حتى لو كانت حرباً ظافرة ، لأنها تجرح شعباً بصورة قاسية . فلا المقاطعات المحتلة ولا مليارات الغنائم تستطيع أن تعوض أرواح البشر الضائعة ودموع العائلات الحزينة . فالحرب ألم . ولكن الألم قد يكون منتجاً من الناحية الروحية . حقاً ! إنه ليس منتجاً بلا شروط ، أو بالأحرى وبصورة أدق ، ان الألم أداة ، وليس هو الذي يصنع الخلاص والانقاذ ، بل الطريقة التي نستقبله فيها ونتحمله . ولا يفيد الألم إلا النفوس القوية ، إلا أن هذه النفوس تهمنا قبل كل شيء ، لأنها ملح الأرض والخميرة في العجينة .

واذا كانت الحرب شراً من الشرور (لكنها ليست أكبر الشرور)، فإنها كما قال فوفينارغ : أقل صعوبة وتكلفة من العبودية . وعلى الفرنسيين اليوم أن يحسوا بذلك إحساساً عميقاً . فإذا لم تكن الحرب ، على المستوى المادي ، سوى أداة عمياء للذبح ، فإن كونها ألماً يجعلها قادرة على المستوى الروحي ان تصبح وسيلة اصطفاء وتحسين . والحرب محنة ، وهي ككل محنة أو شدة ، قادرة على تحريك ما في الانسان من شر كما هي قادرة على تحريك أفضل الصفات فيه . وكان فويو Veuillot يرى **بأن الحرب تقتل من النفوس أقل مما يقتل السلم** .

وعلى النفس البشرية ، كي تقوم بالعمل الحربي ، ان تنكفىء على ذاتها ، وان تجمع كل قواها ، وان تكون مستعدة لكل الجهود ، وللانقياد وللخضوع ، وان تنسى الأشياء الثانوية لكي تحصر تفكيرها بجوهر واجبها المرعب، المتمثل في تقبل التضحية الكبرى وازدراء الموت .

إن أعمال السلم ، مهما كانت جديرة بالتقدير ، ومهما كانت أعمالاً عظيمة ، تبقى مدفوعة بدافع المصلحة الشخصية التي لا يشكل الموت فديتها . فالاخلاص والتجرد ، قد يظهران في هذه الأعمال بطابع فردي ، سوى انهما لا يشكلاون القاعدة ابداً . وتخلق الصناعة والتجارة او توزعان ثروات هائلة ، لكنهما تولدان حب التملك ، والتنافس دون شفقة او نبل ، وتسببان قساوة القلوب ، والتخصص الذي يجعل ذكاء الأفراد جافاً وقاحلاً ومتجهاً نحو الربح فقط . حقاً ان هناك ايضاً الرغبة في الرفاه الشخصي ، وهي اساس التقدم ، وتساهم في تثبيت المجتمعات ، الا انها نوع من الانانية ، أي الشعور المضاد للمجتمع . وعندما تلتبس القاعدة المعنوية مع ميزان للحسابات ، فلا يمكن إلا أن ننسى لفترة ما ، أن في النفس البشرية حركات غريزية وكريمة ، وميولاً عاطفية ، وانفعالات مباغتة ، واندفاعات مفاجئة نحو مثل أعلى .

والجندي كالكاهن ، لا يتحرك بدافع المصلحة الشخصية . إنه يطيع قاعدة عليا نبيلة ثابتة ، لم يصنعها ، ولا يستطيع ان يتخلى عنها أو يبدلها ، فهي تدعمه ، وترفعه وتساعد على تنمية فضائل اكثر ندرة في الطبقات الحرة والعاملة من الأمة . هذه الفضائل (الطاعة ، الشجاعة ، الاخلاص للواجب حتى الموت) التي ليس لها فرصة الظهور في الحياة العادية ، تنام وتضعف وتتعرض للذبول . وتجد هذه الفضائل أعلى تعبير عنها ، في الحالة العسكرية . وتتجه حياة الجندي بالاضافة الى ذلك للمحافظة على مفاهيم المسؤولية والانضباط والسلطة والتسلسل ، وبكلمةٍ واحدة ، تتجه حياة الجندي الى عبادة الشخصية الانسانية مقابل عبادة الذهب والعدد في الحياة المدنية . فالجيش بالنسبة إلى الشعب كله نموذج ومربٍ ، يساهم في نشر الإحساس بالنظام وبأكثر وسائله فعالية . إنه مثل دائم للخلاص للمجموعة الوطنية ، وسط مواطنين يشغلهم الاهتمام اليومي بمصالحهم الشخصية .

ولا يخضع الجندي الحقيقي للانضباط بتأثير الزام خارجي ، بل برضىً أكيد ، وليس عمله الأولي كامناً في الاطاعة أو أعطاء الأوامر ، ولكنه كامن في السيطرة على نفسه . وتكمن عظمته الخاصة في التقاط الفرصة البديعة للتخفيف من حدة الغرائز العنيفة ، التي تطلقها الحرب من عقالها ، والتحكم فيها داخل ذاته ، وتسجيل نصر للانسان على الغرائز البدائية . ويستطيع الجندي ان ينهب كل شيء ، وأن يأخذه لنفسه ، إلا أنه لا يمس شيئاً ، وباستطاعته ان يكون عنيفاً ، وأن يعامل الضعفاء معاملة سيئة ، إلا أنه يحمي النساء والأطفال . ان الوظيفة الجليلة للمحارب هي ان يكون مُطهِّر القوة . وفي اللحظة التي يعرض فيها نفسه للخطر ، لا يسمح الجندي للحقد بأن

يحرب المشاعر المضيئة التي يستخلص منها فضيلته . وهو لا يرى في عدوه إلا خصما يتنافس معه في عبادة الفضائل .

فعندما يعيش المرء وسط الأخطار ، فإنه لا يكتسب التعود عليها فقط ، بل يصبح شجاعاً بصورة عادية وطبيعية . وعندما يتصنع الهدوء يتوصل في النهاية إلى الاستحواذ عليه . فالموقف يساعد على خلق الشعور . ولقد كان باسكال يعرف ذلك جيداً ، ويوصي بالصلاة لإثارة الايمان ، ومع ذلك ، وكما قلت سابقاً ، تبقى الشجاعة يومية ، والله هو الذي يهب هذه الشجاعة . والأبطال انفسهم يبقون بشراً ، فانسانيتهم هي التي تخلق عظمتهم ، واستمرار شجاعتهم هو ثمرة نصر يتجدد بصورة دائمة ، ولكن التوصل الى التحرك بهذا الشكل بسهولة ، تحت تهديد الموت الدائم ، يعني أننا تعلمنا كيف نسيطر على أنفسنا ، ونتحكم فيها . إنَّ ذلك يعني أننا حصلنا على « السيادة على الذات » ، كما يعني الصعود درجة أو عدة درجات في السلم الروحي للإنسانية .

إن عدوى السيكولوجية الجماعية ، المستقرة والموجهة ، ضمن نطاق القطعة ، بواسطة سلطة القائد، تلعب ايضاً دورها للسمو بمستوى القلوب . وفي أيامنا هذه ، ورغم كثير من الضجيج حول المسائل الاجتماعية ، فإن بين الجنود وقادتهم علاقاتٍ أهم بكثير من علاقات العمال بأرباب العمل ، فهي قائمة على الثقة المتبادلة القائمة فيما بينهم ، والانسانية الحقيقية ، والاخلاص المتبادل الذي يشيع في علاقاتهم . فالجيش قاسٍ كالقرية ، وهو مثلها اكثر أخوة من المدينة والمصنع أو المكتب ، ومنذ زمن بعيد ، دحض الفريد دوفينيي الزعم الباطل القائل بأن الجندي انسان قاسي القلب ، ولقد قال : « إن قسوة رجل الحرب قناع حديدي على وجه نبيل جميل ، إنه سجن من الحجر يحتوي على أسير ملكي . . . ان الطبع العسكري بسيط وحسن وصبور عموماً . ونجد في هذا الطبع شيئاً من الطفولة » . وقد أعطى نابليون تفسيراً لذلك بأسلوبه اللاذع العنيف عندما قال : « ان الاعتياد على أعنف الأحداث ينهك القلب أقل مما تنهكه التجريدات . والعسكريون أفضل من المحامين » . إن أصحاب القلوب الكريمة ، وأصحاب العواطف الوجدانية الكبرى ، والعشاق الكبار ، هم في الغالب جنود ممتازون . وليست الحرب جميلة ، إلا أن روح أولئك الذين يحاربون بشجاعة أجمل عادة من روح البشر الآخرين .

وتسمو الحرب بالانسان فوق ذاته ، فهي لا تصلب النفوس ، ولا تجعلها خشنة

قاسية ، انما تصقلها وتطهرها . وتشتد القدرات في الحرب وتقوى ، كما تضطرم فيها الفضائل وتتنقى ، ويرتفع الانسان الى مدى يمتد ويتسع حتى يشمل المجال الفكري . ولقد قال غوفيون سان سير : « التفكير القوي الواضح في داخل المكتب شيء جميل حقاً ، إلا أن التفكير بمثل هذه القوة والوضوح وسط القذائف،هو الممارسة المثالية للقدرات الانسانية » .

ويشكل خطر الموت بالنسبة إلى الجندي ، جزءاً دائماً لا يتجزأ من الواجب المهني . حقاً ! إن هناك مهناً تشتمل بصورة عرضية على التضحية بالحياة ، ويحدث ايضاً ان يرى الانسان التضحية مفروضة عليه بإلزام معنوي غريب عن مهنته ، إلا أن مهنة السلاح هي المهنة الوحيدة التي يشكل فيها خطر الموت التعبير الأساسي للواجب المسلكي المهني ، وعلة وجوده . ويستهدف فن الحرب القضاء على الخصم أثناء الصراع ، أي أن هذا الفن يتضمن بالنسبة الى كل خصم من المتخاصمين إمكانية القضاء عليه . وتكفي هذه الخاصة لكي تعطي لحياة الجندي وقاراً وعظمة لا يقارنان بشيء . ولكن هناك ما هو اكثر من هذا ، فالجندي يمنح حياته الخاصة لقضية تتجاوزه أثناء صراعٍ جماعي ، فهو لا يملكها بحرية ، ويحاسَبُ عليها أمام الأمة ، كما أنه مسؤول عن فعالية تضحيته . وتمتد مسؤوليته ايضاً الى حياة الآخرين ، الى حياة رفاقه ، لأن الجيش هو اجتماع عدد كبير من المقاتلين ، يخاطرون بحياتهم معاً من أجل هدف مشترك . ويؤثر عمل كل فرد من أفراد هذا الجيش على أعمال الآخرين ، وفي النهاية،فإن عمله يحمي وجودهم أو يعرضه للخطر . ان هناك رباطاً قوياً جداً يجمع كل هؤلاء الرجال الذين يلتزم كل واحد منهم بالعمل لصالح الجميع ، كما ان لكل فرد منهم قسطاً من المسؤولية الجماعية تجاه الأحداث ، أي أن لكل فرد منهم قسطاً من المسؤولية في حياة الآخرين . ان تعبير دراغوميروف القائل : « مت ولكن انقذ أخاك » هو التعبير البدائي بعينه ، إلا أنه تعبير خالص الصفاء ، ويترجم الأخلاق السامية لساحات المعارك ، هذه الساحات التي لا حق لأحد ان ينكر قدرتها على ان تكون أداة قوية للسمو والكمال .

ان زمالة الجندية المنبثقة من الحياة المشتركة ، والمرتقية بفضل الجهود والمخاطر المشتركة الى مستوى أخوّة السلاح ، والمجللة بالنبل النابع من الشجاعة ، لم تجد التعبير المؤثر مثلما وجدته في Le Jouvencel ، هذه القصة العسكرية التي تشكل في الوقت نفسه نظاماً تكتيكياً ، والتي كتبت في الفترة بين ١٤٦٢ و ١٤٦٥ ، من قبل ثلاثة اشخاص تحت إشراف جان الخامس دوبوي كونت سانسير Sancerre ، أحد أشهر

قادة السنوات الاخيرة لحرب المائة عام ، والمستشار العسكري لولي العهد (الذي غدا فيما بعد الملك لويس الحادي عشر) . في معركة سان جاك (١٤٤٤) ضد السويسريين . واننا لنجد في هذه القصة ما يلي : « كم هي مرحة الحرب . . . ان الناس يتحابّون إبان الحرب . وعندما يشاهد المرء زميله يقاتل جيداً ، تغرورق العين بالدمع ، ويستريح القلب من مظاهر الاخلاص والشفقة،ومن الاحساس بأن الزميل يقدم دمه ويعرض جسده من اجل انجاز ارادة الخالق . وعندها يقرر الانسان أن يذهب للعيش أو الموت مع زميله ، وعدم التخلي عنه بدافع الحب . وينجم عن ذلك سعادة ، لا يستطيع معرفة روعتها إلا من جرّبها . هل تظنون ان من يفعل هذا يخشى الموت ؟ كلا ، لأنه مدعوم ، ولانه سعيد بعدم معرفته أين يكون . حقاً انه لا يخشى شيئاً » . ولا اعتقد ان جندياً حقيقياً قرأ هذه السطور ، دون ان يتذكر انشودة « أُوهلاند » الرائعة (كان لي رفيق) ، التي اختارها الجيش البروسي بعد اكثر من ثلاثة قرون ، ثم تبنّاها الجيش الألماني لتكون واحدة من أهم أناشيده العسكرية .

كان لي رفيق
لن تجد من هو أفضل منه .
وعلى قرع الطبل ،
كنا نسير دائماً جنباً الى جنب
بالخطوة الموزونة ذاتها .

والكنيسة التي تعرف ان النار تطهر الكثير من الاشياء ، اعترفت منذ امد بعيد ، بالفضائل العظيمة التي تساعد الحياة العسكرية على تفتّحها . وهي تذكر ان المسيح قد امتدح استقامة روح قائد روماني (سنتوريون) . ولقد رفعت الكنيسة الى مرتبة القديسين جنوداً لأسباب عدة ، من بينها فضائلهم العسكرية : سان لويس ، جان دارك . . . واعترف آباء الكنيسة بالاحترام الذي تستحقه مهنة السلاح : واكد سان اوغوستان ان الجندي « يحمل شخصية ملكية » . وعندما قارن سان غريغوار دو نازيانز ، حياة الجندي مع حياة الراهب ، أكد أنه « إذا كان نظام الرهبان هو الأطهر ، فإن النظام العسكري هو الأروع » . ونجد في إنجيل القديس يوحنا : « ليس هناك اخلاص أكبر من قيام المرء بتقديم حياته من أجل أصدقائه » ، أفلا تدلنا هذه الجملة على الإحسان الكبير الكامن في قلب رجل الحرب ؟ .

اني أعرف أن بعض الايديولوجيات قد تبنّت انكار الفضائل المعنوية المتولدة من

الحرب ، معتقدة بدون شك أنها بهذا الشكل تساهم في اقامة مملكة السلم ، إلا أن كل حججها ضعيفة . فقد قررت مثل هذه الايديولوجيات أن « تجعل من الحرب عملاً شنيعاً » ، وهو أمر لا يحمل إلا معنى واحداً ، وهو التشنيع بالقوة والسقوط في اختلال فكري كبير ، يشتمل على نقل بعض المفاهيم إلى المستوى الأخلاقي مع أن مكانها في مستوى آخر . فليست القوة بحد ذاتها أخلاقية أو لا أخلاقية . ولا يمكن أن نقول عنها إنها مشرفة أو تستدعي الازدراء ، فالقوة ليست هدفاً من الأهداف ، انما هي وسيلة من الوسائل ، ولا تتلقى أية قيمة روحية إلا بالغرض الذي يُحدد لها . وكثيراً ما يكون من الضروري ، أن نكون أقوياء ، كي يتاح لنا أن نكون طيبين ، أو بكل بساطة ، كي نظهر عادلين . وليس من السهل أن نُشنّع بالحرب، لأن واجب بذل الحياة في الحرب يُعوض بواجب قبولها ، ولأن التضحية في الحرب تُطهّر العنف . وقد اتخذ البعض موقفاً معادياً من الجيوش والأسلحة، على اعتبار أن مجرد وجودها يدعو إلى القتال . وهذا أيضاً منطق غريب ، يأخذ النتيجة ويضعها موضع السبب . ألم يكن البدائيون يتقاتلون ، غالباً وبوحشية ، بواسطة الأحجار والعصي ؟ .

وقد وصل الأمر إلى حد اتهام الجنود بإثارة الحرب ، التي هم مع ذلك أول ضحاياها ، لأنها الفرصة النادرة الوحيدة التي تسمح لهم بالقيام بصورة كاملة بما قدر عليهم ، كأنما رجل الاطفاء هو الذي يشعل الحريق الذي يتيح له فرصة إظهار معرفته وشجاعته . « إذا أردت السلم ، فاستعد للحرب » ان هذا التعبير لا يعني اننا نثير الحرب ، كما لا يعني اننا نرغب في اندلاعها . وقد قال الجنرال فون سيكت[١] : « ان الذي نظر إلى الحرب مباشرة ، وحدّق في عينيها الداميتين ، وتأمل بعين الراصد ساحات حرب عالمية ، كان مضطراً إلى رؤ ية آلام الشعوب ، وأضحى شعره رمادياً تحت رماد البيوت المحترقة ، وكان يتحمل مسؤ ولية موت وحياة كثير من الرجال،ان الجندي المتعلم الذي عركته الحرب ، يخشى الحرب اكثر بكثير من الحالم الذي لا يعرفها ابداً ، ولا يتوقف عن الحديث عن السلم . ولا تثار الحرب بقلب فرح ، عندما يعرف الذي يثيرها فظاعتها ، حتى لو كان يعرف مع ذلك عظمتها والأفراح الهائلة القادرة على اشاعتها » .

لكن خصوم الحرب استعانوا بمبررات وحجج واهية وخسيسة . وقد سَخروا بالجاذبية الخارجية للمهنة العسكرية ، كما تهكموا على هيبة البزة العسكرية ، بالرغم مما

---

(١) في كتابه « أقوال الجندي » Paroles d'un soldat

قاله في يوم من الأيام الأمير دولين : « اننا نحس بالسرور عندما نزين انساناً جديراً بالاحترام ، فالزينة تعطي شيئاً من الظرف ، والظرف يعطي شيئاً من الروح » . وقد أرادوا أن يظهروا ان ميل الجندي المحترف الى الجندية ، ناجم عن قبض الراتب أو بعض الميزات المادية . إلا أنه إذا كان من العدل ان ندفع له لأنه يخدم ويخاطر ، إلا أننا لم نستطع أبداً ان نفكر انه يغامر بحياته في سبيل مصالح ، غالباً ما تكون تافهة . كما أننا لا نأمل أن يقاتل بصورة افضل ، لأنه سيقبض مرتباً أكبر ، واننا لا نفهم سيكولوجية هذا الجندي ، إذا لم نفهم أنه ، حتى ولو قام احياناً بعمليات سلب ، يقاتل لتذوق القتال والمخاطرة ، وبحثاً عن الشرف والمجد ، أكثر مما يقاتل بدوافع مادية شخصية . وقد ادعى البعض ان الحرب تسبب لدى المقاتلين ، فوضى نفسية خطيرة ، بينما اتفق كل الاطباء على أن الأمراض النفسية للحرب نادرة جداً ، ولا تصيب إلا الاشخاص الذين لديهم استعداد خاص لها . أما بالنسبة للبشر الطبيعيين ، فلا تثير الحرب لديهم سوى اضطرابات عارضة : « إحساس بالإحباط ، أو صدمة ناجمة عن الانفجار». ولقد اكد البعض ان الشجاعة لا تستطيع ان تجد نبعها إلا في الغرائز الفاسدة . ان مثل هذا الكلام يعني نسيان ان الجندي ليس قاتلاً ، وانه اذا كان يستهدف حياة الخصم ، فهو يقدم حياته أيضاً ، وغالباً ما تتم هذه العملية في ظروف غير متكافئة . ان هذا الكلام يعني ايضاً نسيان أن أروع الأبطال كانوا في غالب الأحيان فلاحين شرفاء وذوي طبيعة هادئة . ، وان المواطن الصالح ، سرعان ما يصبح جندياً شجاعاً . ونحن نرى أنهم لا يتحدثون كثيراً عن البطولات الدنيئة ، إلا لأنها تغذي بشكل رخيص أدباً رومانطيقياً وضيعاً ، وهم ينسون دائماً ان القسوة أقرب إلى الجبن منها إلى الشجاعة . وقد اتهموا الحياة العسكرية بأنها مبنية على دورين : الطاعة والأمر ، وتحطيم الشخصيات أو تشويهها ، مع أن الانضباط الحقيقي لا يسعى إلى استعباد الشخصيات ، بل يحاول توحيدها . وهو ككل الزام يحرك ما هو قوي ، ولا يجور إلا على ما هو ضعيف . فالأنا تتثبت بالمعارضة . إن ضربات المطرقة تسحق قطعة من الرصاص ، ولكنها تصنع من الحديد قضيباً .

وفي غمرة هذا الجدال ، حول الآثار المعنوية للحرب ، ربما كان من المستحب أن نتيح بعض الوزن للحكم القاسي لأناتول فرانس ، الذي لم يكن جندياً ، ولكنه قال رغم تشاؤمه (١) : « كلما فكرت في الحرب ، كلما قلّت حماستي في تمني نهايتها ، إني

---

(١) الجزء الأول من كتاب « الحياة الأدبية » .

لأخشى ان تحمل هذه القوة الكبرى والمخيفة بزوالها كل الفضائل التي ولدتها ، والتي يستند اليها اليوم بناؤنا الاجتماعي كله . ألغوا الفضائل العسكرية ، فينهار كل المجتمع . ولكن هل كان هذا المجتمع ، قادراً على إعادة بناء نفسه على أسس جديدة ؟ إن الحصول على السلم العالمي ، مع علمنا بأن هذا السلم سيلغي الشجاعة والشرف والتضحية التي تحملها الحرب للقلب الانساني ، هو شراء للسلم بثمن باهظ »[1] .

إن أناتول فرانس ، بتأكيده فكرتنا ، يدفع ايضاً بفكرة جديدة ، هي فكرة تأثير الحرب ليس على الأفراد فحسب ، بل على المجتمع بكامله . ولقد كان بعض المفكرين الآخرين أكثر بعداً بكثير على هذه الطريق ، فقد وسعوا « مفهوم الخلاص بواسطة الألم » من الفرد الى المجتمع والأمة . بهذا الشكل كتب جوزف دوميستر في **ملاحظاته عن فرنسا** : « من الممكن اعتبار النوع البشري شجرة تشذبها يد غير مرئية بدون انقطاع تشذيباً يستفيد منه الانسان . والحقيقة اننا لو قطعنا جذع شجرة أو رأسها خلال التشذيب ، لتعرضت للموت . ولكن من يعرف حدود الشجرة الانسانية ؟ من المعروف ان الامم لا تتوصل ابداً الى أعلى نقطة من العظمة التي تستحقها ، إلا بعد حروب طويلة ودامية . ولهذا كانت الفترة الرهيبة من حرب البيلوبونيز نقطة الاشعاع بالنسبة لليونانيين ، وجاء حكم الأمبراطور أوغوست بعد الحرب الأهلية وبعد الأحكام الجائرة التي كانت تصدر دون محاكمة ، كما أن العبقرية الفرنسية صقلت بفضل اتحاد الكاثوليك خلال الحرب الدينية وبفضل ثورة الفروند ، وولد كل الرجال العظام الذين ظهروا في عهد الملكة آن وسط الهزات السياسية . وبكلمة واحدة ، نقول ان الدم هو غذاء هذا النبات الذي يدعى عبقرية » .

وفي العام ١٨٩٥ ، عبّر اثنان من الرجال ، من أصلين متباينين وثقافتين مختلفتين ، بمعانٍ متقاربة عن الدور الخلقي للحرب ، في مجتمعات تبعد أكثر فأكثر عن الايمان المسيحي التقليدي . وفي مناسبة عيد الشهداء «Memorial Day»[2] في ذلك العام ، قال أوليفييه ويندل هولمز ، وهو قاض كبير في المحكمة العليا للولايات المتحدة

---

(١) وفي النهاية ، فإن فوفينارغ لم يقل شيئاً مختلفاً عندما أكد : « ان السلم ، الذي يحد من المواهب ، ويضعف الشعوب ، ليس شيئاً حسناً بالنسبة إلى الأخلاق أو السياسة » . وكان يمجد في الشجاعة العسكرية : « هذه العاطفة النبيلة القوية ، وهذا النبع القديم الخصب للفضائل الانسانية » .

(٢) مناسبة « عيد الشهداء » الذي يحتفل فيه الأميركيون في ٣٠ أيار منذ الحرب الأهلية الأميركية ، بذكرى شهداء الحرب الأهلية ، وبعد الحرب العالمية الأولى ، أصبح الأميركيون يحتفلون في هذه المناسبة بذكرى كل شهدائهم .

(المعربان)

الأميركية ، ويتمتع بفكر ليبرالي ، ومحارب قديم من محاربي الحرب الأهلية الأميركية جرح في صفوف القوات الشمالية ، قال هولمز ، في خطابه : « إني لا أعرف ما هو حقيقي ولا أعرف معنى العالم . ولكن في وسط الشك ، وفي خلال انهيار المعتقدات ، هناك شيء لا أشك فيه ، ولا يستطيع معظم الناس ان يبذروا الشك فيه ، وهو ان الايمان الذي يدفع الجندي الى تعريض حياته للموت ، بالطاعة لواجب تقبله بصور عمياء، عبارة عن ايمان حقيقي ومحبوب . انه يدفع الجندي لتعريض حياته من أجل قضية لا يفهمها ، في خطة ميدانية ليس لديه عنها أية فكرة ، وتبعاً لتكتيك لا يرى فيه أقل فائدة » . وفي (المعرفة المرحة) كتب فريدريك نيتشه : « كلما نشبت حرب ، في عهدنا ، نشبت ايضاً وبصورة خاصة ، في صفوف ابناء الشعب النبيل ، رغبة خفية : فهم يعرضون أنفسهم بسرور لهذا الخطر الجديد الذي يعرضهم للموت ، لأنهم يؤمنون انهم وجدوا اجازة السماح التي لم ينقطعوا عن التفتيش عنها ، في تضحيتهم من أجل الوطن ، انهم وجدوا إجازة السماح لهم بالتخلص من مصيرهم الانساني . فالحرب بالنسبة اليهم ، شكل أسهل من الانتحار ، فهي تسمح لهم بالانتحار ، وضميرهم في حالة من الراحة والهدوء » .

وفي المانيا ، هذا البلد الذي يهتم دوماً بمشاكل الحرب ، عبَّر مفكرون آخرون عن مثل هذه الآراء وطوروها . وفي مقدمة من عبر عنها المؤرخ ورجل السياسة هنريخ فون تريتشكه (١٨٣٤ ـ ١٨٩٦) بقوله : « تؤلب الحرب ، في الحقيقة الأمم بعضها ضد البعض الآخر ، ولكنها تقرب فيما بينها ، بطريقة معينة ، وذلك بإفهامها مواردها الخاصة ، وموارد الدول المجاورة . وغالباً ما تكون الحرب أكثر فاعلية من التجارة الدولية كوسيط بين الشعوب . والأمة التي تتشبث بالأمل الوهمي للسلم الدائم ، وتدخل حدود انعزالها المتعالي ، تنتهي حتماً بالانحطاط . . . ففكرة القضاء على الحرب والغائها من العالم ، ليست أملاً بليداً فحسب ، بل انها فكرة لا أخلاقية في أعماقها . فلو تحقق هذا الحلم ، لشاهدنا ضمور بعض القوى الأساسية والسامية في النفس البشرية . . . ولكن عندما تسمع أمة من الأمم صوت الانذار الذي يعلن : ان الأمة في خطر ، وأن وجودها مهدد بالزوال ! تستقيظ أفضل الفضائل ، وتنتشر روح التضحية والشجاعة ، بشكل حر وسامٍ ، وبصورة لا نعرفها أثناء السلم » .

« ومن بين ألوف الرجال الذين يسيرون للقتال ، مطيعين طاعة عمياء لارادة المجموع ، يفهم كل فرد منهم عندئذٍ ، كم يتضاءل وجوده الخاص أمام مجد الدولة ،

ويحس كل فرد منهم بأنه جزء من قوى فائقة تتحكم فيه . ومن هنا يولد أثناء كل حرب كبرى عواطف دينية عميقة ، ونشهد هذا المنظر الرائع ، الذي يتجاوز العقل ، والمتمثل بجيوش متعادية ، تتضرع الى الإله نفسه كي يمنحها النصر » .

« في هذه الأعمال ، التي ترفضها الحضارة الضعيفة ، ينبغي البحث عن جمال الحرب . إن رجالاً لم يسيئوا الى بعضهم في أي يوم من الأيام ، حتى أنهم كانوا يكنون لبعضهم تقديراً متبادلاً ، هذا التقدير الواجب بين أعداء محترمين ، يشتبكون في القتال . ولا يضحون ، في سبيل الواجب بحياتهم فقط ، بل يضحون بما هو أكثر إيلاماً وأذى ، انهم يضحون بذلك الشعور الطبيعي : الحب الغريزي للانسانية والهلع من الدم المسفوح . وتختلط الأنا ، التي لا معنى لها بغرائزها النبيلة أو الوضيعة داخل ارادة الجميع » .

« وسأطلب ممن سيجد هذه المحاكمة ، بدائية ومتوحشة ، ما يلي : كيف لم تستطع أية فكرة انسانية كبرى تتعلق بالحرية السياسية والاجتماعية ، ان تتحقق وتترسخ دون ان تكون مدموغة بالدم ؟ ولماذا كانت الحرب ، في كل الأزمان ، الموضوع المفضل للفنون ؟ » .

وقد تحدث عن هذا الأمر المارشال هلموث فون مولتكه (مولتكه الكبير) (١٨٠٠ - ١٨٩١) هذا القائد الصارم الورع ، الذي انتصر ثلاث مرات في ثلاث حروب كان يقودها ، في الواقع ، كقائد أعلى[١] . وعبّر خلال قوله بروعة وقوة عن اعتقادات مماثلة ، قال مولتكه ما يلي : « السلم الابدي حلم ، إلا أنه ليس حلماً جميلاً ، لأن الحرب حلقة في النظام العالمي الذي أراده الله . . . والحرب مهنة عنيفة وقاسية . ولكن من يستطيع ان يخلص من آلامها وضرورتها في هذا العالم ؟ أليست هذه هي شروط وجودنا على الأرض التي أرادها الله ؟ أليست هذه العناصر ضرورية للنظام الانساني ، فماذا سيصبح المجتمع اذا لم يلزمه الشرط القاسي على التفكير والعمل ؟ ولقد قال شاعرنا : ان الحرب رهيبة كالجروح التي يصيبنا بها الله ، ولكنها طيبة مثل هذه الجروح ، وتشكل جزءاً من مصيرنا » .

* * * *

---

(١) كان ملك بروسيا ، الذي غدا فيما بعد امبراطور المانيا ، يحمل لقب « القائد الأعلى للحرب » ، مع أن مولتكه كان القائد الاعلى الحقيقي ، الذي يدير الحرب ، ولا يحمل سوى لقب « رئيس هيئة الاركان العامة » .

ان الحرب « التي تكرهها الأمهات » ويحقد عليها العاقل ، أداة رهيبة ، إلا أنها ضرورية احياناً للحضارة والتقدم . وإنه لما يدعو الى الدهشة ان نرى أحزاباً سياسية تدعو الى السلام ، وإلى كراهية العسكرية ، بينما تعترف بأنها تعتبر الثورة أداة طبيعية للتقدم لا يمكن مقاومتها . ونحن لا نفهم كيف يرفضون للحرب الامتيازات التي يمنحونها للصراعات الداخلية ، مع ان الحرب عبارة عن ثورة دولية[1] . فلقد كان الرواد الذين جاؤوا قبلهم أكثر منطقاً ، كما أن كل النظريين الاجتماعيين ، أصحاب نظريات العنف (برودون ، ماركس ، انجلز ، جورج سوريل ، لينين) ، قد مجدوا في يوم من الأيام الصراع المسلح ودوره الخلقي . وقد اعترف برودون[2] « بأن الحرب هي أعمق الظواهر وأسماها في حياتنا الأخلاقية ولا يمكن مقارنتها بأية ظاهرة أخرى . انها طريق العاصفة » . وقد قال جوريس نفسه ، برغم دعوته للسلام أثناء خطاب بمناسبة توزيع الجوائز في مدرسة التجهيز في آلبي : « إننا لا نستطيع التشنيع بالحرب ، فلقد كانت جزءاً من العمل الانساني الكبير . وقد شرفها الانسان بالفكر والشجاعة والبطولة المثارة وبالازدراء الشريف للموت » . وليس هناك ما يؤخذ على هذا الحكم ، سوى بعض التفاؤل الواقعي للخطيب ، الذي وضع الجملة الثانية في صيغة الماضي .

فالحرب ، في الوضع الدولي والاجتماعي الذي نعيش ، ظاهرة طبيعية . وهي أيضاً كارثة رهيبة . وإني أود وآمل أن يجتهد رجال الدولة الأذكياء لإبعادها عنا ، عندما يتجه خطرها الينا . وأقر قيام العاقلين بوعظ الشعوب ، ونصحها بالاعتدال في مطامعها القومية ، واحترام حقوق الشعوب الأخرى ، والعمل على صنع العدالة والبناء الاخلاقي ، الذي سيقلص تدريجياً ودون شك من احتمالات النزاع . ولكن لماذا تنكر القيمة الأخلاقية للحرب ؟ لماذا ننكر ان الحرب تزهر أنبل الفضائل في النفوس القوية ؟ ولماذا نرفض أن نرى الجواهر الصافية التي تسقط احياناً من يديها الملوثتين بالدم ؟ إن الانكار والرفض يعنيان الكذب والمخاطرة باضعاف الشعب قبل التمكن من ابعاد الخطر

---

(١) ان قبول الحرب أو رفضها امر يختص بكل حرب على حدة . ولا يمكن تفضيل فكرة الحرب او فكرة السلام بصورة مجردة ، ودون النظر الى الارضية التاريخية والأسباب الاجتماعية المحركة للحرب او الداعية للسلم . وتندد الاشتراكية عادة بالحرب بين الشعوب التي يقتل فيها الفقراء من الطرفين ، ويتعرضون لشتى الوان العذاب في سبيل مصالح الطبقات الحاكمة في هذا الجانب أو ذاك ، وتصفها بأنها « عمل من اعمال البرابرة والوحوش » . ولكنها تعترف بالحرب ضد الاستغلاليين ، كما تنادي بالحرب ضد المستعمرين الغزاة الراغبين باستعباد الشعوب وإذلالها . ان فكرة السلام فكرة انسانية ، ولكن لا مكان لها في ضمير الأمة العربية المعرضة للعدوان . لأن تعرض الوطن للخطر يتطلب صمت جميع الأصوات حتى « لا يعلو صوت على صوت المعركة » . (المعربان)

٢) برودون ، الحرب والسلم (١٨٦١) .

عنه . وقد فعلنا ذلك قبل الحرب العالمية الثانية ، ودفعنا ثمناً غالياً لذلك . فنحن نعيش في قرن من الحديد وعلينا ألاّ ننسى ذلك أبداً .

فطالما يولد شعب من الشعوب مقاتلين ، ويشّرف فضائلهم ، فإن هذا الشعب يسير في الطريق المستقيم . ولكن عندما يزدري الشعب سيفه ، ويحلم بجنات المستقبل ، فهو يستدعي الموت . ومن المناسب ، اليوم وغداً دون شك ، أن نكرر للأمم التي تميل الى النسيان ، قول فوفينارغ : « ليس هناك من مجد قد تحقق بدون سلاح » .

دم الضحية الأسود

الغضب هو القوة النفسية التي تدفع الجندي للهجوم ، أو تحافظ عليه متشبثاً بالأرض تحت عاصفة من الحديد والنار . انه مركّب الحماسة والشرف والتعود على الخطر ، هذا المركبّ الذي يقود الجندي ، منذ استلام الواجب الملقى على عاتقه حتى اتمامه . انه الدم الأسود للثور المذبوح كفدية وضحية ، هذا الدم الذي يعطي الحياة الظلال . انه الطاقة الداخلية التي تضيء وتغذي شعلة المعركة ، وتثير وتحيي الاختلاط الدامي ، حيث تحاول الإلٰهة العاقلة بالآس ادخال شيء من الوضوح ، وبعض التماسك . وإذا أهملنا غضب الإله آريس ، فإن دراسة الحرب تتقلص إلى منطق يستخدم الاشارات والرموز ، وإلى فن يَصُفّ الأرقام صفاً . ولكن أخذ هذا الغضب في الاعتبار ، يجعل نفحُ الحياة المضطرم يغني مخططات العسكريين ويزيدها خصوبة . وبهذا الغضب ندخل على المستوى نفسه « في هذه الأجزاء الإلهية » لفن الحرب ، التي تحدث عنها نابليون ، ندخل في هذا المجال الذي تحكمه « حركات القلب الانساني السريعة الغامضة » ، التي لا يستطيع ان يحس بها ويدخلها في قراراته ، إلا القائد الموهوب،المتسم بحس فني حقيقي .

والواقع أن تدخّل القيم المعنوية ، هو الذي يولد فن الحرب، فبدون هذه القيم يتلقص كل شيء الى تكنيك ومهنة . ان من الممكن تعلم الحرب ، ولكن ليس من الممكن تعليمها بصورة كاملة ، ككل الفنون الأخرى . ذلك لأن من الممكن تعليم نظرية فن الفنون ، لا تعليم الفن نفسه . ويُعَلم عادة فن الرسم ، وفن مزج الألوان ، بينما لا يدرس الفن التشكيلي ، والرسم بالزيت هو السبيل لتعلم هذا الفن . وبالقيادة يتعلم الانسان أن يقود ، وليس هناك شيء مضحك اكثر من ادعاء إعداد قادة بواسطة محاضرات تعليمية . ولهذا فلم أحدد لنفسي مثل هذا الهدف الطموح الذي يتنافى مع

العقل والصواب ، بل بدا لي أنه باستخلاص مختلف العناصر المعنوية في القتال ، وبابراز عملياتها المتشابكة ، نستطيع اعداد الأفكار ، بصورة مجدية لفهم وسائل التأثير على معنويات القطعة في خلال العمل ، وطبقاً لما يتطلبه كل حدث من الأحداث . وبدا لي ايضاً ، أنه بأثارة الذكاء ، يمكننا ان نوجه بشكل عاقل اندفاع القلوب الضروري . وأخيراً بدا لي ، ان من المجدي أن نكرر للحكام والمحكومين ، اكثر من أي وقت مضى ، في عهدنا المؤلم المفعم بالمآسي ، أن القيمة المعنوية للقطعة ترتبط إلى حد كبير بهم ، وأن القائد العسكري يتلقى منهم المادة الأولية لأداته القتالية ، وأن الجيش المعبأ هو الأمة ، وأن الأمة تتهم نفسها عندما تتهم جيشها ، وانه لا شيء أكثر جنوناً واجراماً من محاولة « التشنيع بالحرب » قبل تأمين السلم .

وفي نهاية دراسة ، كانت أحياناً مكثفة جداً ، يحلو لي أن ألاحظ ان خطوطها الكبرى بقيت ظاهرة بوضوح . وأنا أعرف جيداً ان بساطة نظرية من النظريات ليست دليلاً على صحتها . كما أعرف أيضاً أن من الممكن أن تكون الحقيقة معقدة ، ولا يمكن ردها إلى صيغ بسيطة ، إلا أنني أعرف ما تحتوي عليه أطروحة قابلة للتكثيف ، وبعض القضايا المختصرة والواضحة ، من قوة بيان واقناع :

ـ في الحرب كما في الحياة ، ليست القيم المعنوية كل شيء ، لكننا نُقهر دوماً في النهاية معنوياً .

ـ ليست الشجاعة العسكرية مجموعة من الغرائز الوراثية ، انها كسب وفضيلة اجتماعيان .

ـ إن السمة الاساسية لسيكولوجية الجندي في الميدان ، هي عدم الاستقرار « فالشجاعة يومية » .

ـ في نطاق القطعة ، تضاعف عدوى السيكولوجية الجماعية ، والعمل الاستقطابي للقائد ، القوى المعنوية الفردية ، وتثبّتها ، وتوجّهها .

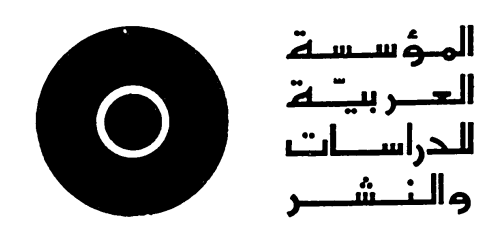
ـ السلطة الحقيقية سلطة معنوية ، وتُكتسب بخدمة قضية من القضايا التي تتجاوز الأفراد ، وبميزة الافراد الذين يطيعون .

ـ القطعة في القتال ، أداة أقوى من الفرد ، لكن التعامل معها أسهل من التعامل معه .

ـ لا تستطيع القيادة العسكرية تحقيق النصر ، اذا لم تزودها الأمة برجال يريدون الانتصار .

ـ الحرب شر ، في المجال المادي . فهي ألم . لكن كونها ألماً ، يجعلها قادرة في المجال الفكري على لعب دور أداة اصطفاء وتحسين .

فهرست



من دراساتنا العسكرية

صدر حديثاً، المجلد الثالث من الموسوعة العسكرية

رئيس التحرير: المقدم الهيثم الأيوبي

شارك في التحرير خمسة وستون باحثاً عربياً من العسكريين أو المختصين بالعلوم المرتبطة بالشؤون العسكرية.

تعنى الموسوعة بالعلم العسكري على مختلف مواضيعه وتشعباته، وقد صدر منها حتى الآن ثلاثة اجزاء، كل جزء في ٨٥٠ صفحة من الحجم الكبير والكثير الكثير من الصور والخرائط والوثائق والرسوم.

وصدر ايضاً للعميد الدكتور ياسين سويد الجزء الأول من التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين (المعنية والشهابية) ويتناول هذا الجزء تاريخ الإمارة (المعنية).

٤٣٨ صفحة مزودة بخرائط ورسوم.

ومن دراساتنا العسكرية الكثيرة نذكر كتاب اتفاق فصل القوات الثاني في سيناء ١٩٧٥ للمقدم الهيثم الأيوبي.

٤١٥ صفحة مزودة بالخرائط والرسوم والبيانات



الكائن البشري صانع الحرب وأداتها الأولى. وهو يضع في خدمة العمل الحربي كل قواه المادية والفكرية والنفسية، ولكن تطور فن الحرب تحت تأثير التقدم العلمي والتكنولوجي، قلل من أهمية استخدام قوة الانسان المادية في الحرب، وجعل القوتين الفكرية والمعنوية في الدرجة الأولى.

ويقدّم هذا الكتاب دليلاً على مكانة الفكر، الذي تنبثق منه الإرادة القتالية وأساليب تنظيم القوات واستخدامها، ويحدد العلاقة بين الذكاء والحرب، ويشرح مواقف القائد الفكرية عند اتخاذ القرار، ويسلط الضوء على القيم المعنوية التي تؤمن التماسك النفسي للمحارب في مواجهة المجهول، وتجعل القطعة العسكرية وحدة متماسكة، رغم عوامل التفتت الناجمة عن الخطر والاجهاد وغموض المواقف.

المؤسّسة العربيّة
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون. ساقية الجنزير. ت ١/ ٨٠٧٩٠٠
برقياً موكيالي بيروت. ص. ب. ٥٤٦٠ / ١١ بيروت